ذاكرة الشعوب

٣٠

مكتبة

دانياتشو ووركو

الشمس الثالثة عشرة

مؤسسة الأبحاث العربية

ترجمة:

سعدي يوسف

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

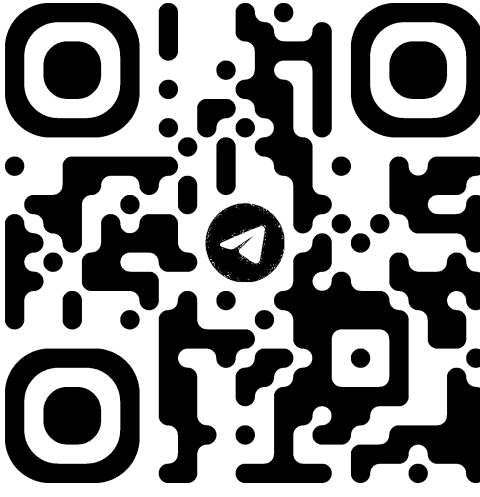

telegram @soramnqraa

الشمس الثالثة عشرة

دانيا تشوورکو

الشمس الثالثة عشرة

ترجمة:
سعدي يوسف

مكتبة
t.me/soramnqraa

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت-لبنان

مكتبة
t.me/soramnqraa

* دانياتشو ووركو: الشمس الثالثة عشرة
* الطبعة العربية الأولى، ١٩٨٨.
* جميع الحقوق محفوظة
* الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية، ش. م. م.
ص. ب ٥٠٥٧/ ١٣ (شوران)، بيروت ـ لبنان
هاتف ٦/ ٨١٠٠٥٥، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان.

* تصميم الغلاف: نجاح طاهر.
* الصف والماكيت: المجموعة الطباعية (ناصر عاصي).

هذا الكتاب هو الترجمة الكاملة لرواية:

DANIACHEW WORKU: The Thirteenth Sun

African Writers Series
London 1981

ثبتٌ بالكلمات الأمهريّة

مكتبة
t.me/soramnqraa

أبو جديد: مسلم.

أديس: اختصار أديس أبابا.

آديس: مسحوق ذو عطر لطيف مصنوع من أوراق نبتة الآديس.

آغافاري: حاجب وبوّاب.

انجيتلبسي: رداء قطن خارجي صغير للأطفال.

اندود: أزهار شجرة يستعملها الفلاحون لغسل ملابسهم بدلاً من الصابون.

إنجيرا: الغذاء اليومي للإثيوبيين. نوع من القرص.

إيمبوي: فاكهة نبتة شائكة.

ايربو: وعاء لكيل الحبوب.

بيجينا: آلة موسيقية ذات اثني عشر وتراً أو ثمانية أوتار.

برنوس: قباء صوف أسود له ما يماثله في المغرب العربي.

بيسانا: شجرة دائمة الخضرة يستفاد من خشبها في الأعمال المزخرفة.

تابوت: ظلة مربعة للفلك المقدس ذي الوصايا العشر.

تسكار: احتفال في أربعينية المتوفى.

توكول: كوخ مسقوف بالأغصان.

جيرازماش، كيجنازماش، ديجازماش: ألقاب نبلاء أمبراطورية.

جيراف: سوطٌ من أمعاء البقر.

داس: مأوى مؤقت مصنوع من الأعواد ومغطى بالأعشاب والجلود.

ديبتيراس: رجل كنيسة.

راس: لقب نبيل.

زلزل: لحم مقطع قطعاً عديدة كالسلسلة.

سفد: سفط من الأعشاب.

سليتشا: جلد ماعز لحفظ الحبوب.

شمّا: قباء خارجي يلبسه الإثيوبيون عادة.

الطفّ: حبّ اثيوبي يصنع منه رغيف الإنجيرا.

الطج: شراب من العسل.

الطلا: بيرة اثيوبية.

فرنجي: أجنبي (أوروبي أو أميركي).

فيتاوراري: رتبة نبيل ذات طابع عسكري ومدني أيام الأمبراطور.

القات: نبات منبه، مكيِّف، يستعمله في اثيوبيا، المسلمون.

كاتيكالا: شراب يماثل عند الإثيوبيين الجن أو الفودكا.

كيرار: آلة موسيقية ذات ستة أوتار.

كيراري: شراب خفيف يصنع من بقايا عجينة البيرة.

كوسو: شجرة تزرع لأزهارها التي تستعمل ترياقاً للدودة الوحيدة.

كونّا: وعاء لكيل الحبوب (أكبر من الإيربو).

ماسينكو: آلة موسيقية ذات وتر واحد.

مدب: دكة طينية.

نتيلا: شمّا خفيفة.

وانجا: إناء شرب مصنوع من القرن.

وانزا: شجرة دائمة الخضرة تزرع لثمرها وخشبها.

واشينت: آلة موسيقية هوائية تشبه الناي.

الووت: مرق بالكاري يؤتدم به مع رغيف الإنجيرا.

وويبا: شجرة دائمة الخضرة قوية الخشب تستعمل أزهارها لصبغ الأردية الكنسية بالأصفر.

ووديما: البيدر.

إلى تيودروس جبري ـ أمالك

ليكن اللهبُ دفقاً، والنبعُ دخاناً
سأبذر حفنةَ رملٍ في أرضٍ قاسيةٍ
وأحصد حصاً هشًّا في موسم الخصاصة .
لم يبق لك ما تفعله سوى هذا
ألست ترى مربض مدفع القلعة البطوليَ
كأنه منذ اليوم بقعةٌ خرابٍ مفضّلة .
أيقونات بلّورٍ نسلخ عليها جلودنا،
يا ربّ .

سولومون دريسّا

القسم الأول

١

غويتوم

على امتداد الطريق الرئيسة المؤدية إلى تلال بلدة بيشوفتو الصغيرة الواقعة جنوبي أديس أبابا بثلاثين ميلاً، زرعت لوحات في كل منعطف، تعلن عن بضائع متنوعة، أغلبها منتجات احتكار التبغ. في هذه الإعلانات أسماء حيوانات جميلة بعضها آيل إلى الانقراض، وأسماء ملكات وأماكن شهيرة من الماضي الأثيوبي المجيد، كأن هذه الإعلانات تبشر بها في عصر الحضارة الجديد. «دخّن جوريزا»، «دخن نيالا»، «دخن واليا»، «دخن إيليني»، «دخن أكسوم ـ توليفة أميركية بالفلتر»، «دخن ماراثون ـ سجائر صغيرة»، و «الخطوط الجوية الأثيوبية ـ ثلاثة عشر شهراً من الشمس المشرقة». هكذا كانت الإعلانات تقول.

وإلى اليمين والشمال تتقاطع أعمدة الكهرباء والهاتف مع الأشجار الوارفة والأسيجة التي ترصع جوانب التلال: «عمل الشيطان» هكذا كان يسميها القرويون مسرورين. أولم ينجحوا؟ بعونٍ من الطبيعة، بداهةً. كانت العواصف الرعدية والبروق تنثر هذه الأعمدة شظايا، والنمل الأبيض يأكلها في باطن الأرض، والقرود تترجح على الأسلاك فتنفكّ انعقاداتها من أعلى، والرياح العاتية تقدم عونها أيضاً حين تميل بالأعمدة من الجنب فتسقطها في كل منحدر معرَّض لمهب العواصف. والأهالي؟ أكيدٌ أنهم مستعدون، دوماً، لتقديم لمستهم الأخيرة على هذا المكروه الذي حلَّ بمشيئة

من الله. إنهم يحلّون الوصلات ممهدين السبيل، وينزعون قضبان المشاجب الفولاذ بحذر، ثم يسحبون أسلاك الهاتف إلى أسفل. إن فعلهم هذا ليس لأغراض سيئة كما يقول بعض الناس، وإنما لنية طيبة وشغف خالص بالتعاون. فالقضبان الفولاذ تُطرق لتغدو شفرات محاريث، ومناجل، ورماحاً، وسكاكين. والأسلاك ستغدو أساور وخلاخيل يزينون بها نساءهم.

زير نساء زمانه، الفيتاوراري وولدو، كان في المقدمة، وقد حمله أربعة من خدمه، على محفّة.

التي ستكون ابنته وتحمل بيدها الشمال حزمةً من فتائل الشمع ملفوفة بقماش أحمر، وبيدها اليمنى عصا التقطتها أثناء سيرها (وبين حين وآخر، تنحي العشب والأوراق)، كانت بعده مباشرة. أما أنا فقد كنت في المؤخرة، أحمل مسدس الفيتاوراري عيار ٣٨ في قراب كتف. نحن السبعة، تركنا الطريق الرئيسة إلى بيشوفتو، وانعطفنا يميناً، لندخل في نيسم موحلٍ غير واضح المعالم. وشرعنا نصعد، ونحن نجرّ أقدامنا جراً في هبوط وصعود وتعرجات واستدارات لا تنتهي، نحو قمة الجبل، زيكوالا، حيث ماء آبو المقدس المعروف بقدراته الخارقة على الشفاء. تكلم الفيتاوراري: «أنت تؤمن أكثر بالأطباء البيض، أليس كذلك يا غويتوم؟ أنت تسجد عند أقدامهم، إنهم آلهتك.. بل لقد كنت تريد أن تراني أموت تحت سكينهم، سكين الجزار».

حسناً، ماذا بإمكاني أن أقول؟ اكتفيت بالإصغاء إليه.

«أنا أفضل الذهاب إلى قسيس ما يشفيني بالتعازيم والبصقات على الذهاب إلى طبيب».

قلت متجنباً إغاظته بصمتي: «أنت تعرف ما تريد، وتنفّذه».

«بالتأكيد!».

كنا نسير ونسير، صاعدين، متفادين صدوع الجروف الخشنة ومسايلها التي فتحها المطر الغزير، والأرض تنطوي تحت أقدامنا ـ مسايل صغيرة لم

تعد تسيل، وسلاسل تلال، ومنحدرات، ونتوءات صخر، واكتافاً، وأجمات صغيرة متناثرة من عرعر وصنوبريات، وأدغالاً واسعة عديدة من شجر الكوسو، بسيقانه الحمر ذات العقد وأوراقه الخضر اللامعة وأزهاره الكثيرة القرنفلية والبنفسجية المزرقّة التي تستعمل ترياقاً للدودة الشريطية ـ الأرض تنطوي تحت أقدامنا، في كل صعود، وتختفي غائمةً في زرقة حالمة، إلا أنها لا تنطوي إطلاقاً، كأن المسافة إلى القمة تزداد بينما نحن نجهد لبلوغها، وأفئدتنا تئنَ ـ ارحمنا يا رب!، ثم يأتي الأمر في غمغمة وتمتمة «لنرتح قليلاً، يا أولاد». وكم كنا سريعين في سماع الأمر وإطاعته. الخدم توقفوا فوراً، وأنزلوه ببطء عن أكتافهم تحت شجرة وارفة ـ ثم بدأنا نستعيد أنفاسنا. «أسمعتَ عن المسيح الدجال الذي سيظهر قبل يوم القيامة؟ لقد دنت الساعة، الألف الثامن، يوم يكسر أغلاله ويمتلك العالم. ومن يدري، ربما كنت أنت وأمثالك هنا كي تمهدوا له السبيل».

«في أي مكان يقولون إنه مغلول؟».

«لا تقل لي إنك ستذهب لتخليصه لو عرفت المكان».

«لا أظنه سيأتي منتعلاً خفين من قنَب، ومرتدياً جلداً غير مدبوغ، كما في سالف الأيام».

«بل سيأتي في أكمل بهاء، والشمس إلى يمينه، والقمر إلى شماله».

صار وجهه بنياً مصفراً، وأغمضت عيناه في مثل تأمل عميق، وصدر من حلقه صوت مخشخش، وغدا تنفسه شخيراً ذا صفير خافت. وبدا كأن رعدةً عبرت جسده. ثم فتح عينيه. نظر حوله، مرة أو مرتين، نظرة منهكة. أغمض عينيه ثانيةً. ورقد بلا حراك.

إلا أنني كنت قادراً على أن أتخيله، وهو يعزف على موضوعه المفضل ـ لُبِّ كلامه كله.

كيف باستطاعته المضي! هو الذي يظل يردد «إن ألَمَّ بي أمرٌ، فعليك أن

تأخذني إلى ديبري ـ ليبانوس، مرقدي الأخير. كل هذا مدوّنٌ بالتمام في وصيتي».

أقول له: «تعني حين تموت؟».

يقول: «نعم، حين أموت!».

وأقول: «لقد تحدثنا عن هذا مراراً، من قبل، أليس كذلك؟».

«بلى، وأنا أعود إلى تذكيرك مراراً في حالة...».

أقول: «في حالة نسياني؟».

يقول: «في حالة لو راودتك فكرة وضعي في مكان آخر».

أقول: «سيلغى حقي في الميراث فوراً».

ويقول: «نصف ما أملكه سيكون من نصيب أولئك الذين تكفلوا ببناء الكنائس في أنحاء أثيوبيا، والنصف الآخر من نصيب الذين سيصلون لراحة نفسي».

وأقول: «لم أكن لأهتم لو كان النصف مخصصاً لبناء المدارس».

يقول: «أنت تعلم جيداً أنني لست معنياً بتلك الزبالة».

حين تنظر إلى جوانب التلال، يقع بصرك على مزروعات هنا وهناك: الطفّ، الذرة، القمح، وحبوب أخرى مما يُزرع في مناخ معتدل، وثمت فلفل حار، وقرع، وبطاطا، وطماطم؛ أما إذا نظرت إلى أعلى فسوف ترى غياضاً من شجر الزيتون البري، والوانزا، والجميز، والتين، والوويبا، والبازلاء البرية الحمراء المتسلقة التي تغطي أشجار الغابة حتى فروعها العليا، وتتدلى أشرطةً من زهور. كما تشاهد السرخس المنشاري ممسكاً بجذوع الشجر مثل قرون الأيل، والياسمين، وأفوافاً من اللبلاب، وإلى أعلى تجد الصبار أنواعاً، والصبر، والفربيون الذي يبدو شائهاً، نصف دفين، في سحائب خفيضة متعلقة بقمة الجبل. وتظن أنك سمعت صوت الفيتاوراري يخشخش، فتكون مصيباً في الغالب، كأن يقول: «في الواقع

إن عدم استطاعتنا بلوغ الكنيسة قبل القدّاس، عقاب من الله على حياة الرذيلة التي عشناها». هكذا تعرف أن وقت استئناف الرحلة قد أزف، صعوداً صعوداً صعوداً، وجوانب التلال والصدوع المفعمة بضباب رمادي تضيق وتضيق ونحن نشق طريقنا صاعدين إلى الغيوم. الضباب يزداد كثافةً ويزداد حتى تغطي العتمة الجبل بأسره. عليك أن تصعد وتصعد إن كنت تريد بلوغ القبة الزرقاء. قلبك يخفق قلقاً، وروحك لا تهدأ. أنت متقدٌ بشملٍ وأفكار غير مفهومة، فتظل تواصل السير حتى ينتابك إحساسٌ مثبطٌ نابع من حالة الإعياء التام حين تبدو الرجلان تتحركان لا من العجيزة وإنما من الكاحلين في جَرٍّ مُنْفَكٍّ، حتى تكون في مرحلة التعثر والترنح الأخيرة. لكنك ـ تماماً في الوقت المناسب وفي مثل الحلم ـ تسمع الخشخشة السماوية للصوت «لنرتح قليلاً، يا أولاد». ترتاح أنت. ترتاح وتحاول أن تفتح عينيك وأذنيك. العينان والأذنان أصابهما الخدر من الإعياء الشديد. وتحاول جاهداً أن تسمع حقاً ما تسمع، وأن ترى حقاً ما ترى.

وجوه منهكة مغضنة تتطلع من خلف كل شجيرة، بعيون جوفاء غائرة، وخدود كالجثث. المنطقة كلها ترنّ بأصوات مولولة متوسلة: «باسم القديس آبو... باسم مريم العذراء... ليمنحك القديس آبو الشفاء... لتكن مريم الطاهرة إلى جانب الرجل المريض وتمنحه قوة احتمال الألم... ليكن الأب السماوي سلواك في حزنك وأذاك...»، الوجوه ذات لون ترابي، لونٍ لا يوصف لخشبٍ قديم متعفن. إنهم يمدون أيديهم يطلبون الصدقات، عبثاً، من المارة. وهذا هو الشأن في البقاع المقدسة.

سألت أخيراً بصوت عال: «كيف تأكدت من أن المسيح الدجال لن يستبيح أرض ديبري ليبانوس المقدسة؟».

قال: «هذا مكتوب...».

«أوه، في سيرة القديس تيكلي هايمانوت؟».

«نعم!».

«إذن، إما أن أحمل جسدك إلى هناك أو أفقد الميراث؟».

«ولا تنس أن تحملني على محفة كما هي العادة القديمة. أنا لا أريد أن يُسَمَّرَ عليّ صندوقٌ، ويلقى بي في عربة ما، وأُرسل سريعاً إلى قبري».

«تريد أن يكون نقلك بطيئاً ومهيباً، بالوقفات السبع كلها، مع إنشاد الترانيم والمراثي».

«صحيح».

«أتضرع إلى الله، من كل قلبي، أن تتعافى، وتعيش طويلاً بحيث لا تريد شيئاً كهذا، بل لا تريد شيئاً على الإطلاق».

«إنه خير وقت أدركت فيه هذا، وصليت بحرارة».

على بعض التلال ترى مآوي بشر، منعزلة، نصف متعفنة (جدران مائلة، وسقوف متداعية)، ذات بساتين كرنب ـ كرنب بني، كرنب أبيض، كرنب أحمر، كرنب السافوا ـ تحيط بها. ومن الأبواب الشبيهة بالحفر ترى هذه المآوي تطلق آهليها، ملطخين كما يبدو بالشمس والغبار والمطر، وكلهم يذكرك باللون الترابي للخشب العتيق المتعفن.

وعلى مقربة، فوق نشز قرب شجرة، تستريح امرأة مكتنزة وقد أراحت رأسها على صرة صغيرة، ويبدو بوضوح أنها منهكة من السير. شفتاها الغليظتان منفرجتان في ابتسامة قبيحة. إنها واحدة من النسوة المخفقات الكثيرات ذوات الآمال والخيبات والاحباطات والرغبة في أن يكنّ شيئاً. كنت أعود إلى جماعتي حين رأيت شخصاً كالمجنون يأتي ويركلها. كان يبدو أنه يكره وضعها فصمم على إيقاظها. أمسكت به من ياقته وهززته قليلاً.

تأوهت المرأة ومضت في نومها ـ يا أم الله المقدسة!

بين الحجيج، ترى الشحاذين. إنه لأمر فظيعٌ أن تراهم في أسمالهم التي

تغطي أجسامهم، والعصيّ في أيديهم، والأكياس الكبيرة على ظهورهم، بعضهم مصاب بالجذام، وبعضهم بالسل، وآخرون بالروماتزم المُشِلّ، وآخرون بأمراضٍ جنسيةٍ وجلدية. كيف ينظرون إليك واثقين محدِّقين - يسعلون حيناً، ويصفرون حيناً، ويومئون ويصيحون. وتتمنى أنت لو تغور في الأرض. لكن شابةً بملابس نظيفة تمرّ، وسيداً متقدماً في السن ينزع مسدسه كي يرتاح تحت إحدى الأشجار الوارفة. وأنت تستمد شجاعة وترغب في أن تحيا بالرغم من كل شيء. أنت تفتح سترتك، وتطلق زفيرك بأقصى ما تستطيع، وتنطلق في سبيلك نحو الكنيسة.

حجّاج شبّان يسيرون أسرع منك، وهم يتصببون عرقاً ويمسحونه عن وجوههم بأصابعهم الإبهام.

بعضهم، مثل ووينيتو، يتخلف في السير. ووينيتو الجميلة! إنها تجاهد كي تضع قدماً خلف اخرى. تجاهد! والحرارة تخنقنا جميعاً مثل ثلاثة آلاف عام. ابن آوى هزيل، منزوع الإهاب يخرج من دغل ما، وهو يتشمم، ربما جثةً متعفنة. أنت تهمله، وتمضي في سيرك، صعداً، صعداً، حتى يكاد الإعياء يستبدّ بك استبداداً. جسدك كله يبدوَ مرهقاً بثقل فادح، كأنه يحمل قنطاراً من الطفّ، وتؤلمك عيناك بحشد من النقاط الدوّامة المعْشية، وتأبى ساقاك أن تطيعاك، والصقور فوقك تحوِّم في الهواء، وينادي أحدُها الآخرَ، خافقة الأجنحة إزاء بعضها، ثمت صقور تنطلق متسامية مع الريح، وصقورٌ تسفّ بغتةً كأنها تريد أن تحطّ عليك...

الفيتاوراري يتكلم وكأن صوته آتٍ من بئر لا قرار لها «لا، ليس هنا، سنرتاح بعد صعودٍ قليل!». وتمضي صاعداً، الناقوس يدندن عالياً بعيداً من مكان ما، والكنيسة ما تزال نائية، جد نائية. وأنت تجهد لاهثاً، وتفرك عينيك لترى، وليس سوى الضباب والدغل وتقاطعِ طريقٍ وشجرة عارية متنحية، ثم تسمع ما أمر به الله: «أعتقد أن بالامكان الاستراحة هنا قليلاً، يا أولاد».

تختطف سترتك من كتفك، وتبحث في الجيب عن سيجارة (بالرغم من كره الفيتاوراري لها) وتشعلها، وتبصق بين أسنانك مثل رجل، وتومىء

لنفسك إيماءة رأس غير مبالية، وتجلس، مروّحا على وجهك بغصين من شجر البيسانا.

السّمان والدوريّ والتّمير وطيور أخرى تغرد في كل مكان بين العوسج الشائك. تنهض طيور مالك الحزين، تنشر أجنحتها بكسل، وتتسامى خافقةً نحو ارتفاع كبير، سارحةً حائمةً، ممطوطة الأعناق، مطلقةً صرخات وحشية نفّاذة. ثمت حمار ضويق في غفوته، فنهق نهيقاً طويلاً مجروحاً، ثم توقف، بلا كرامة، بعد بضعة احتجاجات. الصوت الجليل للناقوس يأتي من الكنيسة متقطعا ـ الصوت المعدني يأتي من قمة الجبل، ليذوب في أفئدة التلال، ويتلاشى بعيداً.

«يجب أن نحاول الوصول إلى الكنيسة قبل انتهاء القدّاس». هكذا قال الفيتاوراري، وهكذا تستأنف المسير صاعداً في طريقك.

لكن الساق ترفض العمل. كانت نائمة. وليس لديك فرصة التوقف لإيقاظها. من حسن حظك أنك رأيت ووينيتو تضع كل ما تبقّى من قوتها في المشي، وتلحق بك. او امرأة برداء أبيض، سيدة صغيرة مثيرة، تأتي في حالة إرهاق فاتن، ممتطيةً بغلاً، متبوعةً بفتاة وعدد من الأتباع، وهي تنظر إليك فيما تبدو نظرة هادئة ـ ثم هزّة الكتفين، وارتعاشة الساقين، حين تمرّ بك. أنت تنسى ساقك، وتسير، حتى تدرك تدريجاً أنكم جميعاً تسيرون بطريقة غريبة منحرفة. أحدكم يشرع في غزْل خيوطٍ لينسى تعبه! «إن باطن قدمي العارية يحترق... يجب أن نتوقف لنستريح... أظن شوكةً وخزتني في قدمي، وهي تغور أعمق فأعمق... أشعر بالألم في ساقي كلها»، ولأنه خادمٌ اعتيادي، فلا أحد يهتم بكلامه. أنا، مثلاً، لم أهتم. كنت غاضباً لأمر اخر، بغل السيدة الذي يخبّ. كان يحملها بعيداً. ثم جاء راكبٌ آخر، فأفسحت له السيدة المجال حين اقتربوا من بُريكةِ وحلٍ. لكن رشاشه لحقها بالرغم من ذلك، ولطّخ ساقيها، ومع أنها حاولت إنقاذ نفسها غير أنها لم تفلح إلا في تلطيخ ردائها بمزيد من الوحل. شرعت تنطلق أسرع وأسرع، بحيث لم تترك لنا فرصة إمتاع عيوننا بمرآها امتاعاً كاملاً. مزقٌ من أفكار سودٍ تدور

في ذهنك كالغيوم بعد العاصفة. حلقك متيبس. وتحس بحاجة شديدة إلى أن تشرب الطلا. والشيء الآخر الوحيد الذي سيرضي ما فيك من توق... حسناً، أنت لم تعرفه حينها ـ ربما القهوة، لا ـ أنت لم تعرف. ثم بدأ شيء يقرقع ويقعقع في صدر الرجل المريض. أخذ الرجل ينتفض وينقلب في ارتعاشات. وأخذت تفكر، وأنت تنصت إليه، في أنه قد يكون ساحراً، أو سيداً على هذه الجروف البعيدة، وسلاسل التلال، وأكتافها، والهضبة الجبلية ـ وأنه هو الذي أنبت الكنيسة أساساً في هذه البقعة الخشنة القاتلة، ورصّع التلال عن عمدٍ بتلك الجحور المتعفنة ـ وأنه هو الذي سمم عقول الناس بالذل ـ إنه هو الذي التهم قلوبهم بالانكماش والانحطاط ـ إنه هو المسؤول عن هذا الوجود المميت. أجل، وتراءى لك أن الأمر يوجب أن يكون هو الذي يمد يده متسولاً على امتداد الطريق، هو الذي كان يحوّم مثل غراب، أو يظهر عند مفارق الطرق مثل ابن آوى هزيل، وانه هو الذي لطخ برشاش الوحل تلك المرأة، هو... هو... هو... أنت تدور من الكاحلين في حركة منفكّة، متعثراً مترنحاً... لقد حلمت بأنك بلغت مقصدك ـ جيكوالا، أو زيكوالا كما تسمى هذه الأيام.

نهر آواش، كأنه يتآكلك، يطوّق الجبل من الشرق. وبعيداً، على الأرض المستوية، وعلى امتداد الطريق إلى بيشوفتو، يهدر قطارٌ نحو جيبوتي، مخلفاً وراءه أشرطة ممزقة من دخان رمادي يزيد من التراكم الثقيل للغيم.

٢

ووينيتو

كانت سماء العصر تتقد سخونةً. الوهج الساطع يؤذي عيون الحجيج. غويتوم كان انحدر أسفل أحد التلال ليستأجر جحراً. ووينيتو كانت واقفةً إلى جانب أبيها، إلى أن شرعت تسير مبتعدة نحو إحدى الشجيرات القريبة بدون أن تعي ما تفعل كما يبدو، ولا شك أنها تحاول، غير واعية، الخلاص من شكوى الشيخ. كان يقول: «إذن، انتهت صلاة الكنيسة، وعلى أي حال، أنتم لم يكن ليهمكم الوصول إلى هنا في الوقت المناسب، أليس كذلك؟ لقد كنتم تستريحون في كل انحناءة أو استدارة».

طوال الطريق صعوداً إلى الجبل، لم يحدث ما عجزت عن وصفه لنفسها في أفكار أو كلمات. لقد رأت الفلاحين واقفين قرب الأسيجة الشوكية لأكواخهم المتداعية وهم يرتدون الثياب القطن المنسوجة بأيديهم والتي تغطي حتى أنوفهم الشمّ. وراقبت فتيات الغالا بثيابهن الملفوفة حول الخصر والمتدلية إلى القدمين، وبشعرهن المجدول ضفائر جميلة مثبتة بالزبدة. لقد تمتعت بالنظر إلى الأرض المليئة بأزهار البريمولا والجلاديولي والجيرانيوم امتلاء السماء بالنجوم. بل لقد نهلت من النبع، من جذع مجوف كان فيه كالأنبوب ـ كانت منعشة تلك البقعة الباردة الظليلة. مع هذا كانت تشعر أنها غير سعيدة طوال الصعود. ثمت ارتباكٌ مدّ جذوره فيها، وظل يؤرقها، ويجعلها تحس بالقلق. استندت إلى إحدى شجرات الدغل، وشرعت

تشغل نفسها بمغامرات خيالية. إنها تعمل مضيفة في الخطوط الجوية الإثيوبية. تطير عبر أفريقيا وأوروبا. مرةً حدث للطائرة حادث وهي في الجو. قفزت من الطائرة غير مبالية بالخطر، وسبحت في الهواء. ثم هبط غويتوم عليها بالمظلة كي ينقذها. إنها سكرتيرة في أرض من أراضي خيالها النائية. تتخاصم مع رئيسها وتترك العمل لأن الرئيس حاول أمراً معها... إنها تحيا حياة جديدة في بيت والدها بأديس أبابا. وفي أحد الأيام تأتي والدتها لتأخذها. ولمَ لا؟ ألم تعتد تغيير والد ابنتها كلما شاءت؟ قد تطالب باستردادها قائلة إن ذلك الفيتاوراري ليس والدها الحقيقي. لعلّ فكرتها الآن عن الوالد أن يكون «ديجازماش»، مرتبة أعلى من الفيتاوراري. أو حتى «راس»، مرتبة أعلى من الديجازماش ـ اخترقت رعشةٌ جسدها. تنفست عميقاً وحاولت أن تتماسك. فكرت «ثمت غلطٌ في تفكيري كله». تحدّر العرق غزيراً على وجهها، وآلمتها عيناها، وهي جالسة تحت شجرة، تنظر باتجاه ممر الماعز حيث هبط غويتوم.

٣

غويتوم

حاولت الاقتراب من الأكواخ المتناثرة، كوخاً بعد آخر، والتحدث إلى أصحابها. كانوا معادين أهل المدينة، لذا لم يقبل أحدٌ منهم باستقبال مستأجرين ـ إلا واحداً وافق على إيواء شخصين ليلة واحدة. ولسوء الحظ، كنت أحتاج إلى جحر يتسع لنا نحن السبعة ليلتين اثنتين. وبعد تطواف في التلال، صعوداً وهبوطاً، صادفت رجلاً وافق على إيوائنا بعد إلحاح وتوسل.

عند باب كوخه المسيج لقيت ولداً في حوالي الثامنة من عمره يبكي ويفرك عينيه، وكلباً أشعث يتبين المرء من جسمه الضامر وذيله الخفيض انه مغمومٌ هو الآخر.

كان على مضيفي أن يتردد طويلاً، ويحدق في وجهي بعينيه الموحلتين، كأنه يتوقع شيئاً، قبل أن يدخلني كوخه.

الكوخ متداعٍ إلى حد لن يصلح فيه العطار ما أفسد الدهر. والكوخ ذو حجرتين، واحدة كبيرة مدورة، والثانية صغيرة مستطيلة. في إحدى الزوايا تمددت امرأة مريضة. كانت قلقة في نومها، تنخر وتشخر، وتتقلب، وكانت ذراعاها الرفيعتان وساقاها منبسطة على الأرض. وللحظةٍ ظننتُها المرأة التي رأيتها متمددة إلى جانب الطريق. في زاوية أخرى، غير بعيدة عنها، دكة طين فرش عليها جلد مدبوغ دباغة بيتية. وعلى الدكة قطعتا لوح مربعتان، ١٢ إنشاً في ٨ إنشات، عرفت أنهما تُستخدمان وسادتين. عصيَ الوتل

وسيقان السرغوم المكسوة بالطين، والتي شُيد منها الكوخ، كانت منتزعة في مواضع عديدة، ومتدليةً شظايا. كل شيء في السقف المسود بالدخان كان يتدلى، كأن السطح ينبعج إلى الخارج. من قمة عمود الوسط تتدلى مغطاةً بالسخام حزمٌ من الدخن والذرة للبذار. وهنا وهناك يتسابق بق الفراش على الحائط. البراغيث تسلقت داخل سروالي. وعند الباب قطعة صغيرة من مرآة، معلقة، وعليها عنكبوت تحكم نسيجها.

حسناً، ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟ لم يكن لديّ بديل. الإيجار المتفق عليه دولاران لليلتين. عدت إلى الكنيسة وأتيت بجماعتي إلى الكوخ.

فيما بعد، دخلت الكوخ امرأة بملابس عمل، وعلى وجهها بقايا من جمال متلاشٍ، حاملةً حطباً. قدمها المضيف باعتبارها زوجته، ثم أخذ يطري محاسنها ـ فهي شهيرة بمعرفتها الأصول السليمة لكل مناسبة، وهي ماهرة في طرد الشياطين، وتأدية المراثي، والرقصات الجنائزية. قال: «دائماً يختارها أقارب المتوفين في كوخنا لتأدية المراثي». كان عليها أن تتفحص وجهها في المرآة قبل انتباهها إلينا. كان الوجه استثنائياً في التبدل المستمر للتعبير وحركة العينين السوداوين الحادتين اللتين تنسحبان من الباب في لحظة واحدة لتحدّقا ملياً في المرأة المريضة، وفي اللحظة الثانية تدققان في وجهي، وفي وجه أبي بخاصة، ابتسامة سريعة تعبر وجهها. مرة تبدو غائبة تماماً عما يحيط بها، فهي تحني رأسها وتظل هكذا. وحين ترفعه ثانيةً يكون ذا تعبير آخر. إنها تنحني لتساعد المرأة المريضة التي يبدو أنها لا تشعر بما تلقاه من عناية، فتظل تتقلب.

والحق، ان المرأة المريضة كانت لها سلواها الخاصة ـ إذ طوت ساقيها تحتها، وسحبت رأسها بين كتفيها، ومدت يدها لثياب وهمية تريد أن تلف بها نفسها. وبعد أن تمضي في هذه الهياجات السريعة مرتين أو ثلاثاً تغرق من جديد في تراخيها الأصلي... مثل نهرٍ بعد الفيضان.

أما الفيتاوراري، فبعد أن وضع مسدسه من عيار ٣٨ تحت وسادته، أخذ يتفحص كل شيء في الكوخ تفحصاً دقيقاً ـ حيطانه الطين، وسقفه المصنوع

من الأغصان، وكتيبة بق الفراش، والمرأة المريضة، والمضيفة، وكل ما في الكوخ، ثم شرع يتكلم، مشيراً بإصبعه إلى المضيف:

«أنت تعرف من نحن؟ إيه؟».

«كيف لي ذلك؟».

«يجب أن تعتبر نفسك محظوظاً لأننا ضيوف لديك».

«أيجب عليّ هذا؟ أوه، نحن في هذه النواحي، كما ترى، لا نفتح أبوابنا للمستأجرين... ولو لم تكن زوجتي هي المستفيدة من ذلك، لما سمحت لكم».

«أظنك سمعت باسم الفيتاوراري وولدو».

«فيتاوراريون كثار هذه الأيام، ومن الصعب ملاحقة أسمائهم».

«أنا أعني الفيتاورارين الحقيقيين ـ أصحاب منيليك، لا أصحاب الإيطاليين».

«كنت آنذاك أصغر من أن أعرف عنهم شيئاً».

«كأن فيتاوراريي هذه الأيام يستحقون اللقب!».

«لدينا اثنان منهم في قريتنا، وكلاهما لم يتبق لديه سوى اللقب والأوسمة».

«لقد فهمتني، أجل، أجل ـ كنت أتحدث عن الفيتاورارين الأغنياء، وعن اغناهم جميعاً ـ وولدو».

«أظن أنه كان عليّ أن أعرف اسماً كهذا. مشكلتي، كما ترى، انني متخلف عن الأخبار، فأنا لا أذهب إلى سوق القرية إلا لماماً».

«يبدو أنني أوضحت الأمر، فالناس الذين هم على شاكلتي، كما تعرف، ليسوا في السوق بعد... ولا حاجة إلى أن تكلف نفسك مشقة الذهاب إلى هناك».

«أنت محقّ، لا حاجة! كل شيء غالٍ كما هو ـ الطفّ، الدخن، السرغوم. . . ».

«في لغتك رائحة ترابية، ألم تتح لك فرصة سيدٍ يعلمك كيف تتحدث مع من هم أعلى منك؟».

«أوه، كثير، كثير منهم. كل ذي مالٍ هو سيدي».

«أعني رجالاً من دم، رجالاً بمقدورهم أن يعلموك كيف تتصرف في مجتمع مهذب».

«كيف لي أن أعرف ذلك؟ إنهم يبدون سادةً مهذبين بالنسبة لي، حتى تقلّ نقودهم. وبعد ذلك لا يأبهون حتى باستئجار فراشي».

«لديك فراش للإيجار، إذن؟».

«أجل، فراشي نفسه. أحياناً أؤجره لسيدٍ. لقد ألفتُ النوم على الدكة. إنه نافع للصحة، ربما أردت استئجاره؟».

ذهب إلى الحجرة المستطيلة، وجاء منها حاملاً سرير خشب متيناً. سيور جلد طرية كانت مضفورة على الهيكل، وقد شكّلت بعد جفافها، سريراً قاسياً لكنه مقبول «لا تقلق بشأن تسلخات الفراش أو أي شيء. إنه سرير مريح تماماً. بل بإمكاني أن أؤجرك جلدي الخاص المدبوغ بيتياً لقاء مبلغ زهيد جداً، إن شئت. . . أعني إنني سأقدم لك، بالطبع، حشيشاً أو تبناً أو قشاً، مجاناً».

«سأدفع مقابله، خمسين سنتاً ليومين».

«لا، لا، لا! حتى الناس العاديون، التجار والفلاحون دفعوا خمسين سنتاً لليوم الواحد».

«حسناً، لتؤجره لهم، إذن».

«كيف بمقدوري ذلك وقد احتللتم كل فضاء منزلي؟». وفي تلهفه لتأجير

الفراش أزعج بق الفراش في الجلد الطري. تشوقتْ كثيراً للهواء النقي فخرجت.

كان التبدل عظيماً، من هواء الكوخ الخانق، إلى المرتفعات التي تعصف بها الريح. وقررت سريعاً أن أصعد وأزور الكنيسة والبحيرة قبل أن تغطس الشمس تحت الأفق، ويحلّ البرد.

٤

ووينيتو

السطح والجدران مغطاة بالنباتات والمتسلقات؛ الأشنات والسراخس والقرع تتسلق جنبات البيت، وثمارها الثقيلة مستقرة على السطح، وروث البقر المهيأ أقراصاً مكوّمٌ أسفل الجدران (لماذا يستعملون هذه الأقراص وقوداً بينما الخشب متوافرٌ حولهم؟) ـ ها أنذا، أخيراً، جالسةٌ عند سياج هذا الكوخ. وإنه لكوخٌ متباهٍ، ذو تاج فخّار ـ الفخّار الخشن المزجج الذي يزين أعلى السطح المصنوع من الأغصان. وأهل الكوخ؟ الدجاجة تتجول وهي تقوقيء على فراخها الصفر الزُغب المنهمكة في كومة روث عند إحدى الزوايا، وكلبٌ عجوز لئيم ينظر إليّ مرتاباً من زاوية أخرى وهو يزمجر محاولاً أن يريني أسنانه القبيحة، وسيدة المنزل التي تبتسم بترفعٍ ولا تتنازل لتكلمني.

إنها تندفع من الكوخ، وتسير مبتعدةً، مخوِّضة في بُريكة الساحة الضحضاحة، وجرّة الفخار على ظهرها تتمايل يمنة ويسرة. والولد! إنه واقفٌ بالباب، وقد أغلق فمه بيديه كلتيهما، فربما أخبره أحدٌ أن يغلق فمه. وربما كان جائعاً وما إلى ذلك. ما إن رآني جالسة هناك حتى تراجع إلى داخل البيت. على مبعدةٍ يسيرة جلس شيخان على صخرتين متجاورتين يتحدثان بودّ. إنهما متشابهان. مثل قرود البابون الكبيرة التي كانت تقعي أمامنا في طريقنا الصاعد إلى هنا ـ وحين نقترب منها تبتعد متباطئةً هكذا! ترى، أي

حديث بينهما؟ ربما كان لأحدهما ابن وللآخر بنت. وهما يخططان لزواجهما. أوه! كم هو منعش ضوع زهور الكوسو ـ ثم إن على الفتاة أن تشرب كأسين أو ثلاثاً من الكوسو المر عشية زواجها، كي تخرج الديدان الطفيلية من معدتها، ولكي تمسي منهكةً فلا تشكل عقبةً أمام العريس. كم هم فطنون! بعد يوم صيام، وملين الكوسو في النهاية، ستمسي طيبةً كالميتة، ويكون بمقدور العريس إداء واجباته بأمان، بلا خمش منها ولا خبش!

شيخان غريبا المنظر! ربما كانا يحاولان إصلاح نزاع عائلي. أحدهما يسعل بصورة فظيعة. ربما كان يعاني من السل. ولماذا يعبأ... إن عاش أو مات. ليسعل حتى يلفظ رئتيه. أناسٌ عجيبون. إنهم بلحاهم السمر المصفرّة لا يبدو عليهم انهم يلاحظون أسمالهم وأيديهم وأقدامهم القذرة.

وهذا الفلاح! ها هوذا يجيء ويقف عند البوابة ينظر إليهما، وعيناه الجاحظتان الصغيرتان السوداوان لا تستقران أبداً مثل عيني ابن آوى.

يا لنظراته الجشعة الجبانة، ويا لطمعه! إنه ينظر بارتياب، مثل كلبة تماماً. أنا متأكدة من أني لو نهضت وحاولت التحدث معه فإنه سيضع ذيله بين رجليه ويهرب. ها هي ذي امرأته قادمة! وددت لو نزلت في ذلك الجدول واغتسلت. في ذلك النهير المترقرق المتجمع مثل حمّامٍ في فجوة ذات قاع صخري.

أشعر بأنني على غير ما يرام. وذلك الطير الجارح المقلنس جاثم على التاج الفخار للكوخ. قد يحط على الأرض متوقعاً فضلات ذبيحة ـ مع هذا أنا أحب طائر أبو السعن. وددت لو أن غويتوم كان طائر أبو السعن أو أبو منجل، بذلك الصوت العالي كالأسد...

الآن أخذ الدخان يتعالى من الأكواخ المحيطة. الزوجات يعددن العشاء لعوائلهن... وماذا لو احترقت الأكواخ؟ سقف الأغصان يقعقع في الوسط، وينهار، أمام عينيّ، مكوناً مجمرةً متقدة ضخمة. آه يا إلهي. لو كان والدي فيه، فلن يغدو إلا رماداً مشتعلاً ـ رماد لحم بشري... كم أكره هذا

الذباب. أنا مستغربة من أنهم لم يضعوا أحجاراً للقفز عليها في هذا المستنقع الآسن عبر الساحة، ليكون بمقدوري دخول الكوخ بدون أن يلحقني وضر. وعلى المرء أن يتصور أن المرأة تهيىء الحب وتنظفه هنا، للطحن. هنا أيضاً يلتقي الدجاج والحملان والأطفال ويلعبون...

أي حياة!

٥

البُركان

بركان زيكوالا، المنطفىء منذ آلاف السنين، تراجعت حممه، خطوةً خطوةً، متحجرةً في سلسلة من المدرجات، لتكون طاسةً واسعة، يملؤها الآن الماء. إنها تشبه مرآة كبيرة، مؤطرة بالأسل والقصب والسوسن والبردي وعشب المناقع، تعكس السماءَ الزرقاء والسحب المكتنزة. في أحد أطرافها تبلغ التلال الشجراء المعشبة منحدراتٍ طينية شاهقة، لتكشف، في القمة تماماً، ووسط أجمة من أشجار الكوسو والوانزا الكبيرة، الكنيسة الدائرية التي تشبه في هيئتها زهرة الربيع، كنيسة آبو، وقد اعتلاها صليب عجيب.

داخل الكنيسة وخارجها، وعلى مدرجات التلال، تفرّق الحجيج.

الحجيج حالمون، عاشوا دوماً في توقع ضربة حظ ما، وعمال عاطلون سمعوا بإقليم الجنوب الخصب ـ حيث الأرض بالمجان والقهوة برية المزارع ـ فوقعوا ضحية سهلة للتشرد، وشحاذون يقدمون أنفسهم باعتبارهم مواطنين صالحين لكن مصائب الحياة دفعتهم إلى طلب الصلوات، وحجّاج من القرى والبلدات المجاورة. بعضهم يرتق ثوبه، وبعضهم يقصع القمل، وبعضهم يمضغ أنواعاً مختلفة من «الإنجيرا» التي جمعها من أبواب أكواخ القرويين، وبعضهم نائم. وأغلبهم قذر، جهم، شائه، مثل حمم انتزعت للتو من أحشاء الأرض الملتهبة.

من بين الحجيج كله، كان الأكثر مدعاة للشفقة هم الشحاذون المصابون بأمراض مزمنة لا شفاء لها، أمراض الجسد. هؤلاء بالرغم من الآلام التي

يعانونها، والشكوى التي يبثونها للمارة، إلا أنهم يعتنون بأمراضهم ويتعهدونها باعتبارها وسيلة لاستثارة العطف، إنهم بعيونهم المروعة الخامدة الزائغة ليسوا شيئاً بدون تلك الأمراض. إنهم يتكأكأون قرب مدخل الكنيسة، يؤدون إشارة الصليب بين حين وآخر، وتسمعهم يعتذرون إليك عن أي خرق ضئيل لأصول السلوك ـ كأن هذا فقط ما تعلموه خلال العصور.

ليس لديهم من يرجعون إليه ـ لا قريب ولا نسيب، ولا حتى اسماً شهيراً من السلالة. حتى بلادهم، حيث كل حفنة تراب هي رفات أسلافهم وعرق جباههم، حتى هذه البلاد لم تعد تهمهم. لقد اضطربوا واختلطوا عبر سنين لا تحصى، فكوّنوا عادة العيش، فريدين، مع أنفسهم.

في المنخفضات المحيطة بالبحيرة، يشكل الحجاج الأفضلُ هيئة، مجموعات مختلفة. بعضهم جاء للمناسبة بمنتهى الأناقة. الفتيات بخاصة، يبدون موسرات، وهنّ يعرضن ما يملأ دكاكين من الأشرطة اليابانية على رؤوسهن، والقلائد الإثيوبية، والصلبان الصغيرة، وليرات ماريا تيريز الفضة، على أعناقهن. لكن بالرغم منهن جميعاً، سيترك الجو ميسمه المميت على نفسك.

عند البحيرة، كان معظم الحجاج يشربون ماءها المقدس أو يغسلون أجسامهم فيه. وفي موضع من المواضع كانت فتاة يبدو أنها فاقدة العقل، تنبش الأرض بأصابعها وتحثو التراب على وجهها الغريب وعينيها الحمراوين، وهي تصارع لتطلق نفسها من القسيس ومن رجلين كانا يبذلان جهدهما ليسكبا عليها الماء.

وفي موضع آخر كان رجل يأبى أن يفسد سرواله بالتخويض في الماء، ممتطياً حصانه، وهو يجلده بلا رحمة بغصن يابس. أما الحصان وقد اتسع منخاراه وارتدّت أذناه، فكان يتخبط في الوحل العميق. كان يبدو حيناً موشكاً على السقوط، وفي الوقت نفسه يصارع بفزع للخلاص من الجلد.

وفي أحد المواضع كاد شخص نحيل ذو عينين ساخرتين وعظام ناتئة يغرق نفسه وهو يحاول السباحة في البحيرة. تجمّع الناس حوله، وجاء قسيس أشعث، يدفع الناس بكتفيه محاولاً بلوغ الحافة، وهو يصيح:

«أحمق ملعون! الشيطان في الماء هو الذي سحبه إلى الوسط... يجب أن يكون الشيطان هو الذي ناداه... الجحيم في مثل هذه الأماكن هي الأيسر والأسرع دائماً في سماع الدعوات منها...».

وأنا أتساءل إن لم يكن يسيراً أيضاً سماع دعوات الجحيم في المدن؛ حيث كل شخص وكل شيء متمدن ـ شبانٌ ينادون ببضائعهم المختلفة، أولادٌ صباغو أحذية يركضون وراء قدميك ويكادون يرغمونك على صبغ حذائك، رجل يشغل اسطوانات زاعقة في مقهى قريب، والشحاذون يملأون الأرصفة طالبين الصدقات: «باسم مريم، باسم القديس جرجيس، لا تعبرني، لا تعبرني، أيها الشاب، أيتها الشابة...»، والأولاد «أبي، أبي، أنا جائع. حتى ولو خمسة سنتات ـ قطعة خمسة سنتات تكفيني».

كم من هؤلاء الشحاذين بمقدورك أن تعطي نقوداً؟ حتى لو كان بمقدورك، فثمت دائماً مشكلة أن يعيد لك الشحاذ البقية. ستكون مجبراً على إعطائه كل ما لديك. وهل باستطاعتك غير ذلك؟ حين يعلم الله أنه لم يبق عندك ما تعطيه، فعليه أن يوقف صياحهم عليك، إن لم يكونوا دفعوك إلى الجنون بعد. وهؤلاء الفتيان الأنيقون! إنهم يقتربون منك، محاولين التكلم بالإنجليزية، ليبينوا لك أنهم متعلمون شأنهم شأنك.

ويخاطبك أحدهم: «أيها الأخ، أيها الأخ! انظر هنا أيها الأخ!». تتوقف مندهشاً، وخائفاً قليلاً، وتستفسر عن الأمر. آنذاك يأتي إليك ويقول: «أنا لم آكل أمس، واليوم أيضاً، أيها الأخ. أنا لا أسألك الكثير، أريد فقط خمسين سنتاً الآن..!». شحاذ متمدن يقرر لك كم تعطيه. تشعر كمن يهرب من هذا كله. فتثب في واحد من المحلات العامة ـ في بار، فإن لم ترده، ففي خمّارة مجاورة، وربما ذهبت إلى المحل التالي، إلى صالون، أو كوخ عاهرة، أو محل تصوير، أو مشرب شاي ـ الشيء نفسه. تود لو انشقت الأرض وابتلعتك. لكن الأرض لن تنشق أبداً. وتظل تمشي وتمشي حيث تأخذك قدماك... الشيء نفسه... الشيء نفسه... الشيء نفسه... كشك، بائع جوال، شحاذ، مومس، كومة قمامة، حانة، فندق، اسطوانة زاعقة، فتاة، كناسات، محل

تصوير، كوخ، حانة امرأة متبرجة، زبالة، اسطوانة زاعقة، كناسات، شحادون، محل تصوير، كوخ، محظية، جذامات أعشاب ـ موتى. . . وانتهى يوم من حياتك.

شرعت الشمس تهبط وراء الأفق. وجاء برد الأصيل بدل حرارتها ووهجها. وخيّم السكون المسائي على طاسة الماء الضخمة والتلال والأشجار، ومن الضفة تأتي الرطوبة أقوى، وكذلك رائحة العشب المتعفن والطين. السماء تعتم، والسحاب يثقل، وتبدأ الظلال تتخذ أشكالاً محددة، على اليابسة، وعلى الماء الأخضر الداكن، وبعضها في هيئة التهاويل الخرافية لوحوش غريبة. بين حين وآخر، تسمع صرخات طير مائي، أو بطة وحشية، استُثيرا لسبب ما، فطارا من البحيرة، يصفقان الهواء بأجنحة مهتاجة. شرع ديكٌ يصيح في مكان ما. البعوض يطنّ في أذنيك ـ وصيحته الحادة الملحاح ترنّ في دماغك مثل آهةٍ اسيانةٍ بلا انتهاء.

٦

ووينيتو

أي امرأة! المسكن الذي تنتشر فيه القمامة ـ الجدران تئن بأواني القرع المعلقة، والأرضية بسلال الأغصان المجدولة، وجلود الغنم والماعز، والهواء يكاد يُطبْق على الأنفاس ـ ما زالت تحاول أن تخلق منه بيتاً. يبدو أنها لا تهتم بنفسها ـ شعرها محلولٌ، أشعث. أحس إني ميتة بالفعل حين أنظر إليها. كأن غيمة موت غير مرئية تخيم كل شخص وكل شيء في هذا الكوخ. قد تكون الحياة هي التي شددت الجهامة على وجهها الجميل. معاناة عذاب الوجود. الحياة برتابتها المحبطة. وددت لو كان الأمر حلماً. وزوجها يتمرغ في نوع من الرضا. ومع هذا فهي لا تبدو متذمرة أو شاكية. إنها ماضية في حياتها مثل زبّال بين الأنقاض. ومن يدري... لعلها تموت وعلى شفتيها تسبيحة الشكر، وتدفن في تربة مقدسة قرب كنيسة آبو... بأي نظرة ينظر إليّ هذا الفلاح. عيناه عميقتان سوداوان مخيفتان مثل نزيز مستنقع مصّاص. يا لنظرته المثبتة على عمود الدخان والنار. ويا إلهي! إنها ستنام معه حين يجيء الوقت. بجسده المفعم برائحة الدخان والوحل. أعتقد أنه مجنون. عندما أنظر إليه أقتنع بأنه مسعور. بنظرته الهادئة الملغزة... وهذه المرأة المريضة التي لا تستطيع الشفاء من حالتها الرهيبة... كم أكره هذا الصمت. الكل متحجر في مكانه... ثم بدأت تتحدث كأنها فهمت رسالتي...

«أتريدين بعض الكرنب؟» سألتني وهي تنظر عبر رأسي. أرفض الدعوة.

تنظر إليّ وقد انبسط وجهها تدريجاً للرفق. قالت: «ها هي ذي الحياة التي نعيشها» واستمرت: «لكن كانت لي طريقة حياة أفضل. قضيت شبابي في الحرمان، ملفوفة بالأسى، لكني عرفت أياماً أفضل». لم أستطع أن أجيبها بكلمة. ربما أرادت أن أتعاطف معها. إلا أن الكلمات لم تأت. قال الزوج مبتسماً لي: «لدينا حساء كرنب جيد هذه الليلة». طريقته في دعوتي. كان ينظر إلى القدر كأنه يريد ابتلاعه كله وحده، قال: «كرنب جيد!». بمقدوري أن أسمع الولد الصغير يبتلع لعابه، ويطلق آهة عالية ويتحرك. أبوه لاحظ ذلك أيضاً. ابتسم وأحس الولد بالتشجيع. قال: «اعتدت أن أجلس على ركبتيك، وأنت تهزني كالحصان».

قال أبوه: «تعال، واجلس على ركبتَي».

الأم تقول: «لا لعب حصان الليلة!»، الولد يظل في مكانه، محاطاً من كل الجهات بالمرضى والظلام. ولدٌ صغير يجلس وحيداً في هذا السكون. شيء هائل يمسك بي. أذهب إليه واجلس بجانبه. إنه خائف مني في البداية. لكنه يفهم بالتدريج أني لا أريد إيذاءه. يأخذ بلمس ثوبي وصدرتي. بل ينظر إليَ في وجهي. نمسي صديقين. ثم أرى الأب يبتسم لي ـ ابتسامة عريضة. لكن عينيه غائمتان، وابتسامته فظيعة لم أحببها قط. لست أدري السبب. ربما ذكرتني بابتسامات أخرى. أعود إلى مكاني. شرعت أحس بالبرد من الأرضية التي هي تراب عاديَ مرصوص. طويت رجليَ تحت ثوبي. ما زلت لا أشعر بالدفء. أردت تماماً أن أكون قرب أخي. أشعر بالأسف له. إنه غاضب دوماً. يريد كل شيء على طريقته. يظل يومين أو ثلاثة لا يحدثني لو نسيت أن أتبع تعليماته. أو حين أشعر إني شقية فأبكي. أعرف أنه يحبني. ولا يريد أن ينظر الآخرون إليَ. هو يحب أن يراقبني وأنا أغتسل وألبس. يحب أن يراقبني وأنا أقرأ الكتب التي يجلبها لي ـ ميغاطن من الحب، صاروخ الحب، نبع الحب، حب في السر ـ الكتب التي يستعيرها من المكتبات كلها عن الحب.

«ها هو ذا عشاؤك»، تقول الأم للولد الصغير، وهي تقدم له في نصف

يقطينة استُخدمت صحناً، حساء الكرنب مع الإنجيرا. ويشرع الولد يأكل - أتساءل عما سيفعله هؤلاء الناس بدون بطاطتهم وكرنبهم وفرعهم. القرع بخاصة - لحمه للأكل، وبذوره دواء لطفيليات الجوف، والقشرة لصنع أوعية تحفظ الطعام. والقرعة تجفف وتستعمل للأغراض المنزلية.

بإمكان المرء أن يرى أن هؤلاء الناس ليسوا بعيدين عن إدراكهم الجمال. إن قرعهم مزين بتخطيطات جميلة... وسرعان ما تكوم الولد بعد الأكل في كرة صغيرة، مخبئاً نفسه من البرد والعتمة تحت كومة ناعمة من الخِرق... وأنا بدأت أكسو نفسي قدر ما يريحني بثوب القطن الذي ارتديته نهاراً، وأحاول النوم على قطعة من جلد الماعز. الزوج أيضاً يجب أن يحس بالبرد. إنه يأتي بمعطف عسكري مهلهل، هو ما يملكه من البلدة، ويدخل فيه...

امتلأ قلبي، وأنا أنظر إليهم جميعاً، بخوف مقلق، ومن الأسفل إلى الأعلى شعرت بارتجافةٍ جعلت جسدي كله ينتفض.

٧

غويتوم

بعد عودتي من فراري، سألت المضيف أن يجهزني بحمل من القش. بعد ذلك، وعلى الفور، تعشيت من سلة الإنجيرا التي جلبناها معنا، ونثرت القش على الأرض، وحاولت النوم. لم يكن الأمر سيئاً كما تصورت، خاصة لأنه كان بمقدوري أن أنام على أي شيء بعد الرحلة الطويلة المرهقة.

كانت المضيفة قد أشعلت بالفعل ناراً في إحدى زوايا الكوخ. وشرعت النار تخفق حين أضافت حفنة من العيدان الجافة. صارت العيدان تقرقع وتدخن، وخلقت وهج لهب مفاجىء في مختلف الاتجاهات. أما المضيف، فبعد أن التهم عشاءه، رغيف انجيرا ونصف رغيف مع حساء الكرنب، نهض ومضى إلى دكته. جلس تحت، ماداً رجليه، معقود اليدين خلف الرأس، وأخذ يحدق ويحدق في السقف المثقل بالسخام. وسرعان ما لحقه ولده وزوجته ـ الرجل وزوجته بعد أن ظناني نائماً شرعا يتهامسان في العتمة شبه التامة للنار المحتضرة.

بدأت الزوجة: «أنا قلقة».

قال الزوج: «ممّ؟».

«تعرف أن المالكة ستأتي غداً لإحياء ذكرى زوجها».

«لتأت».

«وماذا لو عرفت الفيتاوراري؟».

«تقصدين أنها قد تمنعنا من أخذ الإيجار؟».

«ربما. ولو مات الفيتاوراري فقد تضطرني إلى إقامة العزاء والمراثي ورقصات الجنازة، مجاناً».

«أظنك محقة. كان عليَ أن أسأله عن الأمر قبل إدخاله».

«على أي حال... أين قال إنه يسكن؟».

«في أديس، وهل من مكان اخر؟».

«إذن، كان ينبغي ألا تدخله».

«بل قد تكون معه رسالة منها... يخفيها عنا حتى نقدم له خدماتنا».

«لن يكون هذا ممكناً».

«لم لا؟».

«حسناً، أنت أخبرتني بنفسك أن الشاب كان يذهب من مكان إلى مكان قبل أن يأتي إلينا».

«معك حق، لو كانت عندهم رسالة لجاؤونا رأساً».

«حتى هنا، كان ينبغي أن تتأكد منهم قبل إدخالهم. إن سيدات أديس وفيتاورارييها، يعرف بعضهم بعضاً، في الغالب».

«الوقت ليس متأخراً، كما تعرفين، بإمكاني أن أسأله الآن لو شئت».

«لا، ليس الآن، سله في الصباح الباكر».

«سأفعلها الآن، وإن كان يعرف المالكة فسأطرده أكيداً في الصباح الباكر».

«أليس من الأفضل أن تفعل هذا كله في الصباح؟».

«سأفعلها الآن».

نهض من دكته وسار نحو الفيتاوراري. كان الفيتاوراري يبدو في نوم

عميق. كنت سأعطي كل شيء ولا أدع الرجل يوقظه. ولو استيقظ فلن ينام ثانية، ولتعيَّنَ عليّ أن أناقش معه وصيته للمرة المليون.

قلتُ في أنين، والألم واضحٌ في صوتي: «رجاء، رجاء، لا توقظه. إن أبي لا يعرف السيدة التي تتحدثان عنها».

قال مزمجراً: «كيف تعرف؟ أنت لست الفيتاوراري».

«سأدفع مبلغ الإقامة إن شئت... نعم، سأدفعه».
«حسناً، ادفعه».
«ولمَ العجلة؟ سأدفع في الصباح».

«وراء الأكمة ما وراءها. إن لم تدفع الآن فسوف أوقظه، شئت هذا أم أبيت».

«حسناً، حسناً، سأدفع لك الآن»، وشرعت أبحث في جيوبي عن نقود.

«لكني ما زلت لا أعرف سبب خوفك من إيقاظه».

«هذا ليس من شأنك. النقود هي ما تريد، وستأخذها».

«ليس من شأني؟ إيه؟ ولماذا يتعين عليّ أن آخذ النقود منك أولاً؟ قد يدفع لي الفيتاوراري أكثر. لقد أخبرني أنه رجل غني».

«هاك، خذ كل الدولارات الخمسة».

أخذ الدولارات الخمسة قرب النار، وأوقد ناراً صغيرة، وتملّى في النقود:

«لكنك مدين لي بدولارين فقط، ودفعت لي خمسة؟ يجب أن يكون في الأمر ما فيه».

«سأخبرك ما في الأمر...».
«حسناً، أخبرني».

«لن ينام إذا أوقظ. وسيتعين علينا أن نقوم الليل... هذا هو السبب».

«أنا لا أفهمك. إن استيقظ فسوف تُعنى به زوجتي لقاء دولار زيادة أو دولارين. عليك ألا تقلق لهذا».

«لكنك قد أخذت الآن نقودك، وهذا كل ما أردتَه».

إلا أنه كان ينخس الفيتاوراري آنذاك، إذ سمعت الفيتاوراري يتأوه ويشخر، إشارة إلى أن أحداً قد أيقظه. وثبت على الرجل محاولاً إيقافه، لكن بلا جدوى. ارتددت وسقطت على ظهري. كان الفيتاوراري يبدو دائخاً.

كان الرجل يقول: «أردت أن أعرف إن كنت تعرف وويزيرو... ووزيرو...».

«إيه... إيه...»... كانت يد الفيتاوراري تتحرك تحت الوسادة.

«أردت أن أعرف... أنت ترى...».

«ماذا تريد أن تعرف، وأنت واقف إلى جنبي!» كان الفيتاوراري يحملق، والمسدس مصوب نحو الفلاح.

في الخارج، شرع المطر ينهمر على سقف الأغصان الجافة، ليسقط علينا السخام كتلاً. الجنادب تصيء كأن أبواب الجحيم انفتحت. رائحة جلد وحبوب عفنة ورطوبة بدأت تصدر من السياج المحيط. وبطيئاً، غرق الكوخ الرمادي الغائم في الظلام. الفئران أخذت تتراكض في سلال الأهراء. والماعز دخلت من الخارج وقفزت على ثيابك ورقصت حولك. وجيش البق والبرغوث العرمرم يُعبّأ تحت ملابسك... والفيتاوراري...

٨

غويتوم

في الصباح الباكر، شرع ناقوس القداس المبكر يقرع، وقوراً، فنهضت. كان الفجر ينبلج والظلام يذوب بطيئاً. ووينيتو والمضيف نهضا أيضاً، وصعدنا نحن الثلاثة إلى الكنيسة. كنت أفضل البقاء في الكوخ لو لم أكن مكلفاً بجلب بعض رماد البخور والماء المقدس من الكنيسة.

في الخارج، كان الطقس عاصفاً بارداً، والأرض موحلة. تصوَّرْ أنها سمحت له بأن يفعل ذلك! ربما لاحظت في العشية، حين ارتددتُ وسقطتُ، ربما اعتبرته سوبرمان. لم يكن ليهمني لو سمعتُه يقول شيئاً مثل: «سوف تسقطين على الوحل الزلق إن لم أمسك يدك». آنذاك كنت سأقول لنفسي أن ووينيتو، جاهلةً ما تعني إيماءته، رفضت أن يمسك بها أولاً. لكني لم أسمع شيئاً. فقد ابتسمتْ له، ببساطة، وتركته يمسك يدها في يده. أعتقد أنها في السادسة عشرة، وترى نفسها حرة. حسناً، لم لا؟

على أي حال، أنا لم أعرفها إلا قبل عامٍ واحدٍ حسب.

حاولتُ مراراً... أي طريقة لها في تجميد قلبك. تقول لك إنها نصفٌ منك. أبإمكانك أن تتصور؟ لم يمض لها معنا سوى عام، وتتوقع مني أن أصدق ذلك؟ في البيت ولدان وفتاة أخرى في العاشرة، من يتوقع مني أيضاً أن أعتبرهم نصفي؟ منذ ستة أشهر جاؤوا إلى منزلنا. أنا أعتقد أنهم

محظوظون حين جاؤوا هكذا من الأم نفسها. يا للأولاد البائسين! هم يظنون أنهم مقبولون باعتبارهم ابنين وبنتاً بينما الفيتاوراري لم يدخلهم حتى في وصيته. حسناً، أنا لم أكن لتهمني مشاركتهم إياي في الإرث، لو أمسكوا فقط عن التفوه بهذا الهراء عن كونهم نصفاً لي. حقاً، لم يكن لي أن أتوقع منهم نوع القلب هذا في أقل من عام... وهل بإمكانك أن تتصور ذلك؟ أخبرتني ووينيتو بأن أمها تمتلك مشرباً في أديس ـ شيئاً أقل من قولها ان أمها امرأة شارع خلفيّ. توقعت مني أن أصدق أنها عاشت في أديس كل تلك السنوات، ولم يُعترف بها ابنةً إلاّ مؤخراً.

وأمي... أي امرأة ثرية كانت. توفيت قبل خمس سنوات. أظن الفيتاوراري تزوجها لأموالها. ويجب أن تكون عرفتْ ذلك. إنها لم تثق به البتة. أرادت أن تجد لي وصياً آخر قبل وفاتها.

ربما فكرت بأن الفيتاوراري سوف يستخدم أموالي لأبنائه الآخرين. وفي هذه الظروف، تعيَّنَ عليّ، بالطبع، أن أترك المدرسة من الصف الثاني عشر لأهتم بميراثي. على أي حال، لا يهمني أن أشاركهم إياه. ليس من بد... أنا أحب عيني ووينيتو النجلاوين. أحب ابتسامتها والسن الذهبية البراقة في فمها. أحب هذه كلها حب ضنى...

والآن، يمسك الجلف بيدها، ينظر إليها من زوايا عينيه، وينظر كأنه يريد أن يحملها في ذراعيه، أن يلتهمها كلها، أن يزدردها كما فعل بحساء الكرنب والإنجيرا. آه، أنا لا أعرف. وددت لو أن الأرض انشقت وابتلعته، يدين ورجلين. آهٍ لو كنت نمراً أمزقه بدوري... الألم في ظهري ما يزال حاداً ـ الألم الذي أصابني من محاولة إيقافي الجلف عن إيقاظ الفيتاوراري. أكيداً، لن أدعه يعرف ذلك ـ حتى لو قُدِّم لي ذهب اثيوبيا كله. لو عرف بأذاي فإنه سيتهلل فرحاً ويحاول إظهار ذلك أمامها. لا، لن أدعه يعرف...

بلغنا الكنيسة أخيراً. كان القداس بدأ. وأنا أحمد الله لأن ووينيتو أيضاً أنقذت يدها من قبضة الجلف. دخلنا الكنيسة ووقفنا مع الحجاج الآخرين في

الممشى الدائر بين الجدران الداخلية والخارجية، حيث عُلقت صور مختلفة لقديسين وشياطين.

في مكان على الجدار الداخلي كان القديس ميكائيل، بجناحيه المفوّفين، وبردائه ذي الألوان الثلاثة الأحمر والأزرق والأبيض، يمسك بيسراه ميزاناً، وبيمناه سيفاً مسلولاً، وهو ينظر من وجهه الأحمر إلى حيث لا يعلم إلا الله. أما الشيطان البائس الذي يقف الملاك فوقه، فيبدو طالعاً من تحت الأرض، فاتحاً حلقه واسعاً مليئاً بالنار الموقدة، مُطلِقاً أنفاسه الساخنة على قدم ميكائيل، وناظراً إلى أرواح التعسين قربه بتلكما الفتحتين المجردتين من العاطفة والرأفة، على جبهته.

رجل واقف وظهره إلى الحائط كان يقرأ لنفسه من كتاب ديني يسمى «رؤيا مريم»، وإن كان أغلبنا قادراً على سماعه: «... ثم أراني مرتفعاً هائلاً مدوِّخاً ـ مرتفعاً لا يمكن بلوغه من القمة إلى القاع في خمسة آلاف سنة. والنفوس تكد وتشقى لتتسلقه. سألتُ ابني: أرواحٌ من هذه؟ فأخبرني إنها أرواح من كانت لهم علائق جنسية مع زوجة الأب، أو زوجة الأخ، أو زوجة الابن. ومن كانت لهم علائق جنسية بالنساء في الفترة الشهرية. ومن كانت لهم علائق جنسية بالمسلمين والغالا والزنوج واليهود السود. ومن كانت لهم علائق جنسية بحصان أو حمار أو جمل. ومن يسيئون الفعل الجنسي مثل سدوم وعمورة...».

والآن، كان يقرأ كل كلمة بكل ما يمتلكه من ضراعة وخشوع. شعرت بالأسف على القديسة مريم لأنها شهدت كل فظاعة الجحيم تلك. وددت لو لم تذهب مريم لزيارة ملكوت ابنها.

والسيدة الصغيرة الفاتنة التي التقيتها في رحلتي الصاعدة إلى التلال! كانت تعتمد عصا ذات طرف معدني، وتقف في موضع مشهود قرب القساوسة ـ أحسست بالأسف عليها أيضاً. وهي تمارس الضغط على آبو أو يسوع المسيح، رزينةً، مستغرقةً استغراقاً كلياً في الطقوس.

«ثم أراني مكاناً آخر، حيث شاهدت رجلاً شيخاً جالساً على فراش من نار، ويُجلَد بسياط من نار. والنار السائلة تنصبّ عليه. بكيت. وسألته عن الرجل ومن يكون. أخبرني إنه «بابا» لم يتبع الوصايا، وأساء إلى سر الأقداس... ثم شاهدت آخر ـ اسقفاً لم يعرف أنه واحد في ثلاثة، والشياطين تدفع النار في فمه وتجعله يبتلعها...».

الفلاح والرجال والنساء، كانوا يتأوهون ويتأوهون، بمصاحبة التعويذة الرنانة لقصيدة كو ـ ني، ينشدها القساوسة:

ذلك... ذلك
ذلك ما يقال
يعقوب حمل
وفعل
الآخرون يحملون
تعاليم
الأب
كلمة
جول
تعاليم
جول
الأب
عموداً عموداً
عموداً روبن
هيكل
هيكل هيكل
هيكل إلياب
إلياب عمل
وبنى شعبا

علّمَ، علّم
كلمة
موسى
الكلمة
علّمها دوماً
ثانيةً
الكلمة
تتأوَج
بالكلمة
وسليمان
جسدٌ كالأرز
أرز لبنان
حز
قـ
يا
ل
حز
قـ
يا
ل.

ووينيتو تنظر إلى صورة قرب القديس ميخائيل: امرأة تطوّقها طيّات أفعى هائلة ـ الشيطان أو الجلف ـ وتحاول عبثاً الفكاك من العناق المميت. بإمكانك أن ترى مسارب طويلة من السم الرهيب تخرج من فم الأفعى ـ والأفعى تسعى وتطوّق وتضغط المرأة إلى أسفل، كأنها تسحق أطرافها وتصبّ نفسها في كامل الجسد. والمرأة شاحبة بصورة مخيفة، غائرة الخدين، غائرة العينين المحترقتين، كانت تبدو في وضع التحول إلى شيطانة.

أما ووينيتو فربما كانت تفكر بأمها ـ بنوع العذاب الذي ينتظرها في الجحيم. ومن يدري، لربما كانت تفكر بنفسها أيضاً ـ في حال إنها تحبني كما أحبها. والفلاح يتأوه، ويتأوه، ويقف بينها وبيني... دور الشياطين هو الذي أكرهه أكثر من سواه في الجحيم. يقفون بينك وبين ربك... لن أبالي بالنار الحامية وسواها... لكن الوقوف بينك وبين ربك... وتلك السلسلة من المشاهد ـ تبين أصناف العذاب التي يصبها الشياطين على النفس. في أحد المشاهد ينطلق حشد غاضب من الشياطين النحاف ذوي القرون والذيول والوجوه السود كالفحم والعيون الشرسة والأسنان البارزة، ينطلقون وراء روح رجل بدين دامي الفم ممزق الثياب، وفي مشهد آخر، ترى الرجل نفسه يتعذب في ماءٍ فاتر، مختنقاً منتفضاً، ثم يلقى ثانيةً في ماء مثلج، وهو يقضقض أسنانه. وبعد أن يخرجوه ثانية، يلقى في نار كبريتية ويسلَّط عليه عذاب الكيّ بالحديد المحمّر. إحدى يديه مرفوعة إلى أعلى اتقاء الضربات، وهو يجاهد مرتعشاً لتحرير نفسه. لكن بلا جدوى. بعضهم كان يسلخ طبقة من جلده، مخلفاً جرحاً أحمر طريًا، وبعضهم كان يدوس عليه حتى بدأت أحشاؤه تخرج. والأنكى من ذلك كله، أن يرموه في أشد طبقات الجحيم ويتركوه يشوى ويتلوى هناك. ثم نرى كومة من رماد دقيق أبيض كالثلج تشير إلى أن هذا هو كل ما تبقّى. يا للعجوز البائس! لا غرابة في أنه أراد أن يؤخذ إلى ديبري ـ ليبانوس. والمشهد الأخير! ربما ليبين أن الروح قد نالت المغفرة، فالعديد من الشياطين وقد أوثقت أيديهم وكممت أفواههم، يشاهدون وقد سحبهم أحد الملائكة بعيداً.

في هذه الأثناء، تحولت أغنية القداس الرتيبة إلى عويل عال، تصاعد أعلى فأعلى نحو السماء الغائمة، ثم هدأ إلى لازمةٍ متطوية متقطعة، كأن هذا الطقس العبادي كله كان حياة بشرية مثقلة بالأسى، أو كأنه أغنية جميلة أفسدها مُغَنٍ منافق. وتتمنى، من أعماقك، أن ينتهي كل شيء وينقضي.

أخذت رماد البخور والماء المقدس من القساوسة وأعطيتهما لووينيتو، ثم خرجنا وراء بعضنا من الكنيسة، مع قرع النواقيس الحزين.

نظرت إلى أعلى، فرأيت مزقاً من سحائب تلقي ظلالاً متعبة على الأرض المبتلة، والعشب المرشوش فضةً. وشعرت برغبة في أن أثب في الهواء، أغلق عينّي، وأسير إلى الأبد، والأصوات المغرية لأرض خراب تتردد في أذني. فكرتْ، ربما كان لوعورة المنطقة قوتها التي لا تفنى، حتى ان قلبي الضعيف قد يغتذي بضعةً من نارها، فيصرخ بالكون كله «ثم ماذا؟»، ويغني.

يغني الأغنية الوحيدة التي أعرفها:

معجزةٌ
لتراها
التراب للتراب
الثلج للثلج
البرق للبرق
لمَ، إذن، يُسْلم المرء نفسَه
للأشياء
إنسانٌ عارٍ
هو
إنسانٌ عارٍ
العالم، جسدُهُ
فلعَ السماء
روحه مغطاة
بغيمة قبر سحيق
يهوه
كون
لا قرارة له
سيقضي
بين المذنب والبريء
حدّ ثمر

العالم
المسّاقط
الفجر يشرع
والمساء
يطبق .

٩

غويتوم

بدأ نسيم الصباح يعبث بالأوراق، وامتدت أشعة النهار الأولى الشبيهة بالسيوف. كأن موجة كثيفة من الأصوات تسكب قوتها الخلاقة على التلال والمستنقعات التي يصّاعد منها بخار محمرّ كما يصّاعد البخور: الطيور استيقظت، والديكة صاحت، والماشية ثغت، وثمت غماغم من أصوات بشرية تملأ الهواء تدريجاً. حين وصلت إلى الكوخ، لم أكن متعجلاً في الدخول، فجلست على حجر غير بعيد عن السياج، وأخذت أتمتع بكل ما حولي ـ الحمام واليمام ينادي من أغصان أشجار الكوسو، واللقالق، ومالك الحزين، والبط، والإوز، وأبو منجل، تحيي النهار الطالع بهتاف عظيم ـ كل شيء مثلما كان، منذ آلاف السنين.

لا عجب في أن اثيوبيا جنة سوّاح ممكنة.

كان ينبغي لووينيتو أن تظل في الخارج وتتمتع بالمشهد حيناً. كم كانت تبدو جميلة وهي تمشي أمامي، مسرعة في هبوطها نحو الكوخ. أحسست أني أطير بعيداً معها، في السماء، كالحمام واليمام. وحين أفكر باعتزامها أن تكون مضيفة طائرة ـ وهي الجميلة ـ أشعر بوجع في قلبي. لا أفهم ما الذي اجتذبها إلى تلك المهنة. ربما السوّاح. أو المؤثرات الكبرى للزعماء الأفارقة. أو اللجان. اللجنة الاقتصادية لافريقيا. أنا لا أفهم.

أعرف أنها ستكون عزيزة. لو ذهبت إلى أحد تلك المؤتمرات، ولم

تفعل سوى الجلوس في إحدى تلك القاعات الوسيعة، فإنها ستكون محط كل العيون ـ عيون الكبار. ووينيتو الجميلة. آنذاك ستساعد أمها ـ بلادها. ستجعل الكبار ينفقون الأموال والأموال عليها، خاصة إذا ارتأت أن تأخذ معها فتيات الغالا هؤلاء، بأشرطتهن اليابانية، وإذا تعهدت بغسل شعرهن، وتدريبهن. سيكن أكثر إغراءً. إضافة إلى ما تتمتع به من تلك الضيافة الإثيوبية.

آنذاك، ستقدمني إلى أحد أولئك الكبار.

كما ستأخذ هي دروساً في الآلة الطابعة. وتشتغل في قاعة افريقيا.

ووينيتو الجميلة ـ ستحصل حتى على ألف دولار في الشهر، بالإضافة إلى إيجار شقتها الذي سيدفعه رئيسها من جيبه.

حينها، أستطيع، إن أردت، العمل في إحدى الدوائر، وسأكون موضع ثقة الرئيس. سنمرح في شقة ووينيتو. وسنناقش الموضوعات الوطنية والدولية. لا. إنها لن تسمح لأولئك الرجال بما يريدون. ستخبرهم أن النمرة لن تسمح بأن تحدث لها مثل هذه الأشياء. سيزداد دخلنا، ستزداد عائدات بلادنا. اثيوبيا الجميلة. ذات الطيور والحيوانات الجميلة. مع لوحات «الرمي ممنوع» على امتداد مناطق المنعزلات. فقط مرةً كل حين للخاصة من الضيوف. لا. إنها ستتخلى عن فكرة أن تكون مضيفة. كل ما تفعله انها ستطير إلى أوروبا مرةً كل حين. وبوجهها الجميل وضيافتها الإثيوبية سوف تجتذب سوّاحاً كثاراً. سوف تجتاز اختبارات الخطوط الجوية الإثيوبية إن اقتضى الأمر ـ عذراء وخبيرة في منادمة الضيوف. هامة جداً للشركة. تعرف طريقها في المدن. وبمقدورها اصطحاب السوّاح في جولاتهم. وسيكون لها بيتها الجيد حيث تقوم على الخدمة فتيات الغالا الجميلات هؤلاء. وسيتقاطر كل رجال افريقيا الكبار على إثيوبيا.

سيرفعون أيديهم بالموافقة كلما اقتُرح أن تكون أديس أبابا مكان اجتماع سيرفعون أيديهم. ومع تلك الضيافة الإثيوبية. وكل تلك السيارات الجميلة التي

يستقلونها حين يأتون لزيارتنا. سيارات من كل الأنواع. وسيكون السائقون دائمي الاستعداد ليشوِّفوهم أماكن غير متاحة. هؤلاء الرجال الكبار كلهم. سيشعرون بأنهم كالآلهة بجيوبهم الملأى نقوداً. لأن إثيوبيا بلاد الله. منذ القرن الثالث. ووينيتو تجتذب السوّاح وكل ذلك. ولربما رتبت بعض الصفقات، كأن تصدر بضع فتيات جميلات.

ما دامت عندنا وفرة منهن. ستكون عائدات بلادنا أكثر. قهوة وجلود وفتيات ـ هكذا ستكون قائمة صادراتنا. أما استيراداتنا ـ فكل أصناف العملة الدولية. وهذه الخمارات كلها سوف تدمج لتشكل شركة. تسمى سبوتنيك أو روكيت أو أبوللو. كي يكون لها رنين علميّ يجتذب السوّاح المتحضرين. وستكون ووينيتو غنية. ستكون اثيوبيا غنية. ستكون اثيوبيا مصنّعة. سيكون اسمها ذا شهرة عالمية. ووينيتو وشركاؤها. أبوللو وشركاؤها، أو مهما يكن من اسم. آه، أنا لا أعرف. أنا متعب من هذه الأمور. لم يصادف أن أكون واحداً ممن يهتمون بهذه الصناعات حتى في نطاق ضيق. سيخلقون الضباب الداخن. سيلوثون الماء والهواء. لكن... من أكون أنا لأقرر في هذا الشأن؟ لست من أهل القمة. التخطيط طويل المدى، أو قصير المدى، ليس من شأني. كل ما في الأمر إني لم أجد بداً من التفكير فيه هذا االصباح الجميل. أشعر بأن كل شيء ممكن. أشعر بأن لكل شيء غايته في الحياة. ليس لي إلا أن أكون مفتوح القلب أو أممي الذهن، قد يكون السبب أنني أرى نساءً وأكواخاً أكثر من المنازل في جميع البلدات. لكن، ماذا يهم، ما دمن يأتين في متناول اليد أثناء المؤتمرات. فعلاً، أنا لا يهمني إن انضمت ووينيتو إلى الخطوط الجوية الإثيوبية. وجه جميل. جسد جميل. ثوب وطني جميل.

وليس لها أن تقلق، إن اعترف بها الفيتاوراري أو لم يعترف. قد لا يعترف، لأن أمها امرأة تمتلك مشرباً. لكنه سرعان ما ينسى ذلك حين تغدو غنية. حين تعود من أنحاء افريقيا الأخرى أو أوروبا وتأتيه بشعر اصطناعي جميل لرأسه الصلعاء. أو بأسنان حديثة زائفة. ستجعله يشعر بالشباب من جديد. ستجعله يبتسم. وسيبدأ يحبها. سيعترف بها ابنةً له. بل ابنته الوحيدة. أود آنذاك لو يتبرأ مني. مما سيجعلني متساوياً مع كل عشاق

ووينيتو أولئك. لن يكون عليّ أن آخذ الرئيس إلى شقتها. لن يكون عليّ أن أدع الرئيس يدفع إيجار شقتها. . . كم يبدو كل شيء سهلاً بسيطاً حين تستيقظ وتتناوله في صباح جميل كهذا. . .

بدأت الشمس ترتفع وترتفع في السمت الأزرق المخضرّ. تخافتَ صياح الديكة، وثغاء الماشية. خرج الفيتاوراري من الكوخ وقد حمله خدمه على محفته. كان يصعد إلى البحيرة. أظن أنهم تناولوا فطورهم بدوني. لم يهتموا حتى بالبحث عني خارج الكوخ. دخلت، وأكلت شيئاً من سلة الإنجيرا التي جئنا بها معنا، وسرعان ما تبعتهم.

القسمُ الثاني

١
الموعظة عند البحيرة

كان الحجاج اجتمعوا عند البحيرة، مجموعة من العشاق، والمترددين إلى النساء، والمنتفعين، ومختلسي أموال الدولة الذين لم يبق لديهم ضمير ونسوا تقاليد آبائهم، ومن أدنى الحثالة، السكيرين، واللصوص، والعاهرات، والباعة المتجولين الذين يبيعون مختلف أصناف المواد الغذائية العفنة، والفلاحين الجياع المحرومين ذوي الثياب المهلهلة ـ هؤلاء المخاليق الذين كتب على وجوههم الكسل والإهمال والضنى والضجر واليأس والبغض والجريمة، كانوا هنا ليشفوا من عللهم المختلفة، وليصلّوا حتى يخلصهم الله من المجاعة الراهنة، والأوبئة، والمشكلات الاجتماعية.

واعظٌ بادي القوة، مصفف الشعر حديثاً، كان يقف بينهم، وهو يحاول بأقصى ما يستطيع، أن يبين لهم طريق الخلاص:

«بينكم من يحيا لجسده ـ يأكل ويشرب حتى التخمة...» هكذا كان يقول. انتزع بغلٌ حبله من الوتد، فجاء يستاف الهواء الطلق ويتجول عند البحيرة، مبللاً حوافره وخصل الشعر التي فوقها. وبعد أن غمس خطمه في الماء أخذ يمتص الماء بشفتيه اللتين مزّقهما حديد اللجام. ثم أخذ يتشمم حافة البحيرة، وهو يهز ذيله الهزيل نصف الأجرد مستمتعاً، وبعد أن قضم بضع حفنات من العشب لمجرد إراحة نفسه، مضى إلى المرتفع.

يبدو أن مالك البغل كان مستغرقاً في الموعظة فلم يلاحظ أول الأمر،

استمتاع بغله وارتياحه، لكنه حين لاحظ ذلك لم يرض. وقف وانحدر إليه وأوشك أن يضربه بالإبزيم على قائمته الهزيلة، لكنه غيّر رأيه، وسحبه بعيداً، وامتطاه، ممسكاً إياه باللجام.

الفيتاوراري الذي أجلس في موضع مريح تحت شجرة ظليلة منصتاً إلى الموعظة، كان ينظر إلى البغل حين أخذ يغمغم: «من كان سيعاني أكثر، مثلاً، لو أن الرجل ضرب بغله بالإبزيم؟ هو أم البغل؟ كان أحمق حتى يبدد ثروة سهلة كهذا».

أجاب غويتوم بلامبالاة «البغل، كما أظن».

«لا. أنت مخطىء. الرجل هو الذي سيعاني ـ الرجل هو الذي سيرغم على الذهاب إلى بيته مشياً لو حدث للحيوان شيء».

«ربما».

«يا ترى، لماذا غيّر ذلك الحيوان رأيه؟ أنا لا أفهم. لقد كان أحمق كي يبدد مالاً سهلاً هكذا».

«عن أي حيوان تتحدث؟».

«الذي أجّر لنا كوخه».

«أيرفض أن نعود الليلة؟».

«. . . وبينكم من استمدوا قوّتهم من سخائكم، ليجدوا متنفسكم في النسوة الخاطئات. أولئك الذين ليس عندهم ضبط نفس مسيحي إطلاقاً. أناسٌ بينكم مثل هؤلاء إن سقطوا في الحمأة مرةً فلن يبصروا النور. . .».

«ربما ظنت زوجته أنك لست من النمط الذي تستفيد منه»، هكذا علّق غويتوم وهو يفكر برفض الفلاح.

«ربما لم يكن تصرفاً حكيماً مني أن أرفض استئجار فراشهم».

«ربما».

«بل إنه لم يطلب منا إيجار الليلة، هل طلب؟».

«أجل. البارحة».

«وأنت أعطيته؟».

«نعم».

«الطريقة التي ايقظني بها، كي يسألني فقط عن سيدته الخسيسة تلك!».

«نعم. كان أمراً غريباً».

«ظننت للحظةٍ أن الكوخ يحترق».

«كذلك أنا».

«مع هذا يبدو ودوداً إزاء ووينيتو».

«نعم، رأيته يبتسم لها ويريد أن يبدأ كلاماً معها».

«أنا لم ألاحظ».

«البهيمة!».

«... قد تصومون وتصلّون، لكن صيامكم وصلاتكم بلا جدوى، ما دامت قلوبكم مشربة بسم أفعالكم. ذلك لأنكم حين تفكرون بالله، تفكرون بالطعام والشراب؛ وحين تفكرون بالجنة، تفكرون بالمال والسلطان؛ وحين تفكرون بالسعادة، تفكرون بالموسيقى الداعرة والأشربة والنساء. آه يا أولادي، بينكم من ليس له قلب يصلي لله بدون أن يصلي لشيطان المال...».

«وماذا عن زوجة البهيمة؟ هل وددتها؟».

«أوه. إنها عظيمة».

«هكذا!».

«إنها تعرف مختلف أنواع الجذور لكل الأمراض تقريباً».

«لا تقل لي إنها أعدّت شيئاً لمرض قلبك».

«أجل. لقد أعدّت. والحقّ أنها قبلت أن تذهب معي إلى أديس وتفعل ما بمستطاعها لتشفيني».

«هل لي أن أسأل عمّ فعلته لمساعدتك؟».

«أعطتني دواء لأشربه. مزيجاً من جذور ومنقار طير جارح ذي عرف، وكبد ضبع، وأشياء أخرى لا أتذكرها الآن ـ وهذا كله ممزوج بماء الكوسو».

«آه، يا إلهي!».

«. . . لكن بينكم آخرين بمقدورهم الفكاك من هذا الوثاق إن حاولوا حقاً. لو حاولتم جهدكم. نعم، يا أولادي، إن كانت الإرادة قائمة فالطريق موجود. . . ».

«وهل هذا كله؟ أخبرتني أيضاً بسبب علتي».

«الشيطان، كما أظن».

«تعلمُ انني لا أود موقفك الساخر من تقاليدك ذاتها».

«لا. أنا لا أسخر. . . أنا أحاول أن أحزر فقط».

«. . . لا تجلسوا يا أولادي إلى مائدة حيث الطعام وفير. لا تشغفوا بالأشربة. لا تذهبوا إلى بيت النسوة الشريرات. محبةً لله، يا أولادي، لا تأكلوا إلا قليلاً، حفنةً من الشعير المحمص وكَسرةً من الإنجيرا، ولا تشربوا المشروبات المحلية مثل الكاتيكالا، والطلا، أو الطج، ولا الأشربة الأجنبية المستوردة، لكن اشربوا الماء البسيط الطاهر الصحي، ماء ينابيعنا. حتى لو أقمتم حفلاً بين حين وآخر، فأقيموه متكتمين، ذلك لأن الطعام والشراب غير المعتادين، عدوٌ لمعدة الإثيوبي العادي. وستكون المعدة مباءة للأمراض الجوفية، كالإسهال والإمساك والقيء ومرض النوم، وأمراض أخرى كثيرة. لم لا؟ أنتم أنفسكم شهود الأيام السوالف! أكانت آنذاك أمراضٌ كالتي نشهدها اليوم؟ هل كان يحدث قتلٌ كما نرى الآن؟ أقول وأكرر ـ كلوا واشربوا بالكتمان، ذلك لأنكم تأكلون وتشربون لله لا لأنفسكم. والله لا يريد أن تأكلوا وتشربوا حتى التخمة. . . ».

«نعم، قالت لي أن عليّ أن أقدم نذراً لأبو، فأذبح عجلاً في ذكراه، كي

أضمن حمايته وفضله. كما أني طلبت منها بالفعل أن تجد لي كبشاً أبيض قالت إنه سيُجرُّ حولي ثلاث مرات، ويذبح في موضع التقاء طريقين باسم الأب والابن والروح القدس. وقالت إن علامة الصليب سترسم على جبهتي بدم الكبش الذي سيُترك حيث ذُبح»

«. . . لقد فعلت كنيستكم الأرثوذوكسية كل ما تستطيعه لتوضح لكم الطريق. فحددت لكم أيام صوم لتمنحكم فرصة الامتناع عن الشحم واللحم. يا أولادي! لا تنسوا صوم جيهاد، عشية عيد الغطاس، صوم نينوى، لثلاثة أيام. صوم الرُّسل لأربعين يوماً. الصوم الكبير لخمسة وخمسين يوماً. صوم العذراء المقدسة لستة عشر يوماً. إضافة إلى أيام الأربعاء والجمعة، حوالي مائة وأربعة أيام. ستكون لكم ستة وخمسون يوماً في السنة تأكلون الشحم واللحم. ويُنصح، طبعاً، بطلب نصيحة أبيكم في الاعتراف لتأخذوا على أنفسكم صيام أيام أخرى حين تستدعي الحاجة. . . ».

امرأة هزيلة، محنية الظهر، ملوَّحة البشرة، كانت تحدق في صليب صغير بيدها، وهي حزينة تحرِّك شفتيها في حديث سريّ مع المخلِّص.

«متى تجري وصفة دم الكبش الأبيض؟».

«فور حصولها عَلى الكبش، بالطبع».

«والمفترض أن أكون هناك لأشهد المناسبة».

«أجل، لقد اخترتك باعتبارك الرجل المناسب لذبح الكبش».

«لكنك تعلم جيداً أني لم أذبح حيواناً طيلة حياتي».

«هذه ليست مشكلة. ابدأ الآن».

«أعني أني لا أحب الذبح».

«لا أتوقع منك أن تحبه. أن تفعله فقط».

«وماذا لو قلت لا؟».

«آمل في أنك تعرف أفضل من قول لا لرغبة رجل يحتضر».

«رغبة رجل يحتضر!».

«اذهب الآن، وقل لأحد الخدم أن يحفر لي حفرة عند تلك الشجيرة».

«ماء الكوسو يؤدي مهمته؟».

«نعم. أسرع».

«ليس بمقدورك الجلوس بصورة صحيحة، كيف..؟».

«أرجوك!!».

«... يا أولادي، الإنسان مشكّلٌ من اللحم الإلهي، ومثبّتٌ بالشحم المقدس. إنه لا يحيا بالخبز وحده ولا يحيا للعمل وحده. إنه يحيا بكلمة الله وللـه وحـده. أتعرفـون؟ إن اثيوبيا هي البـلاد الـوحيدة في العالـم، قد لا تصدقونني، لكنـه حق، اثيوبيا هي البـلاد الـوحيدة في العالـم التـي لديهـا قديسون حُماةٌ مختلفون لكل يوم من أيام الشهر الثلاثين. وكل رجل أو امرأة بإمكانه أن يختار قديسه الحامي كمـا يشـاء أو تشـاء. وبالطبـع، كلمـا زاد قديسوك زاد الوقت الذي تنفقه على احترامهـم وزاد الفضـل الـذي يقدمونـه إليك. أنا أعرف عدداً من الناس المباركين الذين لا يعملـون إلا يومين أو ثلاثة في الشهر، أما الأيام المتبقية فيكرسونها لقديسيهم الحماة، ويمتنعون فيها عن أي نوع من العمل. ربما كان هذا كثيراً جداً علـى بعضـكم، لكن بمقدوركم، في الأقل، أن تأخذوا بين عشرة إلى خمسة عشر ـ مثلاً، القديس آبو في اليوم الخامس، يسوع المسيح في السادس، الثالـوث في السابـع، ميخائيل في الثاني عشر، كيداني ميهرت في السادس عشر، جبريل في التاسع عشـر، مريم في الحـادي والعشـرين، القـديس جورجيوس في الثالـث والعشرين، مخلّص العالم في السابع والعشرين... نعم، يا أولادي، إن صُمتم، وكان لكم قديسون حُمـاةٌ، واتبعتـم وصـايا الـرب، فإن كل شيء سيكون جيداً معكم...».

خفض المؤمنون رؤوسهم، وحبسوا أنفاسهم، وغضّوا من أبصارهـم، والتمّوا متجهمين، ومن دون ارادتهم، في جمع. بعضهم يشعر بالبرد بعد أن تمّ رشُّه بالماء المقدس في الصباح الباكر فأخذ ينظر بكآبة إلى الـواعظ بعينين

ضيقتين ملتهبتين. وبعضهم كان ينعس وقد عانقت ذراعاه ركبتيه وأراح حنكه عليهما، وعيناه الحمراوان المؤرقتان تنظران هامدتين إلى الماء، متعارضتين في تعبيراتهما المتنحية، تعارضاً مأسوياً، مع بهجة الصباح وتألق السماء.

«... إن سرقكم أحد، أو أهانكم، أو ضربكم على الأنف، فلن يفعل إلا أن يثقل موازينكم عند الروح القدس. وستجازون في الجنة عمّا تعرضتم له. لكن، بماذا ستجازَون يا أصدقائي، إن صارعتم ما أحلّه بكم الله؟».

جاء من الماء رجل هزيل اللحية، نحيل الوجه، غائر العينين. كان ملتفاً بملبس داخلي ملتصق به، كان مثل كيس نصف فارغ، حين اقترب من إحدى المجموعات. رمقه الواعظ بعينين مدققتين، كأنه يحسب عدد الثقوب والرقع في ملبسه.

«... أرضنا خصبٌ، قادرة على أي نوع من المنتوج الطبيعي، وتربتنا كريمةٌ خفيفة، ليس عليكم سوى نبشها لتحمل، ولتحصدوا أنتم... عليكم أن تنتفعوا بما لديكم خير انتفاع. الحياة، كما هي، عسلٌ ممزوج بالمرّ. ولكل واحد منكم أن يتمتع بالعسل والمرّ. كلٌ على حدةٍ، أو الاثنان معاً. وإلا متّم قبل أن يكون لكم ما كسبتم...».

كان نوع من التنافج، والسلطة الصارمة، والاحتقار الواضح لمن تتوجه إليهم عيناه، بادياً تماماً على ملامح الواعظ. لكن معظم الحجاج، بالرغم من نفوسهم الذاوية، ظلوا يستمعون إلى كل ما يردده، منصتين إلى رسالة الواعظ المسيحية، بقدر إنصاتهم إلى ذواتهم الداخلية المؤمنة بالخرافات، والشعوذة، والقوى السحرية لأشياء مثل الطين والقصب والأعلام المأخوذة من البحيرة، والرماد المأخوذ من بخور الكنيسة، والتعاويذ.

«... وبعد الموت، سيكون الشيطان هناك ليتلقى روحكم بأصابعه الشائكة وأسنانه الحادة المدببة. لكن من ناحية، إن متّم، وأنتم تحرثون الأرض الكريمة، منفذين وصايا الصوم واحترام القديسين، فإن روحكم ستحلّق إلى عرش الروح السماوي، وستمد الملائكة إلى روحكم الصغيرة،

أيديها الرقيقة البيضاء الجليلة، وسترتعش روحكم وتُرعش أجنحتها اللطيفة بالفرح. وآنذاك، طبعاً، سوف تؤخذون إلى خالقكم للحساب الأخير. سيقف الخطاة إلى اليسار حيث جهنم تنتظرهم مفتوحةً، ويقف الأبرار إلى يمين الله، حاملين السعف بأيديهم... ثم سيقول لمن هم إلى يمينه ـ أنتم يا من سمعتم وصاياي وحييتم بها، أنتم يا من آويتموني من ضياع، وأطعمتموني من جوع، وسقيتموني من ظمأ، أنتم يا من كسوتموني من عري، وآسيتموني من مرض، وطمأنتموني حين كنت ملقى في الكهوف والحبوس ـ لكم أعددت مكاناً قبل أن يخلق العالم ـ مكاناً لا وضر فيه، ولا خصام، ولا أنانية عمياء، لا عذابات لرجل يلقى القبض عليه في الشوارع بضحكة نكراء، وتضربه يد القانون القاسية ـ مكاناً كل شيء فيه طاهرٌ، جذلٌ، منير ـ اذهبوا لتعيشوا في نعيم مقيم...».

«ولمن إلى يساره سيقول، أنتم يا من سمعتم وصاياي ولم تأبهوا لها، أنتم يا من لم تأووني، ولم تطعموني، ولم تكسوني، ولم تزوروني في الحبس، لقد نسيتموني تماماً وعشتم فاسقين ـ اذهبوا إلى الجحيم، إلى عذاب أبد الآبدين، والأسنان النهّاشة... وسيسأله المذنبون، أيها الرب، أين لقيناك جائعاً، ظمان، عارياً، وبلا سقف تظل رأسك، ورفضناك؟ وأين كنت ملقى في السجن فما زرناك؟ لكنه سيقول لهم ـ اذهبوا إلى الشيطان وأتباعه، يا من كنتم أتباعه، وستظلون أتباعه إلى أبد الآبدين...».

رجل مكتنز، لطيف المحيّا، ذو فم نصف مفتوح باستمرار، بحيث يبدو وجهه وجه شخص معتوه، كان ينصت بانتباه وخشوع.

«... أيها الرب اللطيف، أيها الرب المستوي في الأعالي على عرش ذهب، وتحت ظلة مذهبة...» ظل يصيح عالياً، ناظراً حوله بوحشية، ومشيراً بيديه. «بسبب خطايانا وُضع تاج الشوك على رأسك، بسبب خطايانا جُلدتَ، بسبب خطايانا صُلبتَ... لكن ماذا فعلنا نحن الفانون؟ يا أم الرب الطاهرة! يا كاملة النقاء، اغفري لهؤلاء الخطاة، أولادك... أعيديهم إلى رضا ابنك، وساعديهم لينالوا السلام والهناء الأبديين... نحن الخطاة

البؤساء، نجهد كي نتقدم، كي نمضي إلى أمام، كي نمسك القمر بأيدينا والنجوم كذلك. نحن نظل نتقدم بينما يجب أن ننتظر، أن نبرر أنفسنا على هذه الأرض... لكن الضلال سيكون أمامنا نحن الذين سنسرع...».

أخيراً، حفرت الحفرة عند الشجيرة، وقادت ووينيتو، الفيتاوراري، نحوها. وأخيراً، بدا أن الواعظ أتمّ موعظته. فأشعل شمعة في شرف المناسبة وشرع يقرأ كلمات من (الجيز) من كتاب مهترىء. كلمات لا يفهمها هو ولا السامعون. الشمعة في شماله تبعث ضوءاً باهتاً في ألق الصباح، وبين حين وآخر تخفق في هبّات النسيم الذي يحمل روائح الماء الآسن وزهور الكوسو والفساد.

كان الرجال والنساء يتحلون بصبر جميل. وحين زمجر الواعظ أخيراً، وأومأ، وأدار عينيه، وتوقف، خيّم الصمت، ووقف الجميع، مصعوقين صامتين، ونظراتهم المستكينة تجعل الواحد غير متميز عن الآخر. وبدا أنهم جميعاً يتمتمون «لن يمضي وقت طويل قبل أن يموت ويغدو قديساً نسجد له ونعبده». تقدم قسيس ذو غطاء رأس عال، وبدأ يمنح الناس البركة.

«اغفر يا رب، خطايا الإرادة وخطايا الجهل، الخطايا المعروفة وغير المعروفة، خطايا الحَماقة والمثل السيىء، خطايا الطيش والكَسل...».

تعالت الشمس على فترتها الجميلة، وأخذت ترسل الوهج والدفء، غير عابئة بالفساد المحيط.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢

غويتوم

الواعظ يعوي عن النار والجنة. ووينيتو تفعل كل ما تستطيعه لتخدم أباها. الفيتاوراري يأمل في أن يدعى إلى موضع التضحية: ليذبح كبشاً أبيض ويستعيد عافيته. يأمل في أن يعيش أطول ليكافح كل جديد ـ الطريقة الحديثة في الكلام، الرقص الحديث، الثياب الحديثة، قصة الشعر الحديثة، والتبغ. يأمل في أن يظل إلى الأبد لا يعمل شيئاً بيديه. إنها طريقة الله في وضع حد للأشياء. وإثيوبيا الجميلة ملأى بممثليها العديدين من عائلة الكرنب ـ كرنب بني، كرنب أبيض، كرنب أحمر، كرنب سافوا. وهي دائماً تمد يديها سائلةً لتكسب من فضل الله شيئاً لأبنائها الذين في المطهر. كي تنقذهم من الكبريت المتقد والعذاب الأبدي.

بانتظار كبش الفداء.

اثيوبيا الجميلة ـ بوديانها المنبسطة ذات التربة البنية أو السوداء. بتلالها المائلة بلطف إلى أعلى والمكسوة بالشعير. ثم المنحدرة إلى حوالي ألف قدم والمغطاة بمدرّج بعد مدرّج من الطفّ، والقمح، والسرغوم، والبازلاّء. بخرافها اللذيذة التي ترعى الصعتر البري والنعنع. بخرافها ذات الجزّات التي تمنح الصوف ليصنع ملابس، وبرانس، وبطّانيات. بقطعان ماشيتها التي لا تنتهي، وخيولها ومهاراها. بأطفالها الذين يستعرضون أورامهم من البق والبرغوث والقمل التي تكثر في قراهم الصغيرة.

بانتظار كبش الفداء.

اثيوبيا الجميلة: بكل الرجال ذوي الألقاب، جيرازماش، كجنازماش، فيتاوراري، ديجازماش، راس، جنرالات، وزراء، أمراء، أميرات ـ يفعلون أقصى ما يستطيعون لتخفيف المعاناة في القرى. يطلبون المنّ والسلوى من السماء. يرسلون الدي. دي. تي. يرسلون سم الثران. يرسلون مبيدات الحشرات. يرسلون الشرطة. كي يخففوا الألم وشظف العيش في القرى. والجوع، والجهل، والمرض، تمد أفضالها في أرجاء البلاد كلها. إنها طريقة الله في وضع حد للأشياء.

بانتظار كبش الفداء.

اثيوبيا الجميلة، بقممها ومنحدراتها وجروفها المتكدسة في فوضى على الهضاب العالية، وسككها الحديد المتقاطعة فوقها كلها. بحميرها وبغالها. بوطنيتها. وبالأوسمة، الأوسمة، الأوسمة ـ للتدخين، للاحتراق، للعيش، للقتل وللموت.

وأبناؤها جميعاً يطلقون صيحة الحرب. وبين سلاسلها العملاقة، بين جبالها المنعزلة ذات الأشكال العجيبة. مدافعون بدون أوسمة. ونساؤها يطحنّ الحبوب على الأحجار المسطحة. على الأحجار السود القاسية من الجبال. والدروب على امتداد الشقّ الهائل في وجهها تؤدي إلى زعماء قبائلها ذوي الكلاب الصغيرة البنية أو البيضاء أو السوداء تطوّف من خادم جهم إلى آخر وهي تهز ذيولها. من موكل ذي رمح إلى آخر ذي بندقية.

بانتظار كبش الفداء.

اثيوبيا الجميلة ـ بشلالاتها الجارية على امتداد الجبال ذات النهايات الحادة كالموسى، متدفقة بالطاقة والكهرباء. بأرضها الوعرة، والسهلة التي تنبت الحبوب، مقابل الأرض البنية المراحة، والجذامات خفيفة الصفرة أو بلون الحجر. بتسهيلات النقل على امتداد الأرض المزروعة. بالحمير والبغال. بصيحات الحرب التي يطلقها أبطال التلال. بالأسلحة والذخيرة.

بالمن والسلوى من السماء. بصيحات الحرب والمراثي على عذبات الخيزران. بالقرود تتصارع وتتواثب في غاباتها. بقوة شرطتها في العمل. بأشجارها من التين والكوسو والميموزا. بضفافها حيث ينبت السرخس والسوسن والحوذان وشجيرات الآس والأزهار من كل لون. بشعر الفتيات الطويل. ينتزعن القطن الخام من البذور. يغزلن ويغزلن ساحبات القطن من البكرة إلى خيط منتظم. يلفّفنه بدعك البكرة على الفخذ العارية، ويتركنه يدور لحظةً. نساءً شغيلات. يتبعن طريقة الله في وضع حدٍ لعريهن.

اثيوبيا الجميلة ـ بلوميّها، وليمونها، وأشجارها العطرة الأخرى. نهيرات، وأجوان لطيفة، وممرات متعرجة خلل الصخور تؤدي إلى زعماء قبائلها المرتدين (شمّا) بيضاء، وسراويل ضيقة، وعباءات بنية مذهبة الجوانب، وعلامة مصافحة على الظهور.

بانتظار كبش الفداء.

اثيوبيا الجميلة ـ بأرض البلاط والكنيسة لا يعرف مقدارها إلا السكان المحليون. مُلاّك الأراضي يجب أن تبين لهم العلامات التي تحد أراضيهم. بينما أرض الزعماء تعتبر ملكاً خاصاً لأبنائهم. بخاصة حين يطلب عقد الملكية لشركة أجنبية تريد شراء أرض. أرض الشعب. أرض الزعماء. جالبين المزيد والمزيد من الاستثمارات الأجنبية. وأبناء الزعماء يغدون أغنى فأغنى. يهزون ذيولهم للسماء. الوطنيون الجدد يكافحون الشركات. يكافحون من أجل أوسمة جديدة. وعلامة مصافحة بين اثيوبيا وأميركا على ظهورهم. إنها طريقة الله لوضع حدٍ للأشياء.

اثيوبيا الجميلة ـ بأشجار زيتونها البري الشوهاء على التلال البعيدة، نصف دفينة في الدخان والسحب الخفيضة المتعلقة بالأفق. بليمونها وعلّيقها. بفراولتها ومختلف أنواع فاكهتها ذات النوى. بعرعرها وفربيونها. بكنائسها في أعلى كل شيء. بجوعها وأمراضها.

بانتظار كبش الفداء.

اثيوبيا الجميلة ـ بجسدها الواسع الصالح للزراعة بنسبة ٦٥ بالمائة. بغزالها، وظبيها، وكودها، ودقدقها. بخنزيرها البري، وجاموسها، وماريّها، ووعلها. بأسدها ونمرها. بجوعها وأمراضها التي هي طريقة الله لوضع حد للأشياء ـ تمد يديها إلى السماء. بآلاف كنائسها ومستحضري ومستحضرات أرواحها. بماشيتها وأغنامها...

آه، لا! لن أذبح الكبش في موضع التضحية.

٣

ووينيتو

هؤلاء الرجال، هؤلاء الرجال ـ الفيتاوراري، الواعظ، الفلاح ـ لماذا يتماثلون؟ ما الذي سلبهم حسهم الإنساني؟ صحيح أنني لم أعرف أبي إلا في الخامسة عشرة من عمري، والسبب أنني رسبت مرتين في امتحان الصف السادس، ورفضت أن أحذو حذو أمي. وأمي تدير خمارة! ربما وجدت الحياة أيسر بهذه الطريقة. ثم، ماذا ليس بإمكان أمي أن تفعله؟ ومع أن حياتها مستهجنة إلا أنها تعيش بها. مستهجنة حقاً ـ أن تتعامل مع كل أصناف الساقطين. أمي ذات قلب عطوف، إلا أنها غير متعلمة. فهي، مثلاً، لم تهتم قط، بشربي الكحول حين يأتي زبونٌ ويقدم لي كأساً، معتبراً أني على شاكلة أمي. هي تعتقد أن هذا سيزيد من دخلنا الضئيل. بل لقد تركتني أحياناً مع غرباء بعد أن عدّدت لي خصالهم مسبقاً ـ وغالباً ما كان هؤلاء أغنياء وذوي مكانة ونفوذ. ويبدو لي الآن أنها لم تُعنَ بالانتباه حتى حين حاول القوادون التحرش بي. لا، أنا لا ألومها على أي حال. لا بد لها من ذلك، وهي المثقلة بإيجار البيت، وضريبة إجازة البلدية، وطعامنا وكسائنا نحن الاثنتين. إلى جانب أنها يجب أن تدفع لتعليمي. ثم إن عليها أن تتنافس في هذه الصناعة المتسعة باستمرار، صناعة الخمارات والنوادي الليلية. إنه، ببساطة، عبءٌ باهظ!

إذن، ماذا كان بمقدورها أن تفعل؟ لو كانت لديها فرصة لتجنبت الأمر.

لكن لم تكن ثمت فرصة. وماذا توقعت مني؟ قليلاً من العون ـ كان هذا كل ما في الأمر. بكل تأكيد، أنا أردت مساعدتها ـ لكن بطريقة محترمة ـ بالحصول على عمل في مكان ما، كاتبةً، أو حتى نادلة، لم لا؟، في أحد المطاعم. غير أن هذا لم يمكن تدبيره. فحيثما ذهبت وجدت الكواسر، وبضمنهم أصحاب المحلات أنفسهم.

أي سنة قضيتها معها بعد تركي المدرسة. كان ضغطها عليَ يزداد يوماً بعد يوم حتى خُيّل إليّ أنها قررت ألاّ تعيلني. وفي أحد الأيام جاء ذلك الحادث الذي أنهى روابطي معها. ما زلت قادرة على أن أرى وأسمع ما حدث ذلك المساء، كأنه حدث اليوم.

ثلاثة رجال كانوا يشربون في منزلنا. ظلوا يقدمون لأمي الشراب حتى سكرت. وكان عليها أن تتركني أتولى شؤونهم وتذهب لتنام. والحق، أنني لم أخذلها، وبذلت كل طاقتي لمنادمة الضيوف. وبدوا جد مرتاحين. مرتاحين إلى حدّ أنهم نادوا خبّازة الإنجيرا لدينا وقالوا لها أن تغادر إلى بيتها بعد انتهاء يوم عملها، مقدمين لها كؤوساً عدة. ثم خرجوا جميعاً... بعد حين عادت خبازتنا، خبازة الإنجيرا. ظننت حينها أنها نسيت شيئاً وعادت لتأخذه. لكن، لا! لقد عادت لأمرٍ آخر. اقتربت مني كأنها تريد أن تفضي إليّ بسرٍ. لم يخامرني أي شك. وهكذا جلست وأخذت تكلمني:

«سمعت أن أمك شربت قطرة أكثر، أليس كذلك؟ الله يعلم لماذا تفعلها».

وأقول: «ظننتكِ جئت لتخبريني بشيءٍ».

وتقول: «نعم، يا عزيزتي ـ نعم، لكنك تعرفين أنني متورطة. ولا أدري كيف أضع الأمر أمامك».

فأقول لها: «اسمعي. لا تنزعجي هكذا. قولي وتخلّصي من الموضوع».

«أرجوكِ أولاً، ألاّ تظني أني سأنال شيئاً من الأمر».

«أي أمر؟».

«لن أنال شيئاً. لكنك كما ترين. شبابك هذا، جمالك هذا، إنها جعلتني أريد أن أقدم لك شيئاً».

وأقول: «أوه، نعم؟».

مضت تقول: «ليس عليك إلا أن تري بنفسك. نور عينيك فقط بإمكانه أن يقهر لك العالم».

أقول: «أوه، بإمكانه، أليس كذلك؟».

«ولو حصل حقاً أن تعرفي هذا السيد ـ الأنيق، الغني...».

أقول: «أفاجأ بكِ، أحياناً».

أضافت: «يقول، لو لم ينل الفرصة...».

أتممت لها: «فلربما قتلني».

«حسناً، تعلمين أنه قد يرسل خدمه... أنا متأكدة من أنه سيفعل. إنه يتباهى كثيراً بثرائه... أرجوك، يا عزيزتي، لا تكوني عنيدة».

أقول لها: «لا يروق لي هذا».

تقول: «حسناً، لا تفعلي شيئاً إن لم تريديه. فقط تكلمي معه، هذا هو كل ما أسألك إياه».

أقول: «لا أظنك تفهمينني».

«دعيني أطمئنك. هذا السيد مستعد لأن يفعل كل شيء من أجلك. يقول إنه سيبني بيتاً خالصاً لك. ويشتري لك سيارة، بل سيودع باسمك مبلغاً من المال في أي مصرف شئت».

أقول: «إذن، دعي الأخريات يستفدن منه».

«أتعنين أنك ترفضين عرضاً كهذا؟».

«أنا لستُ سلعةً يبني لها بيتاً ويودع مبلغاً».

«أوه. أنت تريدين أن تتزوجي زواجاً لائقاً، أليس كذلك؟».

«أجل. حين أجد من يناسبني».

استمرت: «هكذا، عدت أخيراً إلى صوابك. أليس كذلك؟ الآن أرى رب آبائك يغمرك بنورك الإلهي. أخبركِ... سأحاول أن أجد بعض الناس الكبار الذين سيكتبون لك عقداً باعتبارك زوجته. لا إشكال».

أسألها: «تعنين أنه يريد الزواج؟».

تقول: «بطريقة ما، نعم. لكنه قد لا يعيش معك في البيت نفسه. إن له زوجةً وأبناء، و...».

«إذن، وصل الأمر إلى هذا الحد؟».

«لست أرى أي خطأ في الأمر...».

أقول: «أرجوك، دعيني وحدي».

آنذاك قالت: «إن رفضت من يتسول، فقد تجيئين أنت يوماً تتسولين».

كانت حركة لاإرادية، ولم أدر كيف حدثت حتى لطمتها على الوجه. تركت هي البيت، شاتمةً لاعنةً، وغادرتُه أنا في الصباح الباكر، آملةً، مصلّيةً، أن أجد فرصة في بيت أبي ـ الأب الذي لم تتح لي فرصة معرفته. وها أنذا الآن، أخيراً، أروح وأجيء، أسنده، حتى يقعد عند الشجيرة.

٤

الفيتاوراري وولدو

المسألة انني لا أستطيع أن أشرب قنينتين أو ثلاثاً من الماء، فقط لأقذفها في اللحظة التالية، للتو، فقط، أخبرني القسيس أن المرض الذي في جوفي شرع يخرج. . . وهذا يعني أن عليّ أن أشرب المزيد والمزيد من هذا الماء حتى أتطهر. هذا القسيس! لقد أراني شيئاً أسود، دودة صغيرة، وبضع برقات خرجت من أحشائي ليبرهن ما يفعله بي ماء آبو المقدس. لكني ما زلت لا أستطيع أن أظل أشرب قناني وقناني من الماء، لأتقيأه في اللحظة التالية، فقط لأرى برهاناً ما. ماذا يعني لي البرهان وأنا أتداعى وأفقد ما تبقى لديّ من قوة قليلة؟ خاصة بعد ما فعله بي ماء الكوسو، أخذوني الآن مرتين إلى شجيرة الشوك. والله يعلم ما يخرج من أحشائي ـ ربما قطعاً من أمعائي. فإن لم تكن أمعائي، فليس لدي شك أنها يجب أن تكون قطعاً من قلبي، أو كبدي. . . ولا أحد ينظر فيه، حتى ولا ووينيتو. هل هذا الإهمال بسبب رائحته! إن رائحته ليست أسوأ من ذلك الهواء الفاسد الذي علينا أن نتنفسه في ذلك الكوخ. لكن، مع هذا، لا أحد يهتم. يجب أن أفكر بأن الوقت قد حان كي أهتم بنفسي. في مثل سني، لا يمكن أن أتحمل التقيؤ والتبرز في وقت واحد. أنا لا يهمني كم يخرج من مرضي! أنا لا أتحمل، انظر فقط إليه، ذلك القسيس، بمبخرته وهو يلوّح بإنائه النحاس، وما زال يتمتم صلاةً ويعزم على تلك القناني بصورة غامضة. أقول لك، لن أشربه حتى لو كان ذلك يعني موتي. أرجو من الله أن تأتي المرأة مستحضرة الأرواح

وتنقذني من ذلك القسيس وقنانيه . . . في الأقل، أنا أعرف أنها أعدت الكبش، الآن، لي. ولن أفعل إلا السماح لهم بأن يدهنوني بالدم أو بشيء آخر. أما تغوطي الكثير وسيلانه فربما وجدت طريقة لإيقافه. بل إنها ستنظر فيه، وتخبرني، كم فيه من الماء والمخاط والدم واليرقات. أجل، آمل في أن تفعل ذلك، حتى لو اقتضى الأمر التخاصم معها حول نجاعة الجذور التي أعدّتها لي. . . أظن أن الكبش الأبيض هو منقذي!

وددت لو عندي القوة، إذن لذبحته أنا. . . كم كانوا؟ أجل، خمسة. . .

كلهم يعتمر الطربوش ذا الذؤابة الزرقاء في طرف خيط طويل، والمعطف، والبطانية، وقدور الطبخ والتجهيز ـ أولئك الإيطاليون. كنت آنذاك مفعماً بالقوة والجسارة. وددت لو أن لديّ الآن نصف ما كان لديّ من قوة آنذاك. . . جثث البيض والبغال متناثرة في الحقول، والجراد الذي كان يدمر كل غلة الأرض تقريباً. . . أرض الشمال الكئيبة، الباردة، التي تعصف بها الريح. . . وددت لو عندي القوة، إذن لذبحته أنا نفسي. . . وقطاع الطرق أولئك الذين واجهوني في تراجعي ـ تماماً مثل هؤلاء الشحاذين والشياطين الملعونين، يعتقدون أن بإمكانهم التعيش عليّ، وكل هؤلاء القساوسة يبدون مثلهم. . . هل أطعمتني وكسوتني وآويتني إلى آخر ذلك الهراء. إنهم الجهلة لا يعرفون ما وُعد به تيكلي هايمانوت، «من يدفن في بقعتك يذهب رأساً إلى الجنة». . . وكل ذلك الكلام عن النار الكبريتية. . . كان المقصود به تخويفي، أنا أعرف ـ أن أبذر أموالي على هؤلاء الذين لا يصلحون لشيء. . . أكيد، إن هذا البؤس عقاب لهم من الله على ما ارتكبوه من خطايا متعيشين على أيام القديسين والأعياد. يجب أن يكونوا حنوا رُكبهم خمسين أو مائة مرة لعام كامل خلال صلواتهم. وهؤلاء الآخرون، من يسمَّون رجال المدينة ونساءها، انظر إليهم كيف يأكلون فطورهم، يعرضونه كأن لديهم كل أطايب العالم ـ فقط انظر إليه كيف يلوك ويقطع من العظم ذاك ـ وأنا أعرف أن لحم الضأن هذا ظل معروضاً في السوق أياماً قبل أن

يشترى ـ وهو يحاول أن يتباهى به على هؤلاء المتسولين البؤساء حوله. آمل في أن تأتي تلك المرأة مستحضرة الأرواح قبل أن ينتهي ذلك القسيس من غمغمته...

قال: «ستحيا بعرق جبينك».

استمررت: «كنت حاكم إقليم، لكني الآن تاجر حبوب».

قال: «كلما كان العمل أكثر تواضعاً، اقتربنا أكثر من السماء».

قلت: «لو بيع الحب بالمكيال، لضربت جوانب الكونّا أو الإربو براحتي، وأزحت الحب عن الأطراف بكل ذكاء».

قالت: «تبارك من منحنا القوة لنكون كالحمامة لطفاً، وكالأفعى ذكاءً».

قلت: «جعلته يقف كومةً في الوسط، ووضعته ببطء في كيسي، مساعداً الكونّا بتطويقها براحتي وأصابعي حول الطرف».

قال: «تبارك من يغفر نواقصنا».

«ولو بيع بالسليجا، فسوف أدقه بعصاي أو قبضتي لأحصل أكثر مما دفعت له...».

قال: «تبارك من منحنا البصيرة».

«ولو كنت أكتب العقود، أوه، كم كنت ذكياً، سواء لإيجار أرضي أو لأي غرض آخر، فإنني أجد على الدوام طريقة لإدخال بنودٍ للغرامة، في أغلب الأحيان، مستفيداً من أمية زبوني. بعضهم، بالطبع، اتهموني، لكن هذا لن ينفعهم، لأنهم انفقوا أموالاً طائلة على الموظفين، فقط، كي يخسروا القضية في النهاية».

قال: «تبارك من وهبنا القلب والعقل كي نتصرف بالطريقة التي نتصرف بها». كثير من ذنوبي أخبرته بها، كي أنال الغفران. وما كانت نهاية هذا كله!! توجَّبَ عليّ أن أدفع كفارةً بأن أقدم من مالي لترميم كنيسة مريم

القريبة . حسناً . صعقت ، وقلت له إنني سأجد قسيساً آخر يكلفني كفارةً أقل . غضب مني ، لفترة ، بل تركني ، فقط ليعود إليّ بعد حين ، وهو يتمتم على إنائه ، ويزقّ القنينة تلو القنينة في حلقي . أنا متأكد أنه سيأخذ مني عشرة دولارات أو خمسة عشر دولاراً لهذه الخدمة أيضاً .

أي كفّارة ! فقط انظر إليه وهو يغمس أصابعه في الماء ويتمتم .

ربما انتهى من التمتمة في لحظة . آه ، يا إلهي ، الفلاح جاء في الأقل ، ويجب أن يكونوا وجدوا الكبش الأبيض ، وأنهم مستعدون . . .

القسم الثالث

١

غويتوم

الفيتاوراري يتمدد هنا تحت رحمة رجلين وامرأةٍ مستحضرة أرواح، ووينيتو واقفة بجانبه ـ أود لو لم تكن جميلةً كما هي الآن. وواقفةً فوقه مباشرة، تروِّح عليه بغصن مورقٍ من البيسانا. إنها تبدو كالملاك. والطريقة التي تنظر بها إلى الولد ـ كومة أسمال ـ وهو خائف لا يتحرك. ما الذي يدعو إلى الاهتمام به؟ إنه يبدو لي ميتاً أكثر منه حياً. وهو جالس هكذا بلا حراك، ورأسه على ركبتيه.

أهمس، وأنا أعني أبي: «أهو نائم؟».

تقول: «لا. إنه يداعب مسدسه».

أود لو أداعبك كما يداعب مسدسه. والطريقة التي تنطق بها «يداعب» كأنك تريد ازدرادها ـ الصوت والكلمة وكل شيء ـ ازدرادها. هي تنظر إلى الموقد، وسنّها الذهبية تشعّ. النار تنعكس على وجهها. حين تنظر إليها لا يمكنك التفكير بأنها حزينة وحيدة. كأنها تبتسم لهذا في ضوء النار، وضوء النهار. تبتسم لمتاعبها.

أقول: «يجب أن تريحي يدك قليلاً!». هاتين اليدين الصغيرتين. يؤلمني أن أراهما تتعبان. مروِّحتين. والفيتاوراري يتنفس بانتظام، وأنا أعلم جيداً أنه يشخر. وأعرف أنه يبذل قصاراه كي يشخر. أعرفُ أنها طريقة عِلْية القوم. وهي تخبرني أنه لم يكن حتى نائماً.

أهمسُ لووينيتو: «انه نائم يشخر». الفيتاوراري يصفّي حلقه وأنفه. أعرف أنه يشخر.

ثم وقْع خطوات، ويدخل الفلاح الكوخ. إنه لا ينظر إلى الفيتاوراري. ولا ينظر إليّ. لكنه ينظر إلى ووينيتو. وبابتسامةٍ أيضاً. كالنار التي تبتسم في سنها الذهبية. هو يبتسم لها. وحين جلس بجانب الموقد نبشه بعصا. الكوخ ساخن جداً. وهو ينبش النار ـ الفلاح والنار يبتسمان لووينيتو. الفيتاوراري ينقلب وينام ووجهه إلى الحائط. إنه لا يريد أن يبتسم له الفلاح والنار. وووينيتو تبتسم لامتعاضها.

تخرج الزوجة وتعود. وفي يدها أوراق كرنب. تأخذ «السفد» المدور المصنوع من الحشيش. تضع الكرنب عليه. وتشرع تنقّي الأوراق، ضاربةً الأوراق بين حين وآخر على يدها اليسرى. لتنظف كل ورقة من الغبار والديدان. ضاربةً إياها بين حين وآخر. تضع الأوراق في قدر فخّارٍ نصف ممتلىء بالماء. وتضع القدر على الأثافي الثلاث عند النار الموقدة.

يقول الفلاح: «هذه الأوراق هي من القسم الذي يخصني من البستان، إنها للسوق، وكان ينبغي ألاّ تقطفي منها»، وكان أخذ ورقة وشرع يأكلها نيئة. ثم نظر حوله، وبعد أن وجد وعاء شرب غمسه في جرة الماء الفخّارية وشرب. أخذ بضع وريقات تبغ من عقدة بطرف ردائه القطن المنسوج منزلياً، وخلط التبغ برمادٍ من النار، بين شفته السفلى واللثة الدنيا لأسنانه.

يقول بطيئاً، نافثاً الهواء من تبغه: «كان ينبغي ألاّ تقطفي تلك الأوراق. وأرجوك أن تضيفي بعض القرع في القدر». لم تكلف الزوجة نفسها حتى النظر إليه. تناولت عوداً وجعلت تخلط الكرنب. منتوج الأرض البنية الغامقة، أو الأرض السوداء. أسألُ، لماذا؟ لو قُدم هذا في الجزء الكابي الذي تعصف به الريح من «شوا الشمالية» لما لاحظت ذلك. لكن الأمر هنا في غير موضعه ببساطة. وهذا الانهمار المباغت للمطر في الخارج، من عاصفة رعدية على مبعدة أميال في الداخل. أعتقد أنها بَركة الله. إنها تجرف أحياناً الأبقار والأغنام والماعز في البلدان المنخفضة. وأتساءل لمَ لا تجرف

المخلوقات الزاحفة من قمة هذا الجبل. كأن تأتي السيول ليلاً وتجرف الراعي أو التاجر المسافر الذي خيّم في منخفض عند قاع جدول. أتساءل لمَ لا يحدث هذا؟ أو لمَ لا تغلق الجبال كل منفذ نسيمٍ عن هذه المخلوقات غير الضرورية من كلابٍ وحيوانات تدبّ على قدمين؟ لم لا تحرقهم الحرارة المتوهجة المنبعثة من الصخور؟ أو لم لا يتفجر البركان، ثانياً، فيغمر بحممه هذا المكان شمالاً وجنوباً؟

يقول الفلاح وهو يبصق قطرات بصاق دقيقة في الهواء: «كان ينبغي ألا تقطفي كرنبي»، والمرأة المريضة تمد أطرافها في كل الاتجاهات. تعتقد أن الكوخ لها وحدها. كأن الفيتاوراري غير موجود. كأن ووينيتو ليست واقفة خلفه تحميه من الحرارة والذباب والفلاح. إنها تمد أطرافها في كل الاتجاهات. وهذا الفلاح ذو البغل القبيح المربوط في الخارج! يعتقد أنه هو أيضاً فيتاوراري. فقط لأنه يملك بغلاً. لماذا يريد أن يضاف القرع إلى الكرنب؟ فقط لأنه يملك البغل. وطريقة نهيقه. بكل القروح على الحارك والظهر والبطن والجوانب. لو أن الحلقة وضعت في فمه. وهذا السرج الخشب في الركن. هذان سيجعلانه سيئ العلامة في الفم والظهر، ولما نهق كما يفعل الآن. إنها تحاول الشخير كما لو كانت الفيتاوراري...

أتساءل، ماذا كان سيحلّ بهذا المكان لولا أرج أزهار الوانزا والكوسو. كل شخص وكل شيء ستكون له رائحة الظَربان. إلا ووينيتو، بالطبع. إنها سنّور الزبّاد. إن لها المسك الذي يخلصها من النتن. وددت لو انقطع المطر كي أهرب بعيداً عن هذا المكان. وينبغي ألا أكون هنا حين يستيقظ الفيتاوراري ـ لكن ما دامت الحال هكذا فلن أستطيع الخروج. الأرض مبتلة بالماء حدّ التشبع. لذا، وبكل بساطة، لا أستطيع. كم أود أن أستظل بواحدة من أشجار الميموزا الذهب، على تلك الزهور البرية. لكني لا أستطيع الخروج. عليّ أن أقضي الوقت ورائحتي مثل ظربان، وشعوري مثل ظربان. ها هو ذا الرعد ثانيةً، مترددا من جبل إلى جبل. إن له بعض النفع في الأقل. فقد أخافَ ووينيتو. وهي تجلس الآن قرب أبيها المريض.

لست أدري إن كانت تفكر ببيتنا في أديس. هذه الحجرة المكتظة. وبيتنا بأسرّته الواسعة وملاءاته وبطانياته. بالطنافس وأغطية الحرير مفوّفة الألوان. والأرضية مفروشة بسجّاد ديبري ـ برهان. ستائر حرير على الأبواب والنوافذ. والجدران تتزين بكل أنواع الصحف: العهد الجديد. الصوت. اثيوبيا اليوم. لست أدري إن كانت تفكر برفاه البيت.

يقول الفلاح: «أنا جوعان». تجيب الزوجة للمرة الأولى بحزم سريع: «ضع تبغاً آخر تحت لسانك. إنه سيدفع عنك الجوع حتى يبرد الكرنب». ويبدأ أبي يتحرك مثل حيوان وحشيّ وقع في فخّ. يجلس لحظةً، ثم يسقط على ظهره، ثانية، وعيناه تدوران في محجريهما. كأنه يتلوى في قبضة ما. ووجهه يتخذ، تدريجاً، حالة الذهول... أوه، كم أحتاج إلى التبول، والمطر ما زال يهطل، والبغل ينهق. بل لقد بدأ يصيح. هذا الحيوان البائس في المطر... لكن، لم يجب أن أهتمّ بالبغل أو المطر؟ دع المطر ينهمر حتى يجرف كل شيء. دع البغل يصيح ما شاء ـ ما زلت أريد الخروج كي أتبول في المطر ـ والبغل يصيح، والمطر ينهمر. التبول في الخلاء سيكون مثل أن تغدو أنت والسماء واحداً. وددت لو شعرت ووينيتو بالطريقة ذاتها. أود لو تخرج وتتحد بالسماء. تشعر كما تشعر السماء. تشعر كما أشعر. وماذا يهم إن كان الفيتاوراري والبغل يشخران ويصهلان؟ ماذا يهم إن كانت المرأة المريضة تمد أطرافها في كل الاتجاهات؟ ماذا يهم إن كان الفلاح وزوجته ينتظران أن يبرد الكرنب؟

كل شيء سيكون جيداً، ما دمنا متحدين مع السماء!.

٢

الكبش الأبيض

الكبش مسحوباً من حبل حرير معقود حول رقبته، والفيتاوراري محمولاً على محفة من الأغصان الطرية حسب تعليمات المرأة مستحضرة الأرواح، وفوقه مظلة استعيرت من كنيسة القديسة مريم، وبقية الفريق ـ الكل انطلق نحو موضع التضحية.

«باا... باا... باا» الكبش.

والفيتاوراري يتحدث مع القسيس:

«إن متُّ، بعد هذا كله، فقد رتّبتُ أن ينفّذ كل شيء وفقاً للتقاليد».

«وصية المتوفى لا تُحترم كثيراً، هذه الأيام».

يشاع أن مستحضرة الأرواح تذهب عادة إلى هذا القسيس لتطلب نصيحته في شفاء أي علةٍ غير مألوفة لديها. وهذا هو سبب مجيئه معهم بعد مباركة الفيتاوراري بالماء المقدس. والحق، ان المظلة كانت فكرته، وقد كان عطوفاً إلى حد أنه أمسك بها فوق الفيتاوراري.

«ليس معي! كل شيء سيتمّ وفق وصيتي».

«كنت أقصد أن الناس ليسوا أمناء على إحياء الذكرى كما كانت الأمور في سالف الأيام».

«اهتممت بهذا الأمر أيضاً. وكما في سالف الأيام، سوف يقام مأتم في ثلاثينيتي، مع طعام وفير، وكبش للقسيس فقط، بالطبع».

«أوه...».

«وفي أربعينيتي، ثوران سمينان، وخمسون برميلاً من الطلا، وخمسمائة رغيف من الإنجيرا... كما خصصت خمسة عشر دولاراً لصلوات القدّاس التي ستقام في الأيام الأربعين... وفي ثمانينيتي، ثوران، وثلاثة أكباش، وعشرون برميلاً من الطلا، وألف رغيف من الإنجيرا ـ وكلها للقساوسة والنسّاخ وبعض الضيوف المدعوين. الفقراء، بالطبع، سيكون لديهم الوفير من الطعام والشراب... والـ «تسكر» الكبير، أجل! بعد ستة أشهر ـ لا أريد أن أتحدث عنه الآن. انتظر ترَ...».

«هل لي أن أسأل أين تقام كل هذه الاحتفالات التذكارية؟».

«في ديبري ـ ليبانوس، بالطبع، إذا تمّ كل شيء وفق وصيتي».

«وإن لم يتمّ؟».

«كيف لا يتمّ؟ سوف أدفن، طبعاً، في ديبري ـ ليبانوس».

«أقصد، إن لم تكن تلكَ مشيئة الله».

«لقد هيأنا مستلزمات ذلك أيضاً... ليس فقط أن يتمّ الاحتفال حيث أدفن، لكن نصف ثروتي أيضاً ستذهب إليه. والبقية لكل الناس الذين سيشتركون في الصلاة لراحة نفسي».

«أهذا يعني أي كنيسة غير ديبري ـ ليبانوس؟».

«أجل، أي كنيسة».

«إذن، لمَ نصفُ ثروتك، أيضاً؟».

«ربما تَعَيَّن عليهم أن يصلّوا كثيراً لراحة نفسي».

«أسمعت أن بمقدور الجميع الفوز بالخلاص، حين تتوسط القديسة مريم؟».

«أجل، سمعت ـ لماذا؟».

«حسناً، وكما أخبرتك، لدينا كنيسة القديسة مريم، قريبة من هنا، وأنا قسيسها. بإمكانك الفوز بخلاصك هنا، سهلاً، كما في ديبري ـ ليبانوس. أقصد، إذا أردتَ».

«لا. ما زلتِ أفضّل ديبري ـ ليبانوس. على أي حال. شكراً لاقتراحك».

«هل لي أن أسأل ما الذي يثقل على نفسك هكذا؟ ربما كنت لك عوناً».

«أوه، أشياء عديدة... تعرف أنني كنت حاكم إقليم مرة. وحدث في إحدى السنوات أن فقدتُ كبشاً مخصياً سميناً جداً، مثل هذا، في الواقع. وربما كان ذلك أضخم، فأنا لا أتذكر تماماً. وهكذا أرسلت خدمي عبر الإقليم ليبحثوا عنه. لكن لم يعثروا له على أثر. تميزتُ غضباً. ولم أعرف ماذا كنت أفعل. أنت تعرف... لم يكن الكبش سبب غضبي. لكن الفكرة ـ إن رجلاً، أي رجل، بإمكانه أن يكون مغروراً إلى حد المجيء إلى مكاني وسرقة أغنامي... حسناً، في أحد الأيام، وبعد خمسة عشر يوماً، كما أتذكر، خرجت إلى ساحة سوقنا لغرضٍ ما... وماذا تظنني رأيت وجهاً لوجه؟».

«كبشك... ربما؟».

«لا. وإنما جلد خروفي... وجدت نفسي وجهاً لوجه مع جلد كبشي... يصعب عليّ أن أخبرك بما حصل... على أي حال، قبضت على السارق، وهو فتى في العشرين. جربنا مختلف وسائل العقاب لننتزع منه حقيقة الأمر. وقد نجحنا، بالطبع، بعد جهد جهيد. وحسب ما كان جارياً في تلك الأيام، حوكم الفتى، فحكمت عليه بثلاثين جلدةً، وبسنةٍ سجناً... ثم أخذ إلى ساحة السوق نفسها لتنفيذ العقوبة. أمسك رجلان، كل رجل من ناحية، بيديه، مستخدمين حبلاً طويلاً، بينما جلده ثالثٌ بـ «جيراف» ـه، ثلاثين جلدةً. ما زلت أسمع صيحاته بعد كل ضربة... «يا من ترونني جميعاً

هكذا، اعتبروا»، لقد تقرّح جلده بصورة فظيعة من الجيراف... وبعد شهر، أو حوالي شهر، مات في السجن...

«حسناً... لم أستطع أن أنساه».

«لكنه اعترف بجريمة السرقة، كما قلت».

«لا أعرف، يا صديقي. قد تكون ثمت حقائق لا يمكن انتزاعها بالعقاب».

بلغوا مفترق الطرق، حيث تنتصب الشجرة العارية التي أطاح البرق بعاليها. ثم أنزلوا الفيتاوراري تحت شجرة ظليلة، ومدوا «شما» بيضاء تحجبه عن الجماعة، وشرعوا يسوّون الأرض، للضحية.

لم يأت غويتوم. لقد تجنب المناسبة عامداً. هكذا وقعت مهمة ذبح الكبش على الفلاح.

أخذ القسيس يتمتم بعض الرقى، وحرّك يديه فوق الفيتاوراري والكبش. أما الفلاح، فبعد أن شحذ سكينه، سحب الكبش إلى البقعة. وحين تمت الاستعدادات، ذُبح الكبش، ووضع دمه في حوض مع كل ما احتوته الأحشاء. ثم خلط كل شيء خلطاً شديداً، وخلع الفيتاوراري ملابسه أجمع. فكرة وضع غرّة من دم الكبش على جبين الفيتاوراري، تُركتْ، من أجل طريقة أفضل وأشد فاعلية لشفائه ـ تلطيخه وفركه بالخليط، بمصاحبة ضربه ضرباً خفيفاً بالكرش.

شرعت مستحضرة الأرواح والقسيس في تقديم الدواء.

كان التعبير على وجه الفيتاوراري هو التلوّي والاشمئزاز ـ حتى لكأنه يعيد ذلك التعبير الذي لم يستطع له نسياناً...

«أنتم، يا من ترونني جميعاً هكذا...».

٣

ووينيتو

رأسه يرتجف. يده تتحرك بعصبية عليه. اسودّ وجهه بشكل شنيع. عيناه فقط تبدوان حيتين. متقدتين كجمرتين حمراوين. حين يتنفس يخشخش البلغم في صدره. ومن حلقه يتصاعد أنينٌ رنّان. وبين حين وآخر يعطس بعنف عدة مرات. وقد اقتضى الأمر وقتاً طويلاً كي يتمالك نفسه وينظر حوله. وأحسست بشفقة عظيمة عليه. صعب عليّ جداً أن أنظر إليه وهو في حالة كهذه... مثل أبي سعن بشريّ. إنه الرجل المستقل الذي يتخذ قراراته الخاصة ويمضي في السبيل الذي اختطّه. يؤلمني أن أراه يُضرب بالكرش القذر، والسلسلة الذهبية حول رقبته تتقافز على صدره والصليب الذهب ـ يحزنني هذا. وقصة الفتى الذي مات في السجن! لماذا يتألم منها إلى هذا الحد؟ كأنه هو الذي جُلد بالجيراف لا ذلك الفتى؟ كأن جلده هو الذي تقرّح. وكأنه هو الذي مات؟ يا إلهي، أنا لا أفهم هذه الأشياء. لا أفهمها إطلاقاً... كنت أفكر أن أمي جثة حية. إن حياتها لا تستحق أن تعاش. والآن، أرى أبي أكثر موتاً منها... ما الذي يريد أن يبرهن حين يُضرب بالكرش؟ ما الذي يحاول أن يبرهن حين يغتسل بالدم والوضر؟ وبتلطيخ الصليب الذهب على صدره؟ وما معنى أن يحيا في هذه الحال؟ مجرداً من معتقده ونظافته وكبريائه وكل شيء آخر؟

ومع هذا فإن أمي أيضاً تحاول أن تحيا في تلك الحال. بل لقد حاولت

أن تربيني وتكسوني بها. . . لماذا؟ تربيني كي أكون ماذا؟ كي أكون مثلها أو مثل أبي أو مثل الاثنين كليهما؟ يقول لي: «إن لكِ في الأقل وجه أمك». لكن، ماذا يعني أن يكون لي وجهها، ما دامت النتيجة أن أعمل في خدمة خمّارة؟ يقول: «وأنت مثلي في الكفاح لتنالي ما تريدين». لكن، ما الشيء الذي أراده فأردته؟ وإن كان لا يعرف ما أريد، فكيف يعرف أني مثله في الكفاح؟ قد تكون أحلامي هي رغباتي. . . ربما. بصراحة، أنا لا أعرف ما أريد. إن كان عليّ أن أعيش كما تعيش أمي، أو كما يعيش هو ـ فالأفضل أن أموت. فقط انظر إلى ذلك الفلاح! كيف ينظر إلى الكبش الذبيح. عينان واسعتان تحملقان فيه تحت جبهته الكبيرة العبوس. والقسيس ومستحضرة الأرواح يتجادلان حول الطريق الذي سيسلكانه في رحلة العودة.

تقول مستحضرة الأرواح: «لا. لا تمكننا العودة من الطريق الذي جئنا به إلى هنا». ويحتجّ القسيس قائلاً: «ما دمنا لا نلتفت خلفنا إلى كبش الفداء، فلا يهم أي طريق نسلك».

ثمت العديد من دروب الماعز المؤدية إلى قمة الجبل ـ الدرب الأطول والأسهل (لكبار السن) يدور ويدور ويدور حول الجبل، ويصعد قليلاً حين يتمّ دورةً. ولا يُقطع من المسافة إلا اليسير. (درنا ثماني مرات حول عدة تلال، أمس، حين بلغنا القمة). ثم إن هناك دروباً أقصر فأقصر، حتى لقد تبلغ خمسين متراً إلى مائة متر، للبالغين، والشبان، والأطفال ـ وتغدو أشد فأشد انحداراً حسب العمر والقوة. وكلها يؤدي إلى المكان نفسه. ومع هذا، وفي هذه الشمس المتقدة، يضيعان وقتهما في النقاش حول الممر الذي ينبغي اتخاذه. لماذا لا يسلكان أي ممر من هذه الممرات الكثيرة؟ أمرٌ غريب. . . أرجو من الله ألا يختار أطول الممرات أو أوعرها. أظنني غير قادرة اليوم على ارتقائها.

«لم لا نسلك ذلك الممر؟» يقترح والدي مشيراً إليه. وهو يعني أحد ممرات الأطفال.

يجيبه القسيس: «لا. إنه شديد الانحدار! سيشقّ على خدمك ارتقاؤه».

يقول: «حين كنت في سنّهم، اعتدت أن أتسلق تلالاً أشد انحداراً، وعلى كتفيَ أحمالُ أثقل».

أخيراً، اختارت مستحضرة الأرواح ممراً للبالغين، وشرعنا نتقدم صاعدين، حاملين على رؤوسنا الفرن المشتعل لشمس العصر.

٤

الدواء الموصوف

بينما كانوا يعودون من موضع التضحية، بدا الفيتاوراري كمن استيقظ على الواقع للمرة الأولى خلال الحج. كان يناقش الأمور خارج نفسه:

«الطقس، التراب، الماء ـ كل شيء هنا في متناول اليد. حقاً، أنا لا أفهم لمَ كُل شخص في هذا المكان بائسٌ تعيسٌ».

أجابه القسيس: «الناس هنا، كسالى. ولهذا يحاولون العيش على الهبات المقدمة إلى آبو».

وتدخلت مستحضرة الأرواح: «الأمور ليست في ظواهرها، يا سيدي. الناس فقراء لأن الله أراد».

احتجّ القسيس: «أوه. لا. لا تضعي اللوم على الله...».

«لم لا؟ أليس هو الذي جلب علينا سخط الشهور الماضية؟ الجراد دمَّر غلّتنا. ثم انتشر الوباء. ثم، كي تكتمل التعاسة، انحبست أمطار الصيف والربيع... بالتأكيد، أنا لا ألومه عبثاً».

«وماذا جرى للناس الذين سكنوا القرى الصغيرة على سفوح التلال؟ يبدو أن قلة قليلة تعيش فيها الآن. أنا لا أرى حتى دخاناً يصّاعد من أكواخ كثيرة. والعديد من هذه الأكواخ في حال سيئة جداً ـ الحشائش والنباتات

الضارة تنامت في كل مكان، والأشواك والدغل التي تغلق الأسيجة بحاجة ماسة إلى إصلاح. يبدو أن في المنطقة كلها شيئاً غلطاً».

«كثير من الأكواخ بلا أهلين. فلاحون ذهبوا إلى البلدات القريبة كي يعملوا حمّالين. وآخرون لجأوا إلى الطرق محاولين العيش بفرض الإتاوات على الناس تهديداً».

وأضاف القسيس: «ومنهم من اشتروا قلانس وصلبان نحاس مدّعين أنهم قساوسة».

«وحيواناتكم ليست نافعة، لا للمزرعة، ولا للسوق».

«إنها تعيش على ما تلتقطه، يا سيدي، حين يكون الجفاف تحيا على العشب اليابس. وحين يهطل بعض المطر ترتعي العشب الرقيق الذي ينجم بعده مباشرة. والاثنان مشكلة لها. خاصة في الانتقال من العلف اليابس إلى العشب الرطب الرقيق. إنها تموت بالمئات ـ وجع الأحشاء والسعال».

«تقصدين أنها تصاب بالبرد وتموت؟».

«نعم، سيدي. حين تكون مسفوعةً بالشمس الساخنة، ويهطل مطرٌ، مباشرة، تبتلّ كثيراً، وتصاب بالبرد».

«وأنتم لا تفعلون شيئاً لمساعدتها؟».

«نحن نحاول، يا سيدي، لكنهم لا يأتون بالحيوانات إلينا في الوقت اللازم».

«الأمر نفسه يحدث لنا نحن القساوسة».

«لا تقل لي انكم أيضاً مبتلّون ومسفوعون».

«خمس مرات، أو ستاً، في العام، نأكل حتى التخمة. ونكاد نتضور جوعاً بقية العام».

«لكنكم لا تموتون بسبب هذا، أم تراكم تموتون؟».

«أجل. العديد منا يموت. حين لا تعرف المعدة لأشهر سوى البازلاء والفاصولياء المحمصتين، وتحصل على طعام سمين، فإنها تتشقق، ونموت».

«كان عليكم أن تحاولوا، أولاً، أن تعتادوه، فتأخذوا منه قليلاً قليلاً».

«لكننا نأكله حين نظفر به، أو أننا لن نظفر بمثيله ثانيةً».

«ولكن، كلوا ليومٍ واحدٍ، لا لسنة كاملة».

قالت مستحضرة الأرواح كأنها تحدث نفسها:

«نعم. لا لوم على أحدٍ إلا الله».

«عندما كان بإمكان الصدقات والحسنات تجنّب الكارثة، اكتفينا بالجلوس، وإلقاء تبعتها على الله».

قالت المرأة ثانية: «يا سيدي. لقد قادك آبو إلى هذا المكان في الوقت اللازم».

«لم تقولين هذا؟».

«أوه، ألم تر أولئك النسوة العائدات من حفرة الماء؟ لقد رسمن لنا إشارة الصليب، وجرارهن ملأى بالماء».

«افعلنَ؟ لا. لم أرهنّ».

«تلك علامة معافاتك».

«ربما شاء الله أن أعيش أطول».

خارج كوخ مستحضرة الأرواح، كان رجل كسير الساق، وآخر مريض البغل ينتظران عودتها.

وسرعان ما خرجت لعلاجهما بعد أن أُدخل الفيتاوراري الكوخ وهُيّىء له وضعٌ مريح. نودي الرجل ذو الساق الكسيرة أولاً. تلا القسيس بعض

الصلوات على الساق، وعزّم، ثم وضعت مستحضرة الأرواح رماداً مقدساً على الجرح. دفع خمسة وعشرين سنتاً للعلاج وخرج. ثم جاء البغل. أحرقت جذورٌ، وقُرِّبت من أنفه، وجُعل يستنشق الدخان، ثم قُيدت قوائمه، وطُرح أرضاً. وبحديدة محمية حتى الاحمرار وشمت على جلده ثلاثة صلبان ـ صليب على مطاه، وآخر على أضلاعه، وثالث على جبهته. وفي نهاية الأمر، لم يستطع الحيوان حتى النهوض على قوائمه، إطلاقاً.

قالت مستحضرة الأرواح لصاحب البغل إنه لم يأت به في الوقت اللازم.

في داخل الكوخ، انزعج الفيتاوراري حين وجد أوراق تبغ عند دكته بينما كان يحاول أن يضع مسدسه. كان يغمغم لنفسه.

«أأنت غير مرتاح على دكتك؟».

«ما الأمر؟ امرأة حكيمة، وفي منزلك أوراق تبغ؟ مسألة شنيعة».

«أنا أستعمله أحياناً للدواء. إلا أن زوجي في الغالب هو الذي يستعمله».

«زوجك؟».

«نعم. إنه يستعمل السعوط».

«السعوط؟».

«هو يخلط ورقة التبغ برماد الحطب و...».

«يأكله؟».

«لا. يضعه في فمه، بين الشفة السفلى واللثة الدنيا».

«لم يفعل ذلك؟».

«هذا يدفع عنه الجوع، ويحفظ من المرض، ويفعل فعلَ مهيج، يا سيدي».

«بحق الله، أبعديه عني».

عن قرب، سمع الصوت العميق الهادر لطائر أبو منجل الذي يكاد يظنه السامع زئير أسد.

علقت مستحضرة الأرواح: «بشارةٌ أخرى».

«لديك قرون جيدة مثبتة في الحيطان. بإمكانك استعمالها للوانچا».

«في هذه النواحي نستعمل القرع أوعية ماءٍ».

«سأهدي زوجك بندقية مؤخرية جميلة... إن عوفيتُ، طبعاً».

«ستكون معافى. إن أبا منجل بشارة شفاء لا ريبة فيها».

«كم عليّ أن أدفع لو وافقت على اقتراحك؟».

«أي اقتراح؟».

«قلتِ، إنكِ، في حال موافقتي، ستدعين الشياطين أثناء الليل، وتأخذين منهم...».

«هذا يكلفك بالطبع. وكما قلتُ ليس بمقدوري أن أفعل ذلك وحدي. كثير من العمل سيتولاه صديق هنا».

«والعلب الجلد التي حدثتني عنها؟».

«هذه ستحتوي مواد غامضة تفعل الأعاجيب. وسوف تصنع حسب التوجيهات التي نتلقاها ممن لا تمكن تسميتهم».

«حسناً. سأفكر بالأمر».

نادت ابنها، ليذبح ديكاً أحمر أبيض، وأرسلت أحد الخدم ليرميه في طريق يؤدي إلى اتجاه آخر ـ لتضليل الشياطين وجعلهم يقصدون مكاناً آخر، بغية منعهم من اقتفاء أثر المريض.

٥

ووينيتو

اجلسُ هنا، على الأرض، بجانب فراش أبي، كفّاي مجموعتان تحت حنكي، وجسمي متقوس لغير سبب، وأنا أنظر إلى أعلى، فأراه يومىء لي برأسه كي أقترب منه. أقف وأذهب إليه. إنه يكتفي بالنظر إلي ـ يحدِّق فيّ ـ عيناه صغيرتان بالنسبة لوجهه الكبير، وقمة رأسه الصلعاء تمنحه نظرة عارية، وهو ينظر إلي بلا كلام. كأني فارغة تماماً، لا شعور في داخلي ولا تفكير... أظن أنه يصارع كي يتوصل إلى بداية، ثم: يقول: «لديّ شيء لك. شيءضئيل، لكنه سيحميك من العين الشريرة»، ثم يبحث في قميصه، وأشيح النظر عنه. ربما كان يبحث عن الصليب الذهب. يجب أن يكون رآني أنظر إليه باستمرار في موضع التضحية. ثم يتناوله من حول عنقه.

«قد لا أعيش طويلاً، وآملُ...» ووجد استمراره في الكلام صعباً. أعرفُ أنه يريد أن يعيش، وأعرف أنه يخاف الموت. وأسفتُ عليه. «دعيني أضعه حول عنقكِ...» يستأنف الكلام. أنحني له طائعة، فيضعه حول عنقي. ويقبلني في جبيني. يتكلم ثانية ويبتلع الكلمات. أنظرُ إلى الصليب ملطخاً بما ضمه كرش الكبش. أحاول تنظيفه بأناملي. الصياغة المتشابكة للصليب تترك أجزاء دقيقة من التراب في الثقوب. يقول ثانية: «أعرف أنه ليس بالكثير، وأعرف أنني لم أكن الأب الأب، أليس كذلك؟». أحسست إحساساً غريباً، وهو يتكلم هكذا، وأنا أحاول أن ألتقط الوسخ من الصليب.

يعيد: «لم أكن أباً مسؤولاً». ليس بمقدوري أن أتخيل طريقة أخرى له كي يكون مسؤولاً، وهو الرجل الذي هو. شرعت أصلي كي يعيش أكثر، ويغدو نفسه الأخرى. بدأت أربت على الصليب برقة. كما يربت هو على مسدسه. شعرت فجأة بأنني أكبر سناً. كأن للمسدس والصليب دخلاً في الأمر. طال الصمت، وكان أي منا عاجزاً عن قول كلمة. هكذا أحسست بشيء إزاءه. ليس كمعرفة حقيقة جديدة. شيء مختلف. شيء لا يفهمه إلا القلب. إنه، وهو الوحيد العجوز، لم يكن يستطيع أن يعرف طريقة أخرى لتنشئة الأبناء. وربما اختار في توحده أن يكون ما هو. والآن يشعر أنه لم يعد ذا فائدة كبيرة لأي أحد. ثم يخبرني عن أمواله في مصرف أديس أبابا، وعن البيوت التي يؤجرها في البلدات. وتمسك به، فجأة، سعلة سيئة، فيناضل لمغالبتها. وحين يتغلب عليها يتصلّب وجهه ويسودّ. عيناه تثبتان وتقسوان ـ وتمسي جبهته تجاعيد وغضوناً. يمر وقت ما. وفجأة، تأتي الكلمات، كأنها تنطلق من خزان طاقة، ثقيلة، متدفقة، الواحدة بعد الأخرى. كلمات تنبض بالتوق والغضب. ويتوقف، كما بدأ، فجأة.

يبدو أنه كان يحاول أن يخبرني كيف ستكون الأمور لو عاش بضع سنين أخرى. . . إنه نعسان الآن، وأظن أن الأفضل أن أخرج من هذا المكان المكتظّ، إلى الدغل والهواء الطلق.

٦
الفلاّح

حسناً، لم يكن بدٌ من ذلك. كان عليّ أن أعود إلى هنا من طريق آخر. أوه، أنا رجل شغّيل بالتأكيد. لا يمكنني أن أرى كل هذا اللحم يذهب إلى الشياطين. أجل، أنا رجل شغّيل. . .

أنا أصنع المحراث الدائري من خشب الميموزا الجاسي، وأحفر ثقباً في وسط منحناه. وأصنع المسندين المسطحين من الخشب الجاسي لأضعهما إلى جانبي الثقب. اشتري شفرة الحراثة الحديد وأضعها بين المسندين، وبالمصران الطرية التي أشتريها أيضاً أربط كل الأجزاء معاً إلى العمود. ثم أصنع النير من الخشب الخفيف لا من الخشب الجاسي، لا ـ فالخشب الجاسي يبهظ الثيران ـ وإنما من الخشب الخفيف. اجعل النير مستديراً، ناعماً، ومريحاً أيضاً، حتى لا يؤذي اكتاف ثيراني. ثم أحفر أربعة ثقوب، في كل جهة منه اثنان. ثم أصنع أربع عصيّ مستديرة توضع داخل الثقوب لتربط الحيوانات بالنير. كما أصنع مقبض السوط من الخشب الجاسي ـ ناعماً وجميل المنظر. واشتري الجلد.

أوه. . . أنا؟ كيف لا أدبِّر شأني؟ إنني أصنع المعازق أيضاً. وكيف قُيض لي أن أعرف هذه المهارات كلها؟ تعلمتها جميعاً بنفسي. أما زوجتي؟ إنها لا تعرف إلا ما أعطاها الله. لو منحني الله هذه الموهبة لكنت امرأة مستحضرة أرواح، جيدة ومحترمة، مثلها. لكن من الواضح أنه لم يمنحنيها.

إنها هي مستحضرة الأرواح. وأنا لست كذلك. ولعلّي لا أريد أن أكون، لأنني أعرف ما أفعل، وهي لا تعرف. لتكن مستحضرة أرواح، طيلة حياتها، كما تشاء، فلست مهتماً، أنا أيضاً حرّاثٌ مستحضر أرواح. نعم.

لا. لن يغلبني أحد. أعرف. حتى الفيتاوراري ـ الذي اعتزم أخذ امرأتي مستحضرة الأرواح إلى أديس... أشكُّ في أنها ستعود. فيتاوراري غني، شديد المراس، يعرف كيف يتحدث مع رجاله الكبار. حسناً، أنا لا ألومه. ربما قال له شيء في داخله إنها مستحضرة أرواح حقيقية. ومن الصعب جداً أن تلقى الحقيقيات هذه الأيام. لكنها أخبرتني بنفسها أنها أخذت قابليتها في استحضار الأرواح من آبو، وأنها قد تفقد هذه القابلية إذا ابتعدت عن جوار آبو. حسناً، أنا لا ألومها أو الومه...

الطريقة التي ينظر بها إليها، كأنه يحبها. ما الأمر؟ أنا أحبها أيضاً لأنها مستحضرة أرواح، وأظن أنها تحبني لأني حرّاثٌ مستحضر أرواح. آيي ي ي ي! هذا الكبش الذي أسلخه الآن، كم هو سمينٌ لذيذ. مضغة منه تملأ فمك بعصير دسم. لكن امرأتي لا تسمح لي أبداً بأن آخذه إلى كوخنا. تقول إنه للشياطين. هذه الشياطين حين تأكل اللحم السمين تنسى أن تعذب الفيتاوراري. هكذا تقول، لكن قلبي لا يتحمل أن أرى لحماً طيباً شهياً كهذا يذهب إلى الشياطين وحدهم ـ دع عنك لحماً طرياً كلحم الكبش المخصيّ. أوه، ربما تساءل أحدٌ إن كنت لا آكل اللحم من أجل أن أقتل الفيتاوراري. لا. أنا لا أنتوي ذلك. أنا أريده حياً. أريده أن يأتي كثيراً، وقدر ما يريد، إلى امرأتي مستحضرة الأرواح. يا لي! أنا أحب اللحم اللذيذ. أرجو من الله أن يشفى الفيتاوراري. آنذاك، وبحق هذا اللحم، سيحدِّث أهل أديس عن قدرات الشفاء العجيبة عند امرأتي. وسيأتي أناسٌ أكثر فأكثر. وسأحصل على لحم أكثر وأكثر. وستحصل امرأتي مستحضرة الأرواح، بالطبع، على حبوب أكثر وأكثر...

الحديث عن الحبوب، ها! ها! أنا أفعل كل شيء بنفسي. أنا أقوم بالزراعة، البذار والعزق بنفسي. أحفظُ القنوات مفتوحة كي يجري الماء،

خلال الأمطار الثقيلة، سريعاً، إلى الجداول. لا أتركه ينقع مزارعي ـ لا. أقضي ساعاتٍ طوالاً من أيامي وأنا أزيل الأعشاب الضارة، بيديّ، عن الحبوب النامية. أنا أدبّر «ووديمّا» ي الخاصة، بمد دائرة واسعة. أكوّمُ حزماً صغيرة من الحشيش اليابس متقطعةً على مبعدة عشرة أذرع من البيدر. أحرق الحزم حتى تصير رماداً. أضع أوراق البيسانا على الرماد، وأضع حجراً على كل واحدة أحياناً. أعملّ هذه الأشياء حتى على المسالك المؤدية إلى البيدر. بهذه الطريقة، أكون بمنجى من تدخل الشياطين، وأتأكد من غلة جيدة، وأجمع المحصول عليها. وبمساعدة ثوري وحماري أدرس الحبّ. ثم أقوم بالتذرية، فأرمي الحب في الهواء بمقادير صغيرة حتى يمكن للريح أن تذرو القشور. وماذا تراها تفعل مقابل هذا كله؟ إنها لا تفعل إلا ما أعطاها الله. ولا تقبل حتى بأن آخذ هذا اللحم الطيب إلى بيتي. ليس بمقدور المرء أن يتخيل حدوث شيء كهذا لي، أبمقدوره؟ بكل هذا الجهد الذي أبذله في كل شيء!

بل إنني أنا الذي يبني اهراء الأماليد. أبنيها وأكسوها طيناً بيديّ الاثنتين ـ كي أمنع الجرذان والفئران من أكل الحبّ. أنا ابني أيضاً المطامير لدخننا وذرتنا. وأكسو داخلها بطين مجبول من مُرتبيات النمل الأبيض. أجففها تماماً. وأضع الحبوب فيها بنفسي. أوه! الرجال الآخرون يجبرون نساءهم على عمل هذه الأشياء كلها معهم. أما أنا ـ فلا! أنا أدعها تعمل الاستحضار فقط. وبالمقابل لا تسمح لي حتى بأخذ هذا اللحم الطيب إلى بيتي! بل إنها ترفض أحياناً أن تطحن الطحين، أو تخمر الطلا، أو تقطف القطن الخام من البذور، أو تغزله خيوطاً، أو تذهب إلى سوق الأسبوع بمحصول مزرعة، أو حتى أن تطبخ طعامي، أو تجمع العيدان للنار، أو تهبط إلى الجدول لجلب الماء. تقول إن حمل جرار الماء الثقيلة على الظهر يضعف قدرتها الاستحضارية. في أوقات كهذه... من يصدق هذا؟ أكون مرغماً على أدائها لها. وما الفائدة؟ إنها لا تسمح لي حتى بإدخال هذا اللحم السمين الطيب إلى بيتي. إنني آكله نيئاً في أغلب الأحيان.

تقول إن ذلك اللحم هو للشيطان. وأنا أقول، ليكن. لو جاء الشيطان

أعطيته حصته. وأنا أنتظره، وأنتظره، لكنه لا يجيء. هكذا آخذ كل شيء لنفسي. ربما كان اللحم قليلاً عليه في غالب الأحيان ـ ربما كانت فكرته عن المناسبة أن يجد أمامه ثوراً ذبيحاً. لا أعرف. أما أنا، فلا! إن هذه الفرصة لا تسنح لي إلا مرتين أو ثلاثاً في العام. في مناسبات كهذه، أو حين يتردّى حيوان من جرف ويموت. اللحم السمين الطيب من كبش مخصيّ لا أراه دائماً في طريقي. وهكذا لا أدع فرصة كهذه تفلت مني.

أوه، نعم، أحياناً تدعوني جلفاً ـ فقط لأنني أحب أكل اللحم النيّء. تقول: «في أحد الأيام قد تأكلني حتى أنا نيئةً» ـ تقصد، إن حدثت مجاعة أو مثلها. كأني لم أرد أن أهرب بتلك المرأة الجميلة التي عند الفيتاوراري! إنها جميلة جداً، بحيث تريد أن تلتهمها كاملة. ووو! ربما. أقصد أن شهيتي تستثار حين أرى أشياء جميلة. أحس أني أريد أن أنهش شيئاً في معدتي. أريد أن آكلهم جميعاً... ألتهمهم كاملين، أو هكذا. أقول، حسناً، قد أفعل. وتبتسم، وتقترب مني، وتعانقني. كأن تقول، «أوه ـ لا، أرجوك لا تفعلها، دعني أكن امرأتك مستحضرة الأرواح فقط». وباعتبارها مستحضرة أرواح، فإن لها طريقتها في قولها، مثل طريقتها في أن تجعلني متهيجاً لها. حسناً، ماذا بمقدوري أن أفعل؟ أنا ببساطة، أتركها كما تريد أن تكون. لكن، مقابل ذلك كله، لا تسمح لي حتى بأخذ هذا اللحم الطيب إلى بيتي. وهذا يجعلني أريد أن آكلها كلها أكثر من السابق...

تشيتشيتشيتشا! كم أحب أن أعلق اللحم فوق دكتي وأتمتع بالنظر إليه، وحين أريد أن آكل أحياناً، أختطف قطعةً ببساطة. لكن ـ لا! إنها لا تفهم. إنها، ببساطة، تخلط الأمور ببعضها.

يعتقد الفيتاوراري أن الشيطان آتٍ حالاً ليلتهم كبشه، وليشفى هو في الوقت المحدد، وامرأتي تعتقد أن الشيطان يأكل الكبش معي، وأنا أعتقد أني آكله وحدي. وحدي عند هذا الجدول الرقراق. ربما ظن بعضهم أن ضرراً سيصيبني من أكل هذا الشيء وحدي، بدون أن أشارك أحداً فيه، حتى ولا ولدي وامرأتي. أليست تواجهني مشكلة أكله كله وعلى الفور! ثم إنّ علي

الصعود إلى آبو كي أصلي ـ كي أخبره بكل خطاياي الصغيرة، وخططي، والصعوبة التي يسببها واعظه لي.

أرجو أن يقول لي آبو شيئاً في منامي قبل ذكراه غداً.

ومالكة أرضي، تسألني أن أساعدها في بناء ذلك «الداس» ـ لا أظن بمقدوري عمل ذلك قبل الظهر...

حسناً، آمل في أن آكل نصف هذا اللحم قبل الغداء. آمل في أن أكمله في وجبتين، لأكون في بيتي مساء ـ قبل صلاة المساء في الكنيسة، ربما. وأقول صراحة أن بمقدوري الإجهاز عليه في وجبة واحدة إن أردت. لكني أود أن آكله بطيئاً ـ أن أستمتع به، أستمتع به حقاً. إلى جانب أنني أتمتع بإثارة الغابة، أقصد، حتى لو اقتضى الأمر المبيت هنا. لديكم دائماً رفقة، ولا رفقة مألوفةً هناك ـ بنات آوى، الضباع ـ إنها تظل برفقتك، آملة في أن ترمي لها بعظم أو عظمين. وأي ضجة تثار. ضجة مخيفة إلى حد ما. بنات آوى تعوي عواءها المشؤوم، والضباع تتنادى، حتى تجتمع كلاب المنطقة وتطردها بنباحها. إثارة حقيقية...

كل امرىء في هذا المكان يحاول أن يشعر بأنه كبير ـ بالبنادق والأشياء. وماذا لديّ، أنا المسكين؟ لست أملك شيئاً. الشيء الجيد هو ذلك الذي لم يقيّض للحيوانات المسكينة أن تعرفه. إنهم يخافونني. لكنهم لو عرفوا أني لا أملك حتى ثورين لي لداهموني في واحدة من جولاتي. وهذا كله بسبب أن امرأتي مستحضرةَ الأرواح تطعم دائماً الشياطين، ولا تطعمني. إنها لا تطلب مالاً كثيراً لقاء استحضارها الأرواح. إنها لا تطلب... أوه، أي لحم لذيذ هذا! وكيف تتبدل الأمور... هذا اللسان الذي آكله الآن، مثلاً، من المعتاد أن يكون من حصة سيد المنزل... يا لمذاقه! لم تتح لي فرصة تذوقه آنذاك. أوه، كم لذيذٌ هذا الكفل ـ أيضاً من حصة السيد... وهذا الشريط السمين من العمود الفقري ـ أيضاً من حصة السيد... وهذه الأضلاع السميكة. كم ستكون لذيذة لو طابت على جمر الحطب. كم أود لو أوقد ناراً! لكن النار ستجتذب الغرباء، وسيكون الأمر سيئاً لامرأتي...

وهذا اللحم القريب من المعدة . . . للسيد أيضاً . كم كان يسيل لعابي فأبتعله حين يأتي دوري لوضع هذا اللحم على جمر الحطب للسيد . أما هو فلا يبدو أنه يرى شهيتي اللاذعة . . .

وهذا الصدر، أفضّله على سواه ـ أود أن يكون اللحم كله طرياً مثل هذا ـ هو للسيد كذلك . كم يبدو لذيذاً حين يؤكل مطبوخاً . وهذا الغضروف من الصدر، الذي أفضله أيضاً، كان من حصة من يسلّي السيد . . . وهذا اللحم من أسفل العظم الحرقفي هو للسيد كذلك، حتى ولا لقمة منه لنا، نحن الخدم . . . والجزء الداخلي الطري من الفخذين، للسيد أيضاً . . . و «الجيكوارا» الجميلة ـ أي مأكل نفيس يكون الكرش والكبد حين تقطعهما قطعاً تخلطها بمحتويات المرارة معصورة عليها ـ كم يحبها السيد أكلةً أولى . . . لقد فسدتْ قليلاً الآن . . . أما نحن المخلوقات البائسة، فليس من حظنا سوى البقايا ـ قطعتا «الماهلاجيداس» مثلاً، تذهبان إلى المكلف بالغسل وحامل الدرع ـ عضدان حقيقيان وفيرا اللحم . . . وهذه الرقبة، والبطن، وهذه القطعة من الكبد، لمن يقطع الحشيش . . . وهذه «الشمفيلا» ـ يجب أن تكون جيدة لقربها من الكرش، لكنها ليست طيبة إطلاقاً ـ فهي للطباخين . . . وغشاء المعدة السمين هذا، وهذه العظمة التي عليها بضعة من لحم هنا ـ أي أكتاف لذيذة لهذا الكبش ـ آيي ي ي! ليس عليك أن تمضغها أكثر من مرتين لتبتلعها ـ إنها، بكل بساطة، تذوب ـ أجل، كانت هذه من نصيبي أنا الحمّال . . .

أما الآن، حسناً، فكل شيء لي . أنا سيدٌ وخادم . لست سيداً كاملاً بعدُ ـ امرأتي لا تسمح لي بأن آخذ لحماً شهياً كهذا إلى بيتي . إلا أنني سيدٌ بقدر ما يتعلق الأمر باللحم . بالطبع، استطيع أخذه معي بالقوة، إن أردت . أجل، أستطيع . لكن هذا تصرفٌ غير حكيم . فقد تخبر، وهي حانقة، الفيتاوراري، بالأمر . والأنكى من ذلك، لو مات الفيتاوراري فسوف أُعتبر مسؤولاً عن موته . إذن، ماذا أفعل؟ عليّ أن أتدبّر الأمر . وأنا آمل في الإجهاز على اللحم كله صباح غد . آنذاك، من يعرف؟ ربما احتاج الفيتاوراري كبشاً آخر ـ أسود أو أحمر، حسب ما يقتضي الوضع . من يعرف؟

جمع اللحم كله، في جلد الكبش، وحمله بعناية ورقة قريباً من الجدول. أخذ الذباب يطن حول الصرّة، واستقرّ على وجهه أسراباً. حاول أن يقتل بعض الذباب، لكنه وجد نفسه في معركة غير متكافئة. بدا أنه قرر شيئاً ـ نهض، وقطع غصن بيسانا ذا أوراق قليلة، وجلس ثانية. وضع الغصن في حضنه، وتناول مديته. قطع قطعة لحم، ملأ فمه حتى الشفتين، وأخذ يمضغ منتشياً. . . بين حين وآخر، يتناول الغصن، واهناً، ويحرّكه ملوّحاً به، وراء وأماماً، وراء. . .

القسم الرابع

١

مالكة الأرض

وصلت مالكة الأرض ضحًى، ومعها سيدة صغيرة صديقةٌ لها، وعدد من الأتباع الذين كانوا مشغولين بالاستعداد للاحتفال السنوي.

وفي ساحة أحد فلاحيها الأكثر غنًى، قرب الكنيسة، ارتفع «داس» ضبير على هيكل من الأوتاد. الأوتاد العمودية غرزت في الأرض، أما الأفقية فقد رُبطت إلى الأولى بألياف اللحاء وفروع الشجر الطرية. وكدست على «الداس» أغصانٌ خضر وجلود حيوان اتّقاء الشمس. وفي وسطه نُصب عمود خشب تبرز منه أوتادٌ، بزوايا مناسبة، عُلِّق عليها لحم بقرة مغطى بقماش أحمر. في الداخل صُفّت طاولات خيزران. وفي إحدى الزوايا صفوفٌ من جرار الطلا وأكداسٌ من الإنجيرا وعدد من قدور «الووت». وفُرشت الأرضية بالعشب الطري والورق. وفي الباب يقف رجل مسلح بعصا طويلة ـ كي يري الناس أماكنهم، ويفسح المجال للقادمين الجدد بصرف القدامى في الوقت المناسب، ويحفظ النظام، بحراسة المدخل، عن حشد المتسولين في الخارج.

كوخ الفلاح إلى جانب الداس، وأمام الكوخ مساحة صغيرة مفتوحة، تتناثر فيها أكوام الروث والقمامة، وتنمو الأعشاب الضارة حتى لتكاد تغطي نصفها. وثمت كائنات رباداء سوداء ذات أسمال، لا تكاد تتميز هيئاتها الزاحفة الهاذية عما يحيط بها، كانت تنتظر فاغرة الأفواه، مادّةً محتقَبات جلد

الخراف، علّها تحظى بفُتاتٍ. وعند أقدامها يقرقر ماء قذرٌ بين كتل السماد المتجمد.

الديكة والدجاجات التي كانت جاثمة في الكوخ، راحت في خفقٍ وعراكٍ قلقين. واندفعت خرافٌ، هاربةً، فزعةً من الضجيج، وأظلافها تضرب السماد المتجمد. عوى كلب عواءً عالياً، ثم زمجر غاضباً، وأخيراً نبح بوحشية على المتطفلين. يبدو أنهم لا يتعذبون لأنهم يعيشون حيث لا يتغير شيء، عاماً بعد عام. كلما عاشوا أطول صار سكون المحيط أشد. خارج الساحة، وعلى أكوام سماد نبت فوقها عشب خفيف الخضرة، كان يجلس فلاحون أحسن هيئةً. إنهم يجلسون هناك كأنهم ممسوكون من خلف، عصبة من نماذج جلدية، ممدودي الأذرع، متدلّي الرؤوس إلى أمام. بعضهم يبدو مسحوقاً تماماً، مقتلعاً من أرضه، أرض الشمال القاحلة المستنزفة. إنهم ينظرون حولهم بعيون كابية زائغة، ويبدون مثل الكلاب الشريدة في الجوار، وقد جُمعت خارج الساحة.

إنهم يبدون متشابهين، مثل الكائنات البشرية حولهم، بدون تدافُعٍ أو صخب، ينتظرون الساعة التي تخرج فيها خادمةٌ لتلقي إليهم فضلات الوجبة. تحت شجرة قريبة، كان عجوز أعمى ملتحياً يعزف على «الماسنكو». حزنٌ صامت يرتعش في عينيه وشفتيه اللتين كانتا مضمومتين بصورة متشنجة، متوترين إزاء رنين الأوتار اللطيف من الالة. طيرٌ على شجرة رفَّ مرتين من غصن إلى غصن، في صفير، ثم طار، هازًا ذيله، نحو الكنيسة.

خرجت السيدة بطعامٍ تحمله خادمة، ووراءها رجل. تعالى الهرج والمرج على الفور. وكل واحد يصيح بأعلى صوته، وعن كل كلمة ينطقها أحدهم يطلق الآخر كلمتين. اشتكت مالكة الأرض من شحاذ يدخن سيجارة. كان شخصاً بائس المنظر، يرتدي معطفاً نسوياً، مخرَّقاً في كل موضع ـ من أمام، وأسفل، ووراء، وحول الجوانب ـ مجرداً مما يمسكه، ممزقاً في أشرطةٍ حول الأطراف.

مجذومان تخاصما على مكان عند الباب، وانطلقا يتضاربان بعنف.

أحدهما انطرح على وجهه، وهو يصارع، ويرفس، وينفث التراب. ثم استطاع النهوض، ومن جديد بدأ الصراع بينهما بكل ما لديهما من قوة، حتى قعقعت أضلاعهما. كلٌ يواجه مرفق الآخر، أو رأسه، أو حتى الهواء. راغ أحدهما خلف الآخر، وأمسك به من العنق أو الساق بقبضة شريرة. والحشد المحيط يضحك ويصفر ويصهل ويصفق لهذا أو لذاك. أحدهما كان ماهراً في تفادي الإمساك به، يراوغ بحذر لا يصدق. لقد كافح الاثنان كفاحاً بطولياً.

على أي حال، لم يكن الطعام لهم، وإنما لأولئك الذين خارج الساحة.

٢

غويتوم

في الفناء الأول للكنيسة، انتظرت عودة جماعتي من مكان التضحية. وفكرت كيف أن الحياة كانت تجري في مسارها. الخراف والماعز المنذورة لآبو كانت مربوطة في زاوية من الساحة، وهي تثغو بلا انقطاع. والخيل عند البوابة كانت تذب الذباب المزعج بذيولها، وأصحابُها الجالسون قرب السياج كانوا ينفضون بسياطهم الأوساخ عن أقدامهم، والواعظ يصلي بحميّة، ثم يبدأ يرش الماء المقدس، عن قصد، على رجل مريض، من سطل. في بقعة منعزلة كان رجل يشوي عرانيس ذرة على جمر الحطب، وحين التقت عيناه بعيني (ربما اعتبرني ذا عين شريرة)، جاءني فوراً، وأنزل الشمّا التي يرتديها كي تكون كتفاه عاريتين، علامة احترام وتذلل، وعرض عليّ الأكل، وهو يقول: «رأيت أكثر من ثروة كبيرة تضيع في الشقوق والصدوع...»، وعرفت أني لو تركته يتكلم لظل يتكلم إلى الأبد. لذا تظاهرت بأني غارق في مشكلاتي ورفضت عرضه بأدب... «سأحصد محصولاً جيداً هذا العام...»، كان يقول. يبدو أنه أدرك أخيراً أني لست في المزاج المناسب، فعاد متردداً إلى ناره وعرانيس ذرته. وانتقلت عيناي منه، إلى السياج ـ كتلٌ من القرّاص شقت طريقها تحته، والحمّاض أطلع رؤوسه خلل الأجزاء الممزقة، كي يمسك بأرجل المارة وثياب النسوة، وتحت ظل الجزء الداخلي من البوابة، كانت كتابة حائلة اللون: «مرحباً بجلالتك الامبراطورية» بخط «أبو جديد» طويل.

أجل، لقد ساعدتني لأرى النور، كنت أفكر ـ

«كيف قُدِّر أن يكون لي ابنٌ ضعيفٌ هكذا، بعد كل ما فعلته لك . . ؟» .

أقول: «أنت ربيتني بهذه الطريقة» .

يسأل: «ألم أعلِّمك؟» .

أجيب: «بلى. علمتني» .

«ألم أصرر على أن تكمل تعليمك؟» .

«بلى. أصررتَ» .

«وحين تركت المدرسة، ألم أجد لك عملاً جيداً؟» .

«لم أعتبره هكذا» .

«لمَ لا؟» .

«حسناً، لم يعجبني عملٌ أناله من خلال أصدقائك» .

«لمَ لم تحصل أنت بنفسك على عمل، إذن؟» .

«لم أستطع، والأمور كما هي» .

«أوه، لم تستطع! أتعرف السبب؟» .

«نعم. أعرف» .

«ذلك لأنك لا تعرف شيئاً» .

«أنا لا أعرف شيئاً؟!» .

«أجل. لا شيء» .

«ربما كانت فكرتك عن العمل، هي الجلوس في مكتب، واستنساخ الرسائل، وشرب القهوة أكواباً بعد أكواب، والثرثرة» .

«بقدر ما يخصني، كل ما يأتي بمال هو عمل» .

«بقدر ما يخصك!» .

«ربما كانت فكرتك عن العمل هي التعيش عليّ مثل طيرٍ كاسرٍ» .

«لا تنس أنني وارث أمي الوحيد» .

«أوه، لا! لست كذلك. أنا، أولاً، ما دمت حياً» .

«أرجو من الله أن يطول عمرك حتى تسأم العيش».

«أترك هذا الأمر لي. ثم إن هذا ليس من شأنك».

بالطبع، تركت الأمر له. فقط كي ينتهي هنا.

أي رجل هو! من أي معدنٍ صلبٍ... إنه ليتقيأ ويخرأ في الوقت نفسه! وما زالت روحه القديمة لم تتغير. كم يكره أن يُعامَلَ باعتباره مريضاً، دع عنك كونه عجوزاً. أرجو أن يطول عمري مثله، فقط كي أعرف أي هلام مقرفٍ سأكون. أنا متأكد من أنني لن أدبر آنذاك حتى حياةً نباتية معقولة. قد أتفسخ. آمل أن يظل لدي عزمٌ كاف للانتحار... أوه، لا ـ ليس هو. قد يغتذي النبات ويتفسخ. قد يستمر متحدثاً عن أشياء ماتت ودُفنت:

«حين كنت في سنك، اعتدت أن أمشي تسعين كيلومتراً في اليوم... حين كنت في سنك، اعتدت أن أذبح كبشاً بنفسي، وأقطع كل جزء من اللحم من موضعه الصحيح... اعتدت أن أسرج حصاناً، وأوسق حماراً، وآكل مثل رجل، وأشرب مثل رجل، وأحارب مثل رجل، وأحب مثل رجل... أما أنت فانظر إلى نفسك...».

قد يكون مصيباً. أنا لا أعرف أن أؤدي تلك الأشياء كلها، كما يؤديها. أنا مثلاً، لا أستطيب اللحم النيّء، ولست بحاجة إلى أن أعرف كيف أسرج حصاناً، أو أوسق حماراً. ومع هذا فإنه لا يفهم حاجتي إلى شيء، أو رغبتي في عمل شيء. إنه يظل يلقي عليّ دروساً عن أمور لا أهتمُّ بها أدنى اهتمام. «في معارك ميتشو وكوريم، حين نفدت مؤونتنا، اضطررنا، فأكلنا لحم جيادنا نيئاً، وشربنا بول دوابنا، ولو كنا مثلك نريد هذا ونرفض ذاك، لما خرجنا من تلك الأماكن أحياء...».

حسناً، ما الفائدة من مناقشته. إن ما يهمه هو البقاء ـ حتى لو كان ذلك يعني أن يفعل أموراً لا يمكن أن يفعلها في ظروف اعتيادية. لكن ليس أنا! إنني لأفضّل الموت. وأرجو من الله أن يمنحني القدرة على ذلك في وقت كهذا. ثم، ألم أر صورة مشهد المعركة المعلقة على الجدار فوق سريره؟

الزبالة كلها في صورة واحدة: هجوم الخيالة. مشاة راكبون وكتائب، الكل في المعركة ـ يطلقون الرصاص، يطعنون بالرماح، يتدرّعون، والقتال بالأيدي ـ مئات الموتى البيض، ولا إثيوبيّ واحد. أي كذبة صارخة مضحكة! وهو يحدثني عن نيله هذا الوسام أو ذاك، كأني أهتمّ بالأمر. أوسمة تقدم إلى أناسٍ لأنهم أطلقوا أكبر الأكاذيب، أو لأنهم كانوا أجبن الجبناء. إنه يتوقع مني أن أعتبره بطلاً! لماذا يتعيَّن عليّ أن أخبره أن الأبطال هم موتى ومدفونون؟ لماذا يجب أن أخبره أن الجسارة هي تعبيره الخطأ عن الخوف؟ وأنه نجا أحياناً بالمصادفة المحض. لماذا يجب عليّ أن أخبره أن الأوسمة تخفي في غالب الأحيان قلباً جباناً؟ لا، دعه يتمرغ في ذكريات جبنه ونفاقه. دعه يمضي في لوم الجيل الشاب:

«بعض أصحابك، الذين يسمّون مثقفين، لا يعرفون سوى أن يقتلوا أنفسهم. الطعام رديء، فيذهبون ويقتلون أنفسهم... لا عمل ليعملوه، فيذهبون ليقتلوا أنفسهم... لا فتاة جميلة، لا سيارة، لا دارة، فيذهبون ليقتلوا أنفسهم. أنت وأمثالك لا تصلحون لشيء، أقول لك. لا أحد من جيلي كان سيفعل أشياء سخيفة كهذه. حتى لو كان الأمر ضرورياً، فإنهم يقتلون أنفسهم، بعد أن كانوا قتلوا أعداءهم. لكن انظر فقط إلى نفسك! لا أظنك قادراً حتى على ذاك. لا أظنك قادراً على الانتحار كما يفعل أصحابك المثقفون...».

حسناً، ماذا كان بإمكاني أن أقول إزاء هذا كله؟ ربما، أبرهن له بقتل نفسي؟ أوه، لا! لست حتى الآن ذلك المجنون. أنا أحب الحياة كثيراً، كما يحبها، ربما بطريقة مختلفة. أحب الحياة ما دامت حواسي سليمة. ما دمت قادراً على الإسهام في ما ينجزه الرجال أمثالي. ما دمت أستطيع أن أحب وأكره وأغضب وأرحم ـ ما دمت أشعر بنار الحياة فيّ. أن تتخيل أنه عاش بالفعل! رجل لم يحب، البتة، لأجل الحب. ولم يعمل لأجل العمل، ولم يحارب لأجل الإنسانية، ولم يدافع عن أي حقيقة شاملة في الحياة، سوى ـ الأرض، الثروة، اللقب، الوطنية، وذلك النوع من الهراء. هو يقول لي إنه

عاش، وأنا أقول له إنه لم يعش... وما نتيجة هذا كله؟ هو يعتقد أن الإفرنجي سحرني. هو يعتقد أني مسعور وما إلى ذلك. ويتوقع مني أن أذهب إلى هؤلاء القساوسة لرقيةٍ ما، أو قليل من الماء المقدس، ليشفى ما يشكوه الفيتاوراري مني. وأنا أقول: إلى الجحيم بكل شيء ـ الفيتاوراري، والشكوى، والشفاء.

«... لديكم أرضٌ غنية، وكل نوع من المنتوج الطبيعي»، هكذا كان يصرخ الواعظ، كأنه لا يعرف أني لا أملك حتى ياردةً مربعة من الأرض القاحلة. وفكرة أن أكون غنياً بمجرد نبش التربة المعطاء ـ لماذا؟ النبش لم يؤد إلا إلى البؤس، مزيد من النبش لمزيد من البؤس. عليه فقط أن يهبط من كنيسته ويدخل أحد تلك الأكواخ. سيستقبله مهرجان كبير من الجرذان المتسابقة، اللاعبة، تصيء، وتركض فوقه طوال النهار والليل...

أرجو من الله أن ينفعه الكبش الأبيض، فيعمّر طويلاً حتى يكره حياته، حياة انتظار الموت.

٣
الفلاّح

وهاآنذا الآن، ألقى هذا الواعظ يرش ماء آبو على الرجل المريض ويكسب مالاً. أمرٌ حسنٌ أنه لم يسمع بالكبش المخصيّ. إذن، لاختطفه مني بلا تأخير... أما الآن، فإني أخبره بأني لستُ حرّاثاً اعتيادياً ـ نصف الكبش ناتىء في معدتي، والنصفُ الآخر تحفظه بابك في أمانٍ تحت تصرفي. حسناً، ها انتذا ترى أنني لا أحاول إخفاء أي شيء عنك، يا آبو ـ حتى عرانيس الذرة تلك التي اقتلعتُها من مزرعة الواعظ. وأظن أنني جئتك في الوقت المناسب كي تفكر بالأمر قبل حلول ذكراك غداً.

أجل... ومالكةُ أرضي ـ ظننت أني جئت من أجل قليل من لحمها في الداس ـ تقول «أنت لم تأت لتساعدنا في إقامة الداس، أنت تجلس هناك في الخارج مع بقية الفلاحين»، وأنا آتي مباشرةً إليك. على أي حال، من يريد لحم بقرتها؟ إن لحمها هو لحم بقرة ميتة أو نحو ذلك. وهي تريدني أن أجلس في الداخل مثل فلاح اعتيادي. ماذا تظن نفسها؟ فيتاوراري أو نحوه؟ كأني سأهتم لو كانت...

تقول امرأتي «لا، غير مسموح لك بدخول الكوخ، حتى بدون لحم الكبش المخصيّ. فأنت ستغدو ظلاً للرجل المريض». ظلاً؟ كأني لست لحماً ودماً. تقول «أنت تُسقط ظلك على الفيتاوراري، فلا يشفى». وأقول لها اني سمعت غراباً ينعب ـ نذيرٌ أكيدٌ بأن شخصاً سيموت سريعاً ويُدفن.

وتقول لي إن الغراب نعب للمرأة المريضة في بيتنا. وأسألها إن كانت ميتة. فتقول لي إن أقاربها أخذوها إلى بيتها. أخذوها إلى بيتها بدلاً من دفنها.

حمقى! كأني لم أسمع الغراب ينعب.

على أي حال، جئتك في الوقت اللازم. لأخبرك بمشكلاتي. فامرأتي، كما ترى، تثير غضبي معظم الوقت. وأرجو منك أن تفهم انني اقتطعت عرانيس الذرة تلك كي أطعم ولدي. إنها لا تسمح له حتى بدخول البيت، قائلة له انه سيغدو ظلاً أيضاً. فقط لأنه ولدي، ولأني أعطيه بعض ما يملأ فمه من اللحم... طبعاً، تركتُ لهذا الواعظ في الأقل عرنوس ذرة على كل ساق نبتة. أنا لم أقتطع العرانيس كلها.

ولا أشعر انني بالغُ السوء...

ومن أجل تلك التي تركتها غير مقتطعة، أرجو أن تلتفت إليّ.

وبالنسبة للمستقبل، لي خططي التي أتمنى أن ترضى عنها... سوف أوسّع السياج، وأسمح للحجيج بمبيت الليل في ساحتي. لكن ليس كما أنا عليه الآن. فأنا مزدحم جداً، وسياجي صغير جداً، ولست أملك أرضاً لأوسعها... لكن عندي الخطة... أرجو ألا تغضب مني لو غرزت العلامة أبعد قليلاً عن سياجي ـ من هنا، سأمنح المتسولين فرصة. سأجعلهم يبيتون الليل داخل سياجي... أوه، يا آبو، أشِرْ فقط بيدك، هكذا، وأرسل البرق ليحرق تلك الشجرة التي تعرقل نقلي العلامة، أو، ربما... اجعلني أحلم هذه الليلة، وعلمني كيف أدمر تلك الشجرة... لو أخبرتني فقط في حلمي الليلة لعرفت أنك معي، وأنك غفرت لي عرانيس الذرة تلك. أو، ربما... لو أخبرت جاري بأن يكون أرحم... بينما هو يرش ذلك الماء ويزداد غنى، أنا متأكد أنه لن يرفض إسداء فضلٍ يسيرٍ لك، أقصد، لي ـ وأنت تغمره بالكثير من أفضالك. فقط أخبره من خلال الرجل المريض الذي يحاول شفاءه، سوف يفهم أنك أنت المتكلم... والحال، انه يرسل أبقاره دائماً إلى «طف» ي، وأنا أُبعدها دائماً عنه...

وبالمقابل، لو أن بقرتي أو خرافي ضلت ودخلت مزرعته، أو أن عجلي دخل في حقله، فإنه يتهمني ويغرّمني... وذلك التابع، تابعه، الذي يحاول أن يكون واعظاً، يطلق القطيع في «طف»ي، ويُدخل البغل على ذرتي ليلاً ـ مراراً وتكراراً ـ كما تعلم، وماذا أفعل؟ أُخرجها، وأتغاضى عن الأمر... أوه، أي محتال هو. لم أعد أطيقه. وهو، فوق هذا كله، راهب. كان ينبغي منه ألا يهتم بأمور الدنيا، لا ـ كان يجب ألا يهتم. حدث مؤخراً أن فقدتُ السيطرة على أعصابي. لم يكن من ذاك بدّ. وقدمت شكوى أمام محكمة المنطقة ـ وأي محتقبة جلدٍ مليئةٍ طفًا أخذتُها إلى القاضي...

أجل، إنه يخافني الآن. يريد التودد إليّ... يا إلهي، أذكرني في بقاعك المقدسة، فأنت تعلم، أن أرضي هي التي أبذر، وزرعي هو الذي أحصد، وكرنبي هو الذي أقطف، وحطبي هو الذي أجمع، وماشيتي هي التي أرعى...

امرأة ذاوية مثل رقاقة خشب، تلف رأسها وخديها المتورمين بـ «انجتلبسي» جاءت وشرعت تصلي، متمتمة بدعاءات مختلفة، طالبة كل رحمة وفضل... كانت تحاول أن تدخل في حديث مع الفلاح «جئت على قدميّ، طول الطريق من نازاريت. فإن كنتَ من هذا الحيّ، فإنني بحاجة ماسّة إلى استئجار مأوى منك لهذه الليلة...».

«ذكرى آبو غداً. كان عليك ألا تجيئي اليوم». لم يكن مسروراً بتطفلها، حاول إبعادها عنه، لكن المرأة لم تكن مستعدة لأن تُصرَف هكذا، فأضافت...

«إن أردت فسأدفع للمبيت».

«أظنك جئتِ إلى آبو بشيء».

«نعم ـ خمسة عشر دولاراً، ثمن مظلة».

«بخور، شموع، أيضاً؟».

«نعم».

«إذن، سأفكر في إيوائك الليلة».

«شكراً لك، أيها التقيّ، شكراً».

«حسناً، ماذا بإمكان المرء أن يفعل؟ يبدو أنها ليست مشيئة آبو. كنت خارجاً من بيتي لأحصل على قرص زبدة أضعه على رأسي المتبتر، وها أنتِ تأتينني مباشرة لأقدم لك مأوى. هل بإمكاني إلا أن أعود؟».

«لا. لا. لا أريد أن تتجشم هذه المتاعب كلها. سأنتظرك حتى تعود».

«وماذا عن المظلة والأشياء؟ الشحاذون واللصوص يملأون المكان. قد تريدين أن تحفظيها في أيدٍ أمينة».

«لقد فعلت ذلك».

«المظلة والأشياء؟ أمّنتِها لدى شخص ما؟».

«نعم».

«مع من غيره؟ مع آبو طبعاً. لقد سلّمتها للرجل المقدس».

«تقصدين الواعظ؟».

«ذاك الذي يسكب الماء على الرجل المريض».

«إذن، كان عليك أن تسأليه هو عن مأوى، يا امرأتي العزيزة. إن رجلاً من نوعه يجب أن يكون لديه مكانٌ لأمثالك. نهارك سعيد. . .».

«أنا لا أفهمك».

«أوه، أعرف إنك لا تفهمينني. آبو فقط يفهمني».

فجأة، تعالى الضجيج. وسُمع رجل يصيح بآخر، أيها اللص: ثم بدأ العراك وتبادل الضربات. أحد الرجلين، وهو شحاذٌ ضعيف منهك لم يستطع الحفاظ على توازنه، فسقط أرضاً، وأطلق صرخة رعب، ومثل شخص معتوه، انحدر، مغلق العينين، على أربع، أسفل الدرجات، منزلقاً أكثر منه هارباً. لقد ضُبط وهو يسرق قطعة خبز ملفوفة بقماش كانت في خُرج حصان.

استطاعوا اللحاق به، وشرع الشحاذ يحلف، محاولا في يأسٍ، تفادي الضرب: «لتنشقّ الأرض وتبتلعني، هنا، إن كنت حاولت أن أسرق شيئاً...» كان يحاول في الوقت نفسه مسح لطخة حمراء شوّهت أنفه، تماماً تحت العين.

شحاذٌ آخر غير مكترث بكل الهرج والمرج، كان يقول وهو يحكّ قدمه المتقرحة: «إلهي، في الأقل، ضع الرحمة في قلوب هؤلاء الناس ليساعدوا أخاهم الإنسان. وأعنّي، يا إلهي، كي أجمع عشرين سنتاً أسدِّد بها خياطة سترتي».

قال الفلاّح، وهو يرفع صرّة اللحم إلى رأسه: «يا رجل، أنت لا تعرف. أنت لا تعرف ما تسأله. سل الله أن يمنحك قوة الشعور بالانتقام، الشعور بالكره والازدراء لهؤلاء الناس. صلِّ حتى يمنحك الله الجرأة على الخطف... هذا هو الذي ينفعك ما دمت حياً... أجل، صلِّ حتى يمنحك الله قوة الانتقام من أعدائك ـ أن تمسح المهانة بدمك...».

كان صاحب قطعة الخبز يتصارع مع اللص، محاولاً انتزاع الحقيقة بوضع عيدانٍ صغيرة بين أصابعه، ولَفِّ حزامٍ حول أطرافها، وضغطها بقوة على بعضها. وحين لم يُجْدِ ذلك لوى ذراع الشحاذ خلف ظهره بشدّة. لكن الشحّاذ لم يلنْ، فاتفقت الجماعة أخيراً على تسليمه إلى آبو ليقضي بما يشاء. ويبدو أن الشحاذ فقد رشده بعد ما ناله من ضرب، لذا ظل يحملق في من حوله صارخاً بمجرد إطلاقه: «لا تقتلوني، أيها الأخوة! ارحموني بحق المسيح. أنا لم أفعل شيئاً... بإمكانه أن يذهب ويفحص سرجه إن أراد! فقط اتركوني، وسامحوني، وصلّوا لراحة نفسي. سأحجّ من كنيسة إلى كنيسة إن أردتم، أو أظل مختبئاً في غابةٍ طوال حياتي...». ترك الواعظ رش الماء على الرجل المريض، وجاء إلى الجماعة كي يصلح ما بينها. كثيرون رفعوا قبعاتهم له، وقبّلوا الصليب الفضة الذي يحمله. آنذاك نقل بصره بين الناس، يميناً وشمالاً، وعدّل من هيئته، وقطّبَ وجهه، كأنه رجلٌ اعتُديَ على طَفَفِهِ، ووجّه إلى اللص المزعوم كلمات قاسية. كان يحدق فيه، وعيناه تكادان

تخرجان من محجريهما. توسَّطَ الواعظُ، الجماعةَ، مطمئناً، وشرع يعظهم باسم المسيحية:

«أجل. ما كان يقوله صحيحٌ بطريقة ما. ثمت العديد من الذين تركوا الحياة الدنيا، خوفاً على نفوسهم، واختبأوا في الغابات والكهوف. ثمت العديد ممن هجروا العالم من أجل الأشياء البرية في الطبيعة...».

في الوقت ذاته، كان الفلاح يخبر الرجال في الجماعة أن للواعظ، دوماً، عدة أكداس من الحبوب قدّام كوخه.

«... لا تشته ما لجيرانك ـ لا تحاول أخذ ما ليس لك حقاً، فلو أخذته لما لقيت سوى الويل... وفي يوم الدينونة الرهيب سيعذبك الشياطين أشد عذاب بمذاريهم الحديد، أجل... سيسومونك سوء العذاب...».

٤

الاحتفال التذكاري

فضّل القساوسة أن يكونوا وحدهم، وقد أدخلوا الكوخ منذ زمن، وها هم أولاء يقصفون ويمرحون، منتفخين بكآبتهم المتكلفة، ينوسون بقلانسهم، متلعثمين بأقوالهم المتقطعة، وهم يتحدثون باللغة الأمهرية. حين تراهم وهم يسرفون في الطعام والشراب تحسبهم يريدون أن يخدروا أنفسهم، ويتخلصوا أخيراً من كل ما كان يعذبهم. وبعد مرور وقت طويل، سمح للضيوف الآخرين بدخول الداس ـ الشمامسة، والكتبة، والفلاحين الذين يبدون أكثر يساراً، وعدد من تجار البلدة وموظفيها الحكوميين. حتى وقتذاك، كان عليهم أن ينتظروا، مقرفصين متضايقين على كلا جانبي موائد الخيزران، حتى يأتي أحد القساوسة فيبارك الطعام ودنان الطلا، ويسمح للناس بالأكل والشرب. وما أن انتهت المباركة حتى بدأ الخدم، فوراً، يروحون ويجيئون، حاملين جرةً إثر جرة من الطلا، وقدور «الووت»، وقطعاً ضخمة من اللحم النيء. وفي لمح البصر كانت تستهلك مقادير كبيرة من كل ما يقدّم.

وقبل إخلاء المكان للجماعة التالية، كان الرجال المسنّون يقفون، ملوِّحين بأيديهم، مُظهرين على وجوههم علائم المأساة والفقدان، متحدثين طويلاً عن مناقب المتوفى، ثم يغادرون، وهم يشكرون السيدة ويباركون لها أنها أقامت مثل هذا الاحتفال المجيد في ذكرى زوجها الراحل.

بعد هؤلاء، تأتي الجماعة المكونة من فقراء المنطقة، وبعدها يأتي الخدم وكادحو الأرض. في هذه الأثناء كان «الآغافاري» يبعد المتسولين بسوطه، ويجرّهم إلى الخارج إن حاولوا التسلل إلى داخل الداس. يبدو كما لو أن المتسولين كانوا ينتظرون هذه المناسبة، فما أن رأوا أصحابهم يتعرضون للضرب حتى أطلقوا سيلاً من الشتائم على السيدة والمتوفى، فتحسب أبواب الجحيم قد فُتحت.

داخل الكوخ كان نوع آخر من الهرج، عددٌ من القساوسة زاد فيهم خبال الشرب، فصارت عيونهم تحدِّق من دون أن ترفّ في الجدار المقابل الملطخ أسفله بروث البقر، والمكسوّ أعلاه برقع ملتصقة من الوحل والتراب. آخرون منهم كانوا يهتفون ويصيحون وهم لا يعرفون ما يقولون، أو ما يقوله أصحابهم... كانوا يصيحون وسط ذلك الهمود، الجدران مليئة برائحة السماد، والأرضية الترابية تنزّ بالرطوبة، والدكّات بالعرق والخرق وجلود الخراف والماعز. إلا أن أحداً منهم لم يلحظ ذلك، ولم يحس به ـ كانوا في سكرٍ مطبق تماماً. لكأن الذباب نفسه فهم حال القساوسة، فأخذ يحتشد في المواضع الدبقة من مائدة الخيزران، أو يحطّ على لحى الرجال ووجوههم، وهو يثني أطرافه مرتاحاً الراحة كلها.

ولم يكن هذا الذباب لينزعج إلا إذا هشّ أحد القساوسة بيده، أو عطس، أو صفق بيديه طالباً المزيد من الشراب، آنذاك كان الذباب يطير في سحائب حانقة. وإلا ظل راضياً بما هيّأته له الأقدار.

عدد من الشحاذين الذين عرفوا ما يجري داخل الكوخ، أخذ واحدهم ينخس الآخر بكوعه، ملصقين وجوههم بشقوق الحائط. وحدث أن قسيساً انتبه إلى هذا التطفل، فتملكه الغضب، وحاول أن يطردهم، وهو يسير في كومة من روث البقر، فسقط على جنبه، وتلاشى صوته المهدِد المنذِر تحت سيلٍ من الشتائم واللعنات.

مع هبوط العصر، جمعت كومة كبيرة من فضلات الموائد في سلال واسعة، وأُخرجت إلى الشحاذين. في إحدى الزوايا، تضايق أحد الشحاذين

من الأكل من هذا الطعام الخبيص المليء بالعظام، فأعلن لصديقٍ بجواره أنه ليس جائعاً إطلاقاً.

لكن صديقه كان ابتلع قطعة سمينة من اللحم بسرعة بالغةٍ، فنشبت في حلقه، فشحب شحوب الموتى، وسقط على الأرض وهو يتلوى في التراب، محاولاً محاولةً يائسة التخلص من تلك القطعة العنيدة. حين رآه صاحبه في هذه الحال ضربه على مؤخر عنقه، فاندفعت قطعة اللحم خارجةً من حلقه لتدخل في فم كلب قريب. غمغم الشحاذ «كلب محظوظ!».

كان المجذومان لا يزالان في عراكهما: «سأسلخ جلد أذنيك لأنك أخذت نصيبي!». معظم الشحاذين كانوا ذهبوا إلى الكنيسة، ولم يتبقّ منهم سوى أربعة أو خمسة: كان أحدهم يجمع كِسر الإنجيرا والخبز من ثوبه، ويضعها في راحته، الآخر كان يتفلى ويصطاد البراغيث من طيات قميصه وسراوله، أما الثالث فيبدو أنه لا يستطيع أن يظل واقفاً إلا بصعوبة. سقط، ثم نهض ثقيلاً من القذارة، وغادر المكان مترنحاً ينخع قدميه، أما الباقون فانتظروا فضلات طعام جديدة.

ثم ألقيت سلة من العظام المعرّاة إلى الكلاب التي كان نباحها يملأ المكان. كانت الكلاب تتخامش وتزمجر وهي تتقاتل على الفتات، وتسقط على نصيبها مقضقضة، ناهشة، بوحشية.

خادمة، في وسط هذه الفوضى، كسرت قُلّة الكيراري التي كانت تصبّ منها للفقراء. صعقت لما فعلته، حتى أخذت رجلاها ترتعشان، وغاصت في الوحل بعد أن سقطت على عجيزتها، لقد ظلت تدير رأسها بدون أن تجرؤ على النظر إلى القُلّة الكسيرة.

«من عادة الناس في هذه النواحي أن يرمي أحدهم الطعام أو يريق الشراب على ملابسه». قال الشحاذ المرتدي معطفاً نسوياً، مشيراً إلى بقع الكيراري على ملابسه. شرع أصحابه يهزأون به هامسين، ثم صائحين. كلب الفلاح ظل يعوي طوال هذا الوقت، لكن ما أن ربطه أحدهم، حتى

راح يغطّ في النوم. وقريبةً، كانت بقرة بالغة الضجر متمددة على جنبها في كومة الروث، وهي تجتر وتهز ذيلها.

الناس الذين في الكوخ، كانوا ما يزالون يرمون بكل ما لا يريدونه إلى الساحة، مهيئين للمارة فرصة إمتاع حواسهم بالقمامة: عطن الحشيش الرطب، زنخ الدم المطلول، والعفن، والسماد ـ والذباب يشكل سحائب كثيفة فوق هذا كله. كأن رشاشاً من العرق الهلامي الساخن يزحف عليك. عدد من فتيات الغالا أرعبتهم القذارة الساخنة التي تنصبّ عليهن، فأمسكن بأنوفهنّ، وفركنها ببعر الماعز من أوعيتهن الصغيرة، التي كان أسلافهنّ بوساطتها يستطيعون تمييز فردٍ من قبيلة أخرى في الظلام. بل لقد بصقن، وحككن أقدامهن ببعضها، كمن ينفض عنه بصاق هذا الوجود. أما أهل المدن فبدوا كأن أحداً لا يتوقع منهم أن يتأثروا بمثل هؤلاء الناس أو هذه المشاهد.

عاد الشحاذون يتجمعون، واحداً بعد الآخر. ورأت المضيفة أنها غير قادرة على إطعام القادمين الجدد. أثارت، متعمدة، خلية النحل، فاندفع النحل، يطنّ، على رؤوسهم وأعناقهم، وأخذ يلسعهم، فهرب القوم.

حتى الكلاب اخفت ذيولها، وانطلقت تعوي في كل اتجاه.

٥

ووينيتو

فزتُ لطيران الحجل المفاجىء من أجمة الشجيرات تحت قدميّ. توقفت لأتابع الطير الكبير يرتفع بأجنحته الطنانة، وهو يرتفع وينخفض وراء التلال. أرى مشجَّر الخضرة اليانعة، وأشعة الشمس تنزل من السماء لتجعل الأزهار البيض صفراً، وحيث تحرك الريح القصب ذا الرائحة الساخنة وأزهار الكوسو. أرى النحل يتنقل من عنقود أصفر إلى آخر، وهو يثقل عليها، ويميل بها، مثل قطرات المطر. أرى النحل العامل يطير إلى خلايا العسل ويعود منها. أتلمس الأوراق الطرية للأشجار. استاف أزهار الكوسو والوانزا. أسمع طنين النحل وتغريد الطير على كل شجرة تقريباً... أرى الطائر الأحمر الجميل يحط على غصن وهو يصفر. وسرعان ما أرى انثاه تطير من شجرة قريبة حاملة عود قش في منقارها وتشرع تبني عشها على الغصن. ربما كانا زوجين. ثم أشاهد الفراشة ذات الجناحين كقوس قزح على زهرة بيسانا قريبة. أمسح أجنحتها بأناملي محاولةً الإمساك بها. تطير قبل أن أمسك بها. وأجدني أطاردها. تطير قليلاً وتحط على غصن. وتظل هناك تنهل الماء الذي دفأته الشمس. أكره أن أفزعها ثانيةً فأظل مكتفية بالنظر. إنها لفراشة كبيرة.

أجلس على الجذر ذي العقد في ظل شجرة بيسانا. أرى الجمال في العناقيد الصفر ـ البيض لأزهار الكوسو. أحس بضوع الأرض تحتي ـ تغريد

الطيور، طنين النحل، رائحة براعم الكوسو، هبوب الريح ـ أشعر أن هذا المكان لليقظة. أستقيم وأتنشق الهواء الطاهر في رئتيّ، وأحاول أن أصفر لحناً كما تتلاعب الريح فوقي بالأوراق. وأسير في ممر ضيق يؤدي إلى ظل أجمة. أركعْ، وأحني رأسي اتقاء الأشواك، وأتحرك ببطء تحت الشجيرات، ثم أزحف خارجةً إلى فضاء طلق. واقف كي أمسح الأوساخ من رأسي ويديّ وركبتيّ. ثم، ماذا أرى؟ فتيات الغالا الجميلات ينقلن وعاء حليب من فم إلى فم في ظل شجرة... أحسست بنوع من الجوع والظمأ. أردت أن أضحك معهنّ. أن أشاركهن. أن أشرب من الوعاء معهن... وسرت إلى موضعهن فقط لأراهن يهربن مني كأنيّ شبحٌ من الأشباح. جلست، شقية حيث كن جالسات. يمرُّ بعض الوقت. صوت طائر أبو منجل الهادر أسمعه عن قرب. وفجأة شعرت بحركة بين الأشجار أمامي. حركة شديدة كأن طائر أبو سعن هو المختبىء هناك. أسير، بطيئةً، نحو الشجيرة. أختلس النظر خلالها. وفي منفرَج صغير، أرى رجلاً عريض المنكبين، ضخم اليدين، يحاول أن يوقد ناراً...

القسم الخامس

١

غويتوم

الهرج والمرج على قطعة خبز والواعظ في الكنيسة، مالكة الأرض، والسيدة الصغيرة الفاتنة والشحاذون في الداس والهواء المثقل بموجات سخونة راقصة مدوِّخة، كل هذا جعلني أشتعل، وجعل أنفاسي تضيق. شعرت بحاجة ماسة إلى أن أرش ماءً بارداً على رأسي، فانحدرت، بطيئاً، نحو البحيرة.

عند حافة الماء، كانت تقف فتاة، ووجهها إلى البحيرة. وحين كنت أقترب منها، ظننتها تلك السيدة الصغيرة التي رأيتها في صعودي إلى التلال، وفي الكنيسة، وعند الداس. حييتها من مبعدة، واقتربت بحيث يمكنني التحدث معها. استدارت فوراً، وابتعدت، حتى بدون أن تريني وجهها... كانت ترتدي ثوباً أبيض طويلاً، يضيق على ردفيها... كيف تتجنبني هكذا... وثمت سن ذهبية تلتمع في فمها... ضوع الكوسو والأزهار الأخرى، والهواء الآتي من الماء يحمل معه رائحة خاصة... هذا كله جعلني خافق الجوانح، توّاقاً إلى مغامرة ما ـ أن أتبعها... سواء كانت هذه الشمس محرقة أم غير محرقة... أراها تختفي وراء شجيرة على أحد التلال... أمشي أسرع فأسرع، وأنا أنضح عرقاً وأتنفس بصعوبة، من أجل أن أبلغ ذلك التل، ولا أضيع مرآها...

أنصت إلى الأصوات حولي، لا بأذنيّ، وإنما من خارجي... إنني

رهينها، حتى قبل أن أفهم معناها. . . وإذا بي، بغتة، أسمع صوتاً. أسمع صوتاً هادئاً، مثل النفح الذي يهب فجأة خلل غيضة كثيفة ـ هادئاً، إلا أنه يصدر هجساً حزيناً ـ أهو بكاء؟

اقترب منها، وأجلس بجانبها، وأتركها تبكي قدر ما تشاء، بدون أن أنظر إليها. في السماء، كانت الصقور معلقة، بلا حراك، منشورة الأجنحة، وعيونها ثابتة الانتباه إلى العشب. ضوعٌ كالعنبر يمر مثل الدخان على الجبل كله. كان الهواء مفعماً بتغاريد مختلف الطيور. انبطحت، ووجهي إلى العشب، بجانبها، وشرعت أراقب الجنادب وأداعبها بعود صغير.

وفجأة، وبدون أن أعرف السبب، جلست، واحطت كتفيها بذراعي. استغربت لعدم اعتراضها. وحين كسرت نبتة برقوق صغيرة، أخذت تبكي، حنكها على صدرها، وعيناها خفيضتان. أحسست بتعلقٍ بها شديد. واعتقد أنها غمرتني بكوعها. الشيء التالي هو أنها انفجرت بنوبة دموعٍ جديدة، وأنني عانقتها عناقاً رقيقاً. لم تفعل شيئاً البتة طوال الوقت، سوى أنها رفعت يديها مرةً، لتثبت غطاء رأسها. ثمت ثور يركل الأرض بحوافره وقرونه ركلاً عنيفاً، مرسلاً سيلاً من الأتربة والأحجار في كل اتجاه. والفلاح! كان يجب أنه كان جالساً ثمت، يراقبنا طوال الوقت ـ حتى بدون أي لياقة كي يحوِّل نظره عنا. والجرأة التي كان يبديها ـ محاولاً إخباري بجمالها، بحكِّ أنفه وتضييق عينيه ولَيِّ وجهه إلى ناحية، كأنه يصطاد قطة زبّاد.

انظر إلى الفتاة بجانبي. نظرتها الآن مباشرة، عنيفة، خطيرة، متسائلة: «إذن، أنت الكوسو؟ أنا أحب الكوسو كثيراً. إنه يطهر معدتك من كل أنواع الديدان. . .». اسمعها تقول: «كثير من أشجار الكوسو هنا، وكلها مزهر. . . أنا أيضاً أحب أزهار الكوسو». تضم يديها في حضنها، وتحدِّق في البعيد بنظرة ثابتة. كأن ضوءاً حبيساً يأتلق في مكان ما في عمق عينيها، المعبرتين بصورة مؤلمة عن روحٍ حبيبة. أحسست بأني دائخ بسبب ضربة ما. ولم أكن لأظن أن جسدي قادر على تحمل هياج كهذا. هبّة ريح تدركها، وتلفّ قميصها الرقيق على ركبتيها، وتجعلها ـ كما يبدو ـ تشعر بالبرد.

تستأنف الكلام: «أرأيت رجلاً يُجلد؟».

«يُجلد؟».

«نعم. حين يجلدون رجلاً في ساحة السوق».

«لا. لم أر. لكن أبي رأى الكثير».

«أنا رأيت واحداً».

«أنتِ رأيتِ؟».

«أجل. أبي».

«أبوك، أنا آسف».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أوه. لا داعي للأسف. لقد جُلد لأنه أهان حاكم الإقليم».

«أهان الحاكم، فجُلد؟».

«لا. قالوا إنه أهان الإمبراطور حين أهان الحاكم».

«وأنتِ، رأيت ذلك؟».

«نعم. أمي وأنا وأخي أيضاً».

«أين والداكِ الآن؟».

«أخي قفز في النهر وقتل نفسه... أنا أحب النهر حين يمتلىء ويفيض على الضفاف ـ هدّاراً، يجرف الماشية والأكواخ وأكداس التبن ـ أحبه كثيراً».

«كان عليك، أولاً، ألاّ تذهبي إلى ساحة السوق».

«كانت فكرة أخي».

«وأنتِ وقفتِ وراقبتِ أباك وهو...».

«جردوه تماماً من ثيابه، وبطحوه، ووجهه إلى الأرض... أوه، ما زلت أرى أزيز الجيراف في الهواء، وأسمع صرخة الألم واليأس من أبي، وظهره متقرح مغطى بخطوط بيض وسود، والدم ينزّ ويسيل ويشكل بقعاً، ويقطر على الأرض ـ رأيت ذلك كله».

«وكل ذلك...».

«هل تود أن تراقب الدم يسيل؟».

«لا».

«لم لا؟».

«لا أود إراقة الدم».

«أنا أحب إراقة الدم ـ أحب الأحمر ـ أحب النار الحمراء الكبيرة ـ كأن يحترق الكوخ، ويسقط السقف، ليكون موقداً هائلاً. أحب أيضاً حريق الغابة ـ الحريق الكبير، أحب القمر الأحمر، والقنديل الأحمر، والتربة الحمراء، والفلفل الأحمر، والزهرة الحمراء، والثوب الأحمر، والستارة الحمراء ـ أحب الأحمر، جداً».

ساعدتُها في النهوض، وسرنا، وأنا أنظر إلى الفتاة ثانية. لقد صار وجهها الآن وجهاً ضاحكاً ـ دافئاً، منفرج الشفتين، ولم تعد نظرتها تحمل سؤالاً، سوى تحدٍّ مرحٍ.

«أتحب لون هذه الأكواخ؟ أنا أحبها ـ دائرية مكسوة بالطين والتبن الناعم. أحب، بخاصة، هيئتها الصفراء الرطبة... أحب الدخن أيضاً... حين تفتح المطامير ـ رطباً، عفناً، أصفر...».

«لكن هذا خطر. إن فيه سماً يدعى مونو أوكسيد الكاربون».

«وما شأنه بي؟».

«حسناً، قد يقتلكِ».

«لم يقتلني».

«سيقتلك لو جاءك بكميات كبيرة».

«كيف يجيئني بكميات كبيرة؟».

«لا! لا! إنه ضارٌ بصحتك».

«نحن نجففه قبل أن نطحنه».

«هذه هي العادة».

«يقولون إن الدخن الرطب، سيء».

«أجل».
«لكني لم أسمعهم يقولون إنه يقتل».
«سترين . . . ».
«على أي حال، أنا أحب الدخن رطباً. أحبه عفناً. أحبه أصفر».
«أنا جئت هنا، مع أبي، إنه شيخ مريضٌ جداً».
«أبوك؟ يجب أن تكون محظوظاً».
«لم تخبريني ما حدث لأبيكِ فيما بعد».
«بعد الجلد؟ حسناً. ألقي في السجن ثلاثة أشهر، ثم أطلقوه».
«إذن، هو الآن في صحة جيدةً، ويعمل».
«لا أعرف. إذ لم نره، ولم نسمع به، فيما بعد».
«ربما ذهب إلى التلال».
«من يدري. . . قد يكون في إحدى الغابات، خارجاً على القانون».
«وددت لو ذهب إلى التلال أيضاً».
«من ذهب إلى التلال؟».
«أبي».
«لكن لماذا؟ أبوكَ لم يُجلد».
«إنه يجلدني».
«يجلدك؟ وددت لو أن أبي هنا، ويجلدني».
«أوه. أنت لا تفهمين».
«إذن، دعني أفهم».
«إنه لا يهتم بي. يريد مني فقط أن أخدمه مثل عبد. وأنا لا أريد ذلك. أنا أريد أن أخدمه. أريده أن ينزل عن ظهري».
«إذن، لم لا تتركه، وتمضي في سبيلك؟».
«لا أستطيع. إنه مريض».
«حسناً، بإمكانك أن تتركه بعد شفائه».

«لكنه لن يشفى».

«كيف تعرف؟».

«أعرف، لأنه مصاب بنوع من مرض القلب الذي ليس له شفاء».

«لكن ما زال ممكناً أن يشفيه آبو».

«لا أدري».

«أنا أحب الشمع الذائب. جئت معي إلى آبو بخمس عشرة شمعة، صنعتها بنفسي، إذ غمستُ كومة من الموسلين في قدر شمع ذائب، ثم علقتُ القماش المشبع ليجفّ... أنا أحب عشبة الفريزية ـ أحب الفريزية الصفراء، ألا تحبها؟ أنا أحبها كثيراً».

«أنا لا أعرف حتى سبب قولي هذا كله».

«لماذا؟ لأنك تريد أن تكلمني».

«لكن، لماذا أكلمك بمشكلتي الشخصية؟».

«أنت خائف من أنه قد يموت؟».

«قد يموت؟».

«قد لا تريده يعاني وهو العجوز».

«على أي حال، إنه يحب أموال أمي».

«أنا أحب الأشياء القديمة، الأشياء الصفراء، والأشياء الحمراء، وأنا أحبك».

«أنت، تحبينني؟».

«أنا أحب أباك العجوز. أنا أحب الدخن العتيق... أتعرف أنني لم أبذر شيئاً منذ أن غادر أبي؟ كل حُزَم الدخن التي علقها في سقف بيتنا ما تزال في مكانها ـ مثقلة بالسخام».

«مثقلة بالسخام؟».

«أمي تقول إنها ستكون صالحة للبذار. وإن كانت عفنة فإنها لا تصلح».

«إن أبي عفن».

«أبوك عفن... عفن؟».

يبدو أن العشب المتطاول وأزهار العشب تطبق علينا وتخفينا حتى عن الصقور. نتفٌ بيضٌ من النور تأتلق خلل الغيوم التي تتجمع، والنسيم البارد يدغدغ الوجوه. حاولت أن أطوِّقها، ثانية، بذراعي، راغباً في معانقتها. لكني توقفت. أخذت الدموع تتجمع في عينيها ـ ماءٌ مترامي الأطراف، عاصف ـ غريب ـ غامض ـ اندفعت إلى أمام ـ تعثرت ـ لم أحاول إيقافها... شعرت برهبة جعلت رجليّ ترتعشان ـ مرآة الماء الناقعة تتوهج ناراً ـ أنا أنظر إليها من خلال شقوق القصب والبردي.

واقفاً عند حافة البحيرة.

٢
الفلاّح

قـد كان سمع من زوجته، الأنباء السارة، وإنه ليفكر بها الآن، وهو يوقد ناره. «كم سأكون أنيقاً، وأنا أحمل رمحاً بيد، بينما تتدلى البندقية بحزامٍ من كتفي. . . » ووينيتو التي كانت تختلس النظر إليه من خلال الدغل كانت تفكر «قرص الزبدة الكبير على رأسه، يذوب في الشمس، ويسيل على شعره وعنقه وجبهته، وعلى وجهه كله. إن هذا الفلاح لمغرور. وددت لو ساعدته في إيقاد النار. . . ». سارت نحوه، حذرة، ووضعت إلى جنبه حزمـة العيدان التـي كانت جمعتها في طريقها. استمر في كلامه، وهو يراها تقترب «كم سأكون أنيقاً وأنا أحمل بندقية على كتفي؟ أنا أعنيها. سأكون أنيقاً حقاً».

«إذن، لديك بندقية؟ دعني أوقد لك النار».

انتزع كسرةَ وقيدٍ من جذعٍ يابس، ورتّب الرقائق على قطعة من روث البقر الجاف كان يتصاعد منها الدخان، وبدأ ينفخ حتى تلطخ وجهه بالرمـاد والفحم. شرعت العيدان تسودّ، وتلتوي، وتطقطق، وتطلق دخاناً أسـود، حتى تعالى الشرر من الحطب كله، واندلع في لهب شديد أحمر مفرقع.

«حين تكون البنـدقية معلقـة بكتفـي، سأكون شخصـاً ذا شأن، بحيث يتوجب على نساء المدينـة التفـكير مرتين قبـل أن يجربـن أن يأمرننـي مثـل خادمهن».

«ما غرضك من النار، في هذه الشمس المحرقة؟».

«ربما أردتِ أن أشوي لك الذرة على النار؟».

«ثم إنها ليست بندقية عتيقة. إنها بندقية مؤخرية ـ هكذا وعدَ امرأتي».

«ألم تسمع بالمثل القائل: لا خيار لشحاذ؟».

«بلى، سمعت زوجتي تقوله مراراً».

«إذن، لا تكن لجوجاً في ما تُعطاه بالمجان».

«بندقية مؤخرية، أو فليذهب إلى الشيطان. على رجلكم أن يختار».

«الزبدة تساعد في ترطيب فروة الرأس، وبشرة الوجه، وتمنعها من التقرح في فصل حار كهذا، أليس كذلك؟».

«لو كان عليه شيطانان، لزادت زوجتي ثلاثة، وجعلت الشياطين خمسة، إن اقترحتُ عليها أهون اقتراح».

«الزبدة تسيل على عينيك وستلحق بهما الضرر إن لم تنتبه».

«أوَلستُ أعرف متى اقترح عليها؟ ستقول نعم لكل ما أطلبه».

قالت مبتسمة: «لا أظنك ستكون قاسياً إلى هذا الحد».

«كما أن امرأة ذات سن ذهبية لن تسخر مني». فتح صرّته، وأخرج الجلد السليخ، ومطّه في الشمس، بفتح ثقوب صغيرة حول حافته، وإدخال عيدان مدببة فيها، وغرزها في الأرض.

«إنه يبدو مثل كبشنا، كبش الفداء، أليس كذلك؟».

«نسيت إني حرّاثٌ ـ مستحضر أرواح. تظنين اني لا أعرف شغلي. تعتقدين أن امرأتي وحدها هي القادرة على شفاء رجلكم...».

«لماذا تقول: رجلكم؟ ألا تعرف أنه أبي؟».

«أنت لا تعرفين أن لي صلاتي الصغيرة بالشياطين».

«إنه أبي».

«ثم ألا يعرفون كيف يدفعون حين تقدَّم لهم خدمة جيدة ـ نصف اللحم لي كي آكله، والجلدُ لولدي كي ينام عليه».

«لا تقل لي إنك لقيتهم، وإنهم قاسموك اللحم».

«لماذا يتوجّب عليّ أن ألقاهم؟ نصف الكبش يختفي في معدهم والنصف الثاني يختفي في معدتي ـ أي انني آخذه وآكله».

«كيف لك أن تعرف آكل النصف الآخر ليس وحشاً؟».

«وحش، أو غير وحش. أولئك الذين أكلوا اللحم يجب أن تكون الشياطين فيهم. هذا ما أخبرتني به امرأتي. في الأقل قالت إن هذا ما يقوله كتاب الله».

طرفت عيناه أمام النار، وعطس، ومال، وبين حين وآخر كان يحجب عينيه بيديه، مرتخياً بجانب النار، ثم قال: «تعيش الشياطين في الهواء غالباً، وفي الماء وأكوام الروث. وبعضها يعيش في الحيوان والإنسان».

«وهؤلاء الذين يعيشون في الحيوان يأتون ليشاركوك اللحم».

«أوه، يمكن أن يأتوا من أي مكان» حاول أن يعدل مجلسه قرب النار «ألا تظنين أن بمقدوري الذهاب إلى منزلي الآن كي أرتاح هناك. لم أعد ظلاً على رجلكم كما هو القسيس».

«يبدو أن زوجتك والقسيس على علاقة حميمة».

«ليس إلى حد الحميمية التي تعنينها».

«يا إلهي! إلى أين مضيت؟ لم أكن أعني ذلك، قط».

«ثم ألستُ قادراً على الإمساك به من مؤخرة عنقه وطرده، إن أردتُ؟».

«أرجوك، لا تسيء فهمي. كنت أقول فقط إنهما يتساعدان».

«يتساعدان، إيه ؟وأنا، أصبغ جسمي بالأسود، وأركض حول الكوخ، مؤدياً كل أنواع الرقص، قاذفاً الأحجار، وهذا كله في الليل. . . ثم تقولين إنني لا أساعِد؟».

«تقصد إنك تؤدي دور الشيطان؟».

«لا. لم أقل شيئاً كهذا. أنا فقط أهيىء الجو لهم، ثم يأتون. آنذاك تكلمهم زوجتي».

«أرأيت مرةً واحداً منهم؟».

«لماذا يتعين عليّ أن أراهم؟».

«أهم غير منظورين؟».

«أنتِ لا تريدين أن تكوني امرأةً ـ مستحضرة أرواح؟».

«لا. أنا لا أريد!».

«إذن، لن تهزأ بي امرأة ذات سن ذهبية».

«أنا آسفة لأنك أسأت فهمي».

«تقولين لي إنني لا أساعد امرأتي!».

«لماذا تقوِّلني؟».

«أوَلستُ أؤدي دوري جيداً؟».

«صدقني، لم أقصد التقليل من دورك».

«ألأني بلا قرون ولا ذيل؟».

«يا إلهي، أنت مثلهم، بدون القرون والذيل!».

«قضقضة الأسنان، والشخير، والضراط. . . تظنين اني لا أفعل كل تلك الأشياء. . .».

«لم أظن ذلك».

«تظنين أن عينيّ لا تنفثان ناراً!».

«أرجوك!».

«تظنين اني لا أستطيع أن أمضغك وأمضغك حتى لا يتبقّى منك إلا مسحوق؟».

«أرجوك...».

«أحبك أكثر حين تكونين خائفة ـ أجل، إنك لتملئين الفم». وقف، وحلّ صرته ثانية. تناول بعض «زلزل» اللحم، ووضعه في طرف عصا، ثم أخذ يشويه على الجمر. «أتريدين أن تذوقي من هذا «الزلزل»؟».

«شكراً. أنا أفضل شيئاً من ذرتك، إن سمحت».

«بالتأكيد، يمكنك تناول بعض الذرة». كان أكل بالفعل كثيراً من «الزلزل» قبل أن يستأنف الكلام «عادتي أن آكل الكثير حين أكون غاضباً».

«غاضباً؟ غاضباً مني؟ أرجو ألا أكون تطفلت على شؤونك الخاصة».

«آيي ي ي! كم لذيذ هذا ـ كأني أشرب العسل بالزبدة».

«أنت تستمتع بلحمك؟».

«أنا أستمتع بكل ما أفعله. أستمتع بالعمل، وأستمتع بالأكل».

«أتستمتع أيضاً بالتحرش بالناس؟».

«كثيراً، مع النساء بخاصة».

«لكن هذا ليس رجولة. هذا يعني أنك جبان».

«رجولة؟ ليس رجولة؟ أنا لست ذا رجولة؟».

«أتسمح لي أن آتيك بماءٍ في وعائك. بإمكاني استعماله أنا أيضاً».

«أظن أنكِ تستدعينه» كان وجهه معتماً، حادّ الزوايا، مثل شريحة بطاطا مقلية. كان يطرف بعينيه، مكفهراً. استأنف الكلام: «تستدعينه...».

«ماذا استدعي؟».

«الشيطان الذي بداخلي ـ هذا هو».

«الشيطان الذي في داخلك؟».

«فتاكم ذاك. إنه ذكي وأحمق. أعرف أنه لا يودني. لكن، كان عليه في

الأقل، أن يحاول فيفهم إنني لا أذلُّ نفسي بسبب قطعة خمسة سنتات، ناهيك بورقة خمسة دولارات. . . وامرأتي عارفة بكل أنواع الأمثال والأقوال. . . لو سمحت لها أن تفعل ما تفعله مجاناً، فماذا سيكون مصيري؟ أوسمة ولقباً فقط».

كان الهواء مفعماً بروائح اللحم المشوي، وجلد الكبش الذي تسفعه الشمس، والخشب الرطب المتعفن، والنار التي تنطفىء.

«الزبدة على رأسك ممزوجة بعطر (الأدس) ـ إن لها رائحة ذكية. . .».

«امرأتي الأخرى تحبها».

«لديك امرأة أخرى بجانب زوجتك؟».

«لم لا؟ هذه المرأة لها بقرتان، وهي مستعدة لوضع الزبدة على رأسي».

«كيف حدث أنها تملك أكثر مما تملك أنت؟».

«واي، واي. . . تملك أكثر من ذلك. زوجها كاتب المنطقة. من شباب المدن الذين لديهم العديد من الحكايات على طرف ألسنتهم. لكنه ليس الرجل الذي تريده المرأة. . . مثلي».

«ولو حدث أن أمسك بك متلبساً بالجرم المشهود؟».

«مرات عديدة، التقينا في بيته. إنه يسميني حارسه الشخصي. هو يودني».

«أيعرف بالعلاقة، ويودك؟».

«هو يعرف أني حرّاثٌ ـ مستحضر أرواح».

«وما شأن هذا بزيارتك زوجته؟».

«إنه يخافني».

«وزوجتك؟ أليست مستحضرة ـ أرواح أعظم؟».

«كانت محظية فيتاوراري فقير بمنطقتنا. تركته وتزوجتني».

«لم تركته؟».

«كان يغدو أشد فقراً كل عام».

«وتركته لتتزوجك؟».

«بل إنه ألغى هذا العام، الاحتفال السنوي الذي كان يقيمه، في ذكرى آبو».

«تقصد الفيتاوراري؟».

«أجل. لم يكن بمقدوره».

«وأنت لا تخشى أي منافسة؟».

«لم تعد تهتم به».

«وما دامت عندك الآن، فأنت لا تهتم بمشاعرها».

«أحبها كما أحب امرأة».

«إنك الشيطان بعينه ـ ربما في وقت التغيّر ـ إنك لست إنساناً على الإطلاق».

«زوجتي أيضاً ترى هذا. لكنها تحبني مع ذلك. تقول: أحبك حين يظهر الشيطان الذي بداخلك. أحبك حين تنظر إليّ كأنك تريد أن تلتهمني. لكني لا أحبك غاضباً. هذا يعني، كما تعرفين، أن تقدم لي طعاماً وفيراً. إنها لا تريد ذلك. تحبني فقط حين أريد أن ألتهمها».

«أنت شخص فظّ».

«امرأتي تسميني جلفاً. هي لا تحب معدتي ـ حين آكل الطعام الذي تقدمه لي. لكنها تحبني مع ذلك».

«هي على صواب. إنك جلف حقيقي. ولو اجتمع الأجلاف جميعاً لما قاربوا نصفك».

«هذا الصباح، حين أمسكت بيدك، شعرت بأني أريد أن ألتهمك أنت أيضاً».

«أوهو. . ! أنت تشعر هكذا؟ كأنك تريد أن تلتهمني!».

«ولم أكن جائعاً، بورقة الخمسة دولارات في جيب صدري. كنت راضياً، وأردت شيئاً تكتمل به سعادتي».

«ونلت تلك السعادة؟».

«لا. كنت أمسك يدك فقط».

«أي سعادةٍ أردتَ؟».

«أن أشعر كأني آكل لحم كبش مخصي سمين».

«السعادة التي تنالها حين تأكل اللحم؟».

«من ذلك النوع».

«ما طعم ذلك النوع من السعادة؟».

«حسناً. يشعر المرء بأنه كبير».

«لكنك كبير».

«يشعر المرء بأنه أكبر عشر مرات مما هو عليه».

«لكنك أنت نفسك دائماً، أليس كذلك؟».

«لا. إنني دائماً، أكبر، أمام لحمي. كأني قتلت العديد من الرجال».

«ربما كنت مجنوناً».

«كأني أغدو فيتاوراري فجأةً ـ بأراض وأوسمة».

«أنت، ببساطة، مجنون».

«كأني أغدو رئيس قساوسة آبو».

«لديك خطم بدلاً من الفم».

«كأني أغدو حاكم إقليم كبير ـ وكثير من الناس ينحنون لي، ويأتونني بأكباش مخصية وماعز وعجول وطفيّ و. . . ».

طرفت عيناه لضوء الشمس، وعطس، واختضّ. ثم وضع يده فوق عينيه، وأخذ ينظر من حوله. تثاءب، كأن جوعه اشتدّ ثانية. نسيم باردٌ هبَّ من البحيرة. قزعٌ من الغيوم تخفف من حدة الشمس في السماء الزرقاء.

وصار الجمر وقداً ناعماً تحت الرماد. تثاءب ثانية، وغطى فمه بيديه كلتيهما ـ وهو يحاول، مستميتاً، السيطرة على عذابٍ كان يمسك بخناقه، زوبعةً من الثمل المجنون. جحظت عيناه، ورفع كلتا يديه عن فمه، وبحركة ثقيلة تكوّر في كومة، ثم أحكم بسرعة البرق قبضته، ممسكاً بها من يدها، ومديراً إياها، بخشونةٍ، نحوه، مطبقاً على جسدها الرقيق. . صُعقت، لحظةً، من الرهبة. ثم أحست بشيء يمرق مثل عصا خضراء، ثم بالألم يمزق جسدها، وأطلقت صرخة حادة ـ وهي تصارع ـ وتصرّ على أسنانها بصورة فظيعة، وتشهق ـ وتنتحب. . .

تناول صرته، وبدون أن يلقي عليها حتى نظرة أخرى، ترك عندها جلد الكبش المخصيّ، وانحدر إلى البحيرة، مغمغماً لنفسه: «كم هي ضيّقة! إن الرجل لا يلقى مثل هذه المرأة كثيراً. . .».

لقد اكتملت سعادته.

٣

ووينيتو

الرجال والنساء يثرثرون ويسقسقون، غير بعيدين، والحياة تجري وتضجّ كأن شيئاً لم يكن. ماذا يمكن أن تفعل الآن تلك المرأة مستحضرة الأرواح؟ وماذا حدث لأعمالها السحرية على النار وعلى الماء؟ لم لم تساعدها الأعشاب الثمينة التي تدّعي أنها تجمعها في التخلص من زوجها الجلف هذا؟ ألا يجب عليها الآن أن تولول وتلطم صدرها، لاعنةً يوم ولادتها، وكل حياتها المنكودة مع وحش بشري مثله؟ ولرجل كهذا، تقوم بأعمال المنزل كلها ـ تكسر الحطب، وتأتي بالماء، وتطعم ولده وشهيته التي لا تشبع، وتخيط رقع سرواله ـ لزوج فعل بها هذا الفعل الشائن... وأنا الجالسة هنا، ماذا تراني فاعلةً؟ ودمي ما يزال يقطر. أشعر بالتقيؤ. أود لو أقذف بكل ما فيّ. أود لو أستطيع أن أتقيأ كل الوسخ الذي وضعه فيّ... آه، يا يسوع المسيح! كيف أستطيع السير وهذا الألم ينهش معدتي؟ كيف سأواجه الناس، والعار مرتسم على وجهي؟ أود لو أرمي كل شيء. وهذه النتيلا، ماذا سأقول عنها، وهي الملطخة بالدم؟ أعتقد أني سأخدش مواضع من ساقي ـ أجرح نفسي جرحاً كبيراً، يسيل منه دم غزير. أجل، هذه هي الطريقة الفضلى. لن يشك غويتوم مطلقاً. حتى المرأة مستحضرة الأرواح.

آه، يا يسوع المسيح! ها هوذا يعود ثانية، يسير باتجاهي كأنه لم يفعل شيئاً، محاولاً إظهار ابتسامته الخشبية. ولكم يبدو متباهياً، كأنه فتح العالم

كله. أرجو ألاّ يحاول التحدث معي ثانية... وكيف ينظر إلى جلد الكبش. مبتسماً ومغتبطاً به أيضاً. إنه ينتزع العيدان المدببة من الأرض. وماذا تراه يخلط؟ حليب خاثر وطحين كتان... ربما. إنه يضع هذا الخليط على الجلد وينشره. أي رجل هو. إنه يجعلني أشعر كأنني جلد. إنه يطويه، والصوف في الخارج، ويدوسه. كي يجعله ناعماً مسوّى. أي رجل! لا أعرف حقاً ما أشعر به نحوه. برائحته من الملح والعرق. وتلك الزبدة. لو كان الشيطان هنا لكانت هذه رائحة إبطيه الحريفة. والخوف الذي أدخله فيّ: جعلني أشعر كطير صغير في قبضته... ما الشعور الصحيح الذي يتعيّن علي أن أحسه إزاءه؟ أبغضه، أحتقره، أريد قتله، ربما؟ والطريقة التي يبصق فيها التبغ من فمه في كل مكان!

«إن له جلداً جيداً ـ هذا الكبش المخصيّ».

لا، لا! لن أكلمه. أشعر بالقيء. أظن أن القيء جاء أخيراً...

«سأدوسه لوقت معين، كل صباح، كي يصير ناعماً...».

نعم. إنه يوشك. إنه آتٍ. أشعر بالقيء في حلقي. ربما وجب عليّ أن أحاوله بإصبعي...

«كل صباح، سأدوسه، وأتركه مغطى بعشب نضر. سأضع عليه أحجاراً ثقيلة وأضغطه لئلا يبس».

لقد جاء. قليلاً كل مرة. كأن أمعائي تريد أن تخرج...

«ثم سأنظف الفروة، وأقشر الجلد، لأجعله ناعماً مثل... مثل جسدكِ... وسأقدمه هدية لكِ، مني... أوه، أوه... أنت تتقيئين. دعيني أسندك من الصدر».

«أرجوك...».

«آق... ق... كأني سأتقيأ أيضاً».

«ليس هنا، أرجوك، ولا تسحقني».

«نصف (زلزل) ي، خرج».

«ووي! سائل أصفر ـ صفراء خالصة . . . ».
«فيها بعض الذرة أيضاً».
«دعني وحدي، أرجوك . . . ».
«الآن اشربي شيئاً من الماء، واغسلي فمك».
«اغسل أنت فمك».
«واعطيني النتيلا ـ سأغسلها لك في البحيرة».
«لا . . . سأغسلها بنفسي . . . ».
«فتاكِ ذاك عند البحيرة. أنت لا تريدين أن يراك وأنت ترتدينها؟».
«إنه هناك، أليس كذلك؟».
«كم يبدو ذاك الدم جميلاً على (نتيلا) كِ ـ احمر قانٍ كدم الفرخ ـ أحمر قانٍ».
«كأنك تريد أن تلهتم النتيلا أيضاً . . . ».
«لو كانت لديّ نتيلا، لأعطيتكِ إياها، واحتفظتُ بهذه».
«لمَ تريد الاحتفاظ بها؟ ليس حسناً أن يراها الناس . . . ».
«لا أهتم بالناس. أنا أريدها. أريد النظر إليها ـ حمراء قانية كدم الفرخ».
«حسناً، خذها واغسلها، وعد بأسرع ما تستطيع . . . ».
أي رجل! ما تزال فيه بقية قلب. يتقيأ معي مثلما فعل، ويريد مساعدتي . . . لست أعرف شعوري نحوه . . . لمَ لا أنادي غويتوم واجعل هذا الجلف يعاني عواقب ما فعل؟ لست أدري حقاً. كل ما في الأمر إني لا أستطيع أن أفعلها. إذن، بمَ أحسُّ؟ لا أحس بشيء. أحس بالخواء. أود لو اغتسلت بماء بارد أو غفوت قليلاً كي أتماسك . . .
«لقد نظفت أخيراً. لم يبق عليها أي أثر لدم».
«أخيراً عدتَ».

«قضيت وقتاً في البحث عن (أندود) لأغسل الدم».

«لقد نظفتها جيداً».

«أنا آسفٌ لأني لم أستطع الاحتفاظ بالنتيلا والدم عليها».

«وتحتفظ بها لو قُدِّر لزوجتك أن تراها؟».

«لم أعد أهتم. مستحضرة أرواح أو غير مستحضرة أرواح، لم أعد أهتم... إنها ليست مثلك».

«ماذا تعني إنها ليست مثلي؟».

«أنتِ ضيقة وتملئين الفم».

«أرجوك، لا تتكلم عن ذاك...».

«سنفعلها ثانيةً بعد ثلاثة أيام».

«أنت مجنون...».

«أجل، أنا مجنون بك. أنا متلهف على فعلها في اليوم الثالث».

«إن حاولت الاقتراب، ولمسي ثانية، اقتلعت عينيك بأظافري...».

«لن يؤلمك الأمر كما آلمكِ اليوم».

«لا تجعلني مجنونة!».

«وددت لو أرجعت الأيام الثلاثة إلى الوراء».

«أي وحش بشري أنت... أنت... أنت...».

القسم السادس

١

غويتوم

أبي وحكايته المعادة عن الشاب الذي حكم عليه بالجلد، ووينيتو وسنّها الذهبية اللامعة، والسيدة الصغيرة الجميلة ذات الرداء الأبيض ـ لم أستطع أن أفهم السبب في أنهم يسكنونني طوال النهار. ما معنى ذلك؟ ما معنى أن يسكنوني طوال النهار؟ أردت أن أعرف الكثير عن السيدة الصغيرة. وبما أن ليس لي شيء آخر أفعله في الساعة التالية أو الساعتين، جئت إلى الداس.

كل ما حول الداس كان هادئاً. حتى القساوسة يبدو أنهم ذهبوا. ولم يبق سوى الأزبال المكومة أكداساً ـ تتعفن وتطلق رائحة خانقة.

دخلت الداس.

ما تبقّى من طعام القساوسة والضيوف، تمّ جمعه على موائد خيزران خفيضة القوائم، تحلّقَ أطفال الجوار حولها، ورُكَبُهم عند أحناكهم، وهم ينتظرون انتهاء أحد شمامسة الكنيسة من إلقاء صلاته على الطعام.

«نصلّي لله أن يتقبل طعام الفقراء هذا المقدم باسمه...».

«آمين!».

«نصلي له كي يغفر ذنوب المتوفى».

«آمين!».

«أن يجعل له مكاناً مع إبراهيم وإسحق».

«آمين!».

«نصلّي كي يهب الله زوجة المتوفى القوة والسلوان في حزنها ووحدتها».

«آمين!».

«أن يمنحها بركة الصحة والغنى والسعادة».

«آمين!».

«ولنصلِّ صلاة الرب معاً ـ أبانا الذي في السماوات

ليتمجد اسمك

ليأت ملكوتك...».

سوف تكره الأكل، لو رأيتهم كيف يلتهمون بقايا الطعام.

وسرعان ما تعالى الضجيج في الداس ـ لقد انتهت الوجبة. كان الصغار يجمعون أواني الشرب وموائد الخيزران ليعيدوها إلى مخزن الكنيسة. حمل كل واحد منهم حاجة، وغادر الداس. وحين عادوا فيما بعد، أخذوا يهذّون الداس، ويتصايحون، ويتراكضون كالمخبولين بين الأنقاض.

اقترح أحدهم: «لنلعب لعبة الجنود».

هتف البقية: «نعم، لنلعب لعبة الجنود» وهرعوا، كل إلى بيته.

تسلّح بعضهم بسيوف خشب، وآخرون ببنادق ورماح من القصب، وآخرون تدرّعوا بالبواري، وثمت من حملوا قنابل يدوية من «الإمبوي» والطين. لقد عادوا جميعاً مستعدين مجهزين.

ثم اختير طرف ليكون ضد آخر. وبدأت المعركة. مرةً يهجمون كتلة متراصة، ومرة يغيّرون طريقتهم فيهجمون صفًا، ثم يقفون متواجهين ثانيةً ـ كانوا يصيحون ويلوّحون بأيديهم ويتناوشون ويتضاربون بالرماح، متراجعين إلى القلعة في الفِناء، منزلقين من الأحجار الناتئة على الوحل، إلى الوحل، ثم يخرجون قذرين يرمون الروث والقمامة على مطارديهم، ثم يغيرون

التاكتيك، فيذهب فريق ليختفي في الدغل، ويمضي الآخر باحثاً عن الفريق الأول. . . إنهم يتعاركون ويتعاركون ويتعاركون حتى يدركهم الإعياء وتنقطع أنفاسهم. والآن، الغالب والمغلوب، وكلهم أشعث، قذر، دامٍ، غير مختلف عن أكوام الروث المحيطة، يقومون بدفن الموتى. يسجونهم على محفّات، ويحملونهم في موكب إلى آبو.

عدد من الأولاد يلبس لبوس القساوسة، والبقية، بقية الجيش، مشيِّعون، يولولون، يفركون بأطراف ثيابهم، جباههم ووجوههم فركاً عنيفاً. يتوقفون سبع مرات في الدرب الصاعد، وفي كل توقفٍ يحرقون بخوراً زائفاً على الجثث، أما القساوسة الزائفون فيقرأ كل واحد منهم مزموراً أو مزمورين، حتى تكتمل المزامير المائة والخمسون. ثم تتلى آيات من الكتاب المقدس الزائف في الكنيسة، ويجري دفن الموتى بكل مهابة.

وبعد أن مروا بكل ذلك ـ الوطنية، احترام الموتى، الرفق بأسرى الحرب، النصر للغالب ـ بمقدوري أن أتخيل كيف سيكون الاحتفال الترحيبي في كل بيت: حين يذهبون إلى بيوتهم، مثلما هم، ممرَّغين، قذرين، شُعثاً، سيكون استقبالهم سياطاً، وصفعاتٍ، وركلات. . .

أوسمة وألقاب!

السيدة الصغيرة لم تكن هناك.

١

ووينيتو

أحست بصوت رهيب في أذنيها، رهيبٍ لأنه كان بشرياً، إلا أنه بلا كلمات. تصاعد الصوت فغدا هديراً أصمَّ مسامعها. وارتفع قيء مفاجىء في حلقها ثم انحسر. كأن ردفيها مثقلان بالرصاص. سارت بطيئةً، متوقفة عند الأشجار والشجيرات الباردة في الطريق. لكأنها لمست قرارة اليأس الجاسية. فلا منفذ بعدها. فكرت حيناً، لم لا تستريح هنا، في قرارة المهانة القصوى، وتنهي كل شيء... لكنها مضت قُدماً، والألم الرهيب بين فخذيها. كاحلاها مسلوخان مسفوعان بالطين، وساقاها ترتجفان وتختضّان، ولم يكن ليبدو عليها أنها تعرف إلى أين تسير. بين حين وآخر، كانت تضل طريقها بين القصب والشجيرات الكثيفة. بدأت الشمس تهبط خلف الخط غير المنتظم للأشجار البعيدة، وشحبت السماء. كانت حمرة الغروب واهنةً، وسحائب قرمزية في الأفق. أخذت الأرض والأشجار والأكواخ تعتم ببطء. وارتجف برق لطيفٌ متقطع.

كأنها الشخص الوحيد على الجبل. توقفت بغتةً. بعد أن خفتت الأصوات الوحشية، بعث الصمتُ ارتعادات خوف في جسدها. فكرت بغويتوم. تساءلت عما يمكن أن يقوله لو أخبرته بما أصابها، أو أنه ما يزال يحبها كما كان. حدثت نفسها حالمةً بصوت عال: «أخيراً، صرت مثل أمي». ارتاحت لسماع صوتها. فتحت فمها لتسمعه ثانيةً، لكن لم تخرج منه نأمة.

ولم تعد تهتم بما هي فاعلة. اقتطفت باقة صغيرة من أوراق العشب، ولوتها، ورمتها بعيداً. ومع أن المكان كان يعتم أكثر، إلا أنها جلست ثانية. أخذت تضرب ساقيها بقبضتيها. ضربت العضلات نفسها بكل قوتها. لكنها لم تحس بأن الضرب شديد بما يكفي. تناولت حجراً حاداً من تحت شجيرة. وشرعت تحكّ الموضع ذاته حتى دميت يداها. وبالألم الشديد الذي أحست به في فخذيها ويديها هبط ثقل باهظ على أطرافها. أخذ نبضها يتسارع، وحلقها يتيبس. وتحرقت عيناها، بينما كانت الريح تأتي من خلل الأغصان وتعبث بشعرها وأدنى ثوبها. شعرت كأنها تغور بطيئاً في الأرض المظلمة. عجزت عن السيطرة على نفسها، فانطلقت تبكي.

بعد حين سقطت على الأرض. وكان دفء يتغلغل فيها وينتشر. كأنها تغرق في مكان دافىء، أحمر، مفعم بالارتياح. سمحت لنفسها أن تتمدد على العشب الرطب، وبعد حين تضاءلت دوخَتُها، وعاد تنفسها هادئاً يسيراً. تملكها حزن عميق مقدس. وجلست وقد أمسكت رأسها بين يديها، ثم رأت الصليب الذهب مدلى من عنقها ـ هدية أبيها.

أظلمت السماء. وغطت غيوم خفيفة كل النجوم. وبرد الهواء. نهضت وانحدرت إلى حافة البحيرة. مرهفة السمع لصوت بشري آخر، أعلى من خفق قلبها.

٣

السيدة الصغيرة

ها هوذا الآن يفتح بطن عنزتي المخصية ويستخرج معدتها، أما تابعه فيحملها إلى العشب النظيف، لينفض المحتويات، وينتزع الكرش. لا أستطيع أن أفهم هذا الواعظ. وشعره معقوص مسوّى من جديد. لم كان مترددا هذا التردد في الحديث عن صديقتي والاحتفال التذكاري الذي أقامته؟ لا أفهم. ربما كان عليّ ألا آتي إليه. ألستُ أحطّ من شأني بشكل ما؟ آباء الاعتراف يأتون هم، عادة، إلى بيوتنا بالبلدة، وحين نذهب نحن إلى بيوتهم فيجب أن يكون ثمت غرض خاص ما: حين نكون مهتاجات محتاجات إلى مساعدة عاجلة. ونحن نذهب إما في الصباح الباكر أو المساء. لست أدري، ربما جئت في الوقت غير المناسب. حتى هنا، كان عليه أن يحاول أن يكون كريماً معي. سلوكه لا يليق برجل من رجال الله. والطريقة التي سمع بها اعترافي وقد أولاني ظهره بجانبي. قال: «الآن، أنا مستعد للاعتراف». وكم حاولت أن أخبره بأدب وتواضع. «آه، يا إلهي، أنا آسفة أسفاً عميقاً ومن كل قلبي، لأنني عصيتك. لا أدري كيف دخل الشيطان فيّ. يوم مات زوج صديقتي (أي صديق كان لي! حتى زوجته كانت تغار منا) انزعجت وتأثرت. لم أعرف ماذا أنا فاعلة. ربما تتبعني الشيطان من مكان الجنازة، وأحس بما أحسست به ذلك اليوم. كان يوماً حاراً وأنا أبكي. لم أعرف ماذا أنا فاعلة. أردت شخصاً يواسيني، يكون بجانبي. احتجت إلى شخص بصورة رهيبة...». قاطعني بخشونة لا تليق بقسيس «أرجوك، دعينا لا نطل في التفاهة». كان تابعه يبتسم لي من بعيد، وحسبت أنه يحثني على

الاستمرار. عرفت في الأقل أنه فهم مشكلاتي. بإمكاني أن أراه وأصابعه تلعب على شفتيه، وهو يبتسم لي. تشجعت وسألت الواعظ: «أهي خطيئة مهلكة أم صغيرة؟». وسمعته يقول: «أنت لم تخبريني بعد». بعد كل الأشياء التي كنت أحاول شرحها له قال إني لم أخبره. عرفت أن ليس لي حق في مجادلة واعظ كبير مثله. قلت: «لم أخبرك. هل أخبرتك؟». كنت منزعجة ومغتاظة منه حتى الأعماق، لكن ما زال عليَ أن أمضي في اعترافي. «حسناً، مثلما كنت أقول، كان اليوم حاراً وأنا أبكي. واحتجت إلى شخص بصورة رهيبة. شخص أفضي إليه بما أحسست. أن أطلق العنان لنفسي وأبكي على كتفيه وصدره. كان صعباً عليَ، كل شيء. المناحة، طقوس الجنازة، الطريقة التي يعول بها أقارب صديقتي. لم أستطع التحمل. بكيت طوال النهار. ولم تستجب لي الدموع. لكن لم يكن ثمت مزيد دمع. كم وددت أن أفقأ فلفلة حمراء وأضعها في عينيَ. حتى حين فكرت بلعابي وأردت أن أضع منه في عيني وجدته جف على وجهي فوراً حين وضعته. أردت شخصاً بجانبي، شخصاً أثق به...».

«الحقائق الملموسة، رجاء».

تظاهرت بأني لم أسمعه واستمررت «أظن أن الشيطان كان فيّ. كنت جد خائفة وخاوية ووحيدة بحيث احتجت شخصاً ما. شخصاً يعانقني... يحميني... أردت أن أخون فراشي».

«تخونين فراشكِ؟».

«نعم، أمرٌ فظيع، لكني أردته على أي حال».

«متى قلت إنك أحسستِ بذلك؟».

«يوم مات زوج صديقتي ـ بعد الجنازة».

«أردتِ أن يضاجعكِ أحدٌ قبل أن تذوي عينا صديقك وتذبل يداه؟».

«أحسست بذلك في المقبرة».

«لم تستطيعي قمع مشاعرك؟».

«لم أستطع. أردت شخصاً يأخذني في ذراعيه».

«ونلت ذلك الشخص؟».

«لا».

«إذن، ماذا فعلتِ؟».

«سيطرت على نفسي نهاراً. وفي الليل أردت مفارقة الناعين والعودة إلى بيتي».

«لماذا أردت العودة إلى بيتك؟ أليس هذا تحدياً للعرف المقبول ألاّ تواسي صديقتك، ليلةً واحدة في الأقل، وهي في حزنها الكبير؟».

«إنه تحدٍ، لكني أردت أن أدعو شخصاً أعرفه».

«شخصاً ذا علاقة غير سليمة بك؟».

«لا. نحن لم نمض إلى هذا الحد».

«هل تغلبت على الغواية، في النهاية؟».

«حاولت جاهدة، فلم أستطع».

«وذهبت إلى بيتك؟».

«لا. لم أستطع».

«حمداً لله. إن ملاكك الحارس ما يزال بجانبك».

«إذن، هي ليست خطيئة مهلكة؟».

«إنها لخطيئة مهلكة بدون ذلك».

«ماذا عليّ أن أفعل، يا إلهي؟».

«القساوسة في هذه النواحي، كما تعرفين، قومٌ فقراء. وغداً ذكرى آبو. وسوف يقضون الليل كله في الكنيسة. بعضهم يتلو الكتاب. بعضهم يحرق البخور. بعضهم يغني ويطبِّل. بعضهم يصلي صامتاً وهو يتأمل الكتب الدينية ـ وهم جميعاً نذروا حياتهم لخدمة آبو. هم بحاجة إلى عونك».

قلت: «سأفكر بما أفعل».

«قال: «لديك في مزرعتك، هنا، عنزات سمان مخصية».

قلت له: «لكن الخراف أسمن».

قال: «الخروف حيوان مقدس. حتى سيدنا يسوع يسمّى خروف العالم.

إني أرأف قلباً من أن أذبح خروفاً».

أدركُ الآن لماذا أراد أن آتيه بعنز لا بخروف. كل الكلام عن يسوع المسيح كان هراءً. إنه يعرف بالتأكيد ما يعرف. أي حزٍّ فعله من الذيل إلى العرقوب. وكيف أخرج القائمتين الخلفيتين من الفتحة ـ الجلد كله انسلخ في قطعة واحدة. إنه الآن يقطع القائمتين الأماميتين عند الركبتين. رجلٌ شاطر ـ الأرجل الثلاث مربوطة، وخط واحد من الذيل إلى العرقوب مخيّط. وبالرأس مقطوعاً، والرقبة تدخل ـ هو يعدّ الجلد ليكون وعاء حبوب.

«أتحبين أن تذوقي بضع قطع من الكرش؟».

«لا. شكراً. أنا لا آكل عادة لحم الكرش نيئاً».

كان تابعه يتوقع مني أن آكل الكرش النيء بمجرد تنظيفه ومسحه على العشب. إنه لم يكلف نفسه حتى غسله. من يظنني؟ فلاحة من الريف؟. وهذا الواعظ بكل تكبّره! حقاً، لقد أذنبت حين مات صديقي قبل سنة. لكني صنت عفتي مذ ذاك. وأنا غير سعيدة بما أنا فيه. أنا لا أرغب حتى في الزواج. لدي مال كثير وأرض. لدي منزل أعيش فيه، ومنازل أخرى أؤجرها. لماذا أريد رجلاً؟ أي واعظ! لا شك في أنه يبدو شخصاً دنيوياً بالرغم من شعره المعقوص وملابسه. كما أنه يعرف ما يفعل. لكن كان عليه أن يحضر الاحتفال التذكاري ما دام كبير الوعّاظ هنا. ومتفادياً أسئلتي عن صديقتي، أظن أنه كان عليّ أن أعترف لقسيس آخر. ما كان ينبغي أن يكون هو...

إنه يأتيني مجففا يديه بسرواله «أنا أتساءل عن سبب مجيئك لرؤيتي، فأنا جد مشغول، وليس لديّ وقت للكلام معك».

«ظننت أن لديك وقتاً كي تطهرني بالماء المقدس».

آه، يا إلهي، ماذا قلتُ؟ إني آتي لشيء وأقول سواه. لم لا أسأله عن سبب تفاديه أسئلتي بصدد صديقتي؟

«أتريدين أن أتلو كل الكتب المقدسة على الماء، أم المزامير فقط؟».

«هل ثمت من فرق؟».

«نعم. فرق كبير».

«إذن، أنت تعرف أفضل».

«ربما فضلت رش الماء على رأسك، بدلاً من الاغتسال به؟».

«أنا أفضل الاغتسال».

الاغتسال؟ ماذا أقول؟ في هذا الماء البارد؟ يجب أن أكون مجنونة حتى أقول هذا. يجب أن يكون الشيطان هو الذي يقوّلني.

«هذا يعني أن عليّ أن أستعمل الصليب كلما سكبت ماء عليك».

«تعني انك تغمس الصليب في الماء كل مرة؟».

«لا. أقصد أني أمسك الصليب بشمالي على جسمك، وأصب إناء الماء عبره بيميني. بإمكان تلميذي أن يقوم بالأمر إن أردت. سيكون أرخص، بالطبع...».

«إن لم أكن أضايقك...».

«حسناً، سأتولى الأمر بنفسي».

لا أدري لماذا أقول هذا كله. لمَ لم أستطع أن أخبره بسبب مجيئي؟ لمَ يتعيّن عليّ أن أغتسل بالماء المقدس مع التلاوات وكل شيء؟ ألم أدفع ثمن خطاياي بعنزي المخصية؟ وكيف أطيق أن يلمس الصليب جسدي؟ والشمس تغرب، والمساء البارد يقترب.

أصدر توجيهاته إلى تابعه: «أنت هيىء اللحم للقساوسة حتى انتهي من السيدة. انتظر دقيقة. تأكد قبل ذلك من وجود ماء كاف في البيت، وجهزه لي في طست».

لم لا أؤجل الأمر حتى الصباح؟ البرد يشتد الآن. أعتقد أن عليّ أن أخبره، قبل دخولي بيته، بأنني قد غيرت رأيي... أوه، يا إلهي...

«الأفضل أن ندخل ونبدأ. لا أريد أن أتأخر على صلاة العشاء في الكنيسة».

اتبعه... اتبعه... أنا لا أقول شيئاً. أرجو من الله أن يكون في البيت ماء كاف. وإلا صعد الشاب إلى البحيرة لإحضاره. قد يتأخر. آنذاك سأقترح أن نفعلها صباحاً. نعم، هذا أفضل. أعرف أنني لا أتحمل الماء البارد... ولا لمسة الصليب على جسدي...

«لديكم ماء كافٍ هناك؟».

كان الشاب دخل في الغرفة المجاورة. لم يجب بعد. أرجو ألا يكون هناك... يأتي بطست ماء كبير «تستطيعين أن تري بنفسك. ولو احتجنا أكثر ذهبت وأتيت بمزيد».

«أظن أن بإمكاننا فعلها بما لدينا. اذهب أنت إلى شغلك الآخر».

لا منجاة... ماذا أفعل؟ يا إلهي، انقذني من هذا الماء البارد... خلِّصني من صليبك... أنا واهنةٌ رقيقة. لا أتحمل الماء البارد.

«اجلسي أنت هنا حتى أكمل تلاوتي».

وأجلس هنا بدون أن أفعل شيئاً. أنا أجلس فقط. جاحظة العينين. لا أقول السبب الذي جئت من أجله. أنتظر الماء البارد والصليب الفضة. سيجعلني أرتعش...

ملمسه.

٤

غويتوم

تعود إليك الذكريات على قمة هذا الجبل ـ الغيوم البيض أقامت على الجبل البعيد وفي الوديان العميقة، الشريط الرهيف يغلف الجبل من أسفله إلى قمته، ويرتفع نحو السماء في مزق ضبابٍ بيض ـ متعة حقاً أن ترى كل ممرات هذا الوادي وتلاله. كأنك في جزيرة وسط بحر من الغيوم. وهنا في القنة يصفو الهواء الخفيف. بإمكانك أن ترى عبر بحر الغيوم البيض السائرة كل الطريق إلى أديس. قنن التلال المظلمة تنجم مثل جزر صغيرة. والريح فوقك مليئة ببيارق ضباب ترتفع من الزهر البري والشجر والدغل. وأنت تتنشقه برئتيك. منصتاً إلى تغريد الطيور وهبوب الريح. منصتاً إلى الحجاج مغمغمين...

كم هو جميلٌ أن تمضي حياتك وأنت تراقب الحياة البرية للنحل والطير والحيوان حولك. تراقب الأرض الوعرة، والأزهار البرية، وجروف الصخر، والهواء والسماوات. وقت مديد للعيش والتفكر. كم جميل أن تترعرع في هذا العالم الطيب. تزرع قمحك وذرتك وكرنبك. تزرع اليقطين من كل صنف ـ يقطين طويل الرقبة صغير الجسم، يقطين كبير مستدير مثل أسفل قدر فخارية، يقطين، ويقطين ـ أبيض. أصفر. أخضر. بني... إنها لجنّةٌ أن تحيا هنا ـ تطارد النحل البري على الشجر، تطارد الأوابد، تزرع بستانك بكل أصناف الكرنب. تعيش كالناسك. تعيش حياة حرة كالريح.

وكل زهرة وعشبة وشجرة على هذا الجبل في متناولك. بإمكانك أن تتطبب بالبرعم واللحاء والجذر. ستجد علاجاً لكل شيء، حتى للجهل. لو فقط استطعت معرفة الخلطات الصحيحة...

من المؤسي أنك غير قادر على قيادة سيارات فوق هذه التلال. هنا لا تجد حتى طرقاً ممهدة. فقط دروب البقر، دروب الماعز، دروب الأرانب، والنياسم. لست أعرف حقاً متى سنشقّ طرقاً حقيقية ـ عند الوديان العميقة، وحول التلال المسوّرة بالصخر، وفوق الجبال.

آه، لو عرف الجميع ما لدينا، وما ليس لدينا!.

فقط لو أعدنا النظر في حياتنا بدل الإيمان بها. لو فقط استطعنا تعليم هؤلاء الفلاحين الخنوعين التقاة. لو كان بمقدوري أن أقول الحقيقة كلها لهم... لكن من سيسمع أو يفهم؟ تكلم عن الحياة الاجتماعية في بلادك لتطرد من المدرسة. تحدث عن ظروف عملك البائسة لتطرد من الشغل. تحدث عن مظالم معينة من الحكومة ليلقى بك في السجن. تحدث فقط ليهجرك الأصدقاء. أجل، أنا لم أفلح حتى في جعل أبي يفهمني. أنا سيد مهذب. لكني غريب الأطوار... أنا شاب. شاب متعلم... أوه، نعم، تعلمت في الأقل أن أبصق في منديل. أن أستعمل الشوكة والسكين. أن أعقد ربطتي وألبس حذائي. رجل متعلم ـ غريب بأي مَقاس... والمفترض فيّ أن أنقذ اثيوبيا...

ممن أنقذها؟ من نفسي، كما أظن؟ بصلوات الناعين؟ بالابتذال والسكر، بمسرات الجسد، بالاستسلام والخنوع، وبالجهل... أجل، سوف أنقذ اثيوبيا. لا، ليس بعملي، لا بالفخر بما لديّ، لا بكرامتي باعتباري كائناً بشرياً، لا بأن أغدو صلباً قوياً، لا ببناء قوة بغية بناء اثيوبيا. لا. هذه ليست لي. إنها لأولئك الذين يجوبون الظلمات وراء الغد... دعني أكتفي بالجلوس هنا، أعقد ربطتي، وأستعمل شوكتي وسكيني، وأتمخّط في منديل...

أجل أنا أغرب الغرباء. . . أمام القذارة أغلق أنفي بأصابعي. أمام الظلم احتفظُ بسلامتي. ما الذي يهمني إن كان هؤلاء الناس يعيشون في أكواخ أقل مما تقتضيه زرائب الحيوانات. الحيوانات أهم في هذه البلاد من البشر. لقد بدأنا في الأقل نصدِّر منها. . .

نعم! نعم! أنا أضحي بما في يدي من أجل الصالح العالم الافتراضي. أنا أؤمن باللسان بدلاً من القبضة. وكيف أصيح! يجب أن نبدأ من القاع العملي ونصعد إلى أعلى! لا من القمة النظرية ثم ننزل. التقاليد القديمة يجب أن تحطَّم! وعلينا أن نخلق تقاليد جديدة! يجب أن نختطّ طريقاً كاملاً جديداً لاثيوبيا! علينا أن نؤمن بالروح الإنسانية. علينا ـ علينا ـ علينا! فساد ومتناقضات. توافه!.

كأن على عينيّ غمامتين دوماً، لئلا أرى الجوانب، أو أنظر في المستقبل. كأن السلاح ضد القمع هنا ليس الصبر. كأن الناس لم يرغموا على ألا يعدلوا، كي يظلوا أحياء. . .

أوه، نعم. تعود إليك الذكريات على هذا الجبل ـ مع الشمس التي تهبط في الغرب، وهذا الضوء الغريب بين النهار الساطع والعتمة على الجبل الأبيض، مع أصوات الرعاة يسوقون ماشيتهم إلى المرعى. مع كل الكائنات حولك، تشعر بأنك غريب، مثل شمس تسقط في النسيان. إنك كئيب، عكر المزاج. وكل احاسيسي ضد الفيتاوراري سقطت معها. . . أستطيع أن أتخيله الآن. معتمداً على وسادته الخشب، محدقاً إلى أعلى في السخام. أنا متأكد من أن كل ما يستطيع التفكير به هو مرضه، وربما عمله ـ الخروج كل يوم ليجمع إيجارات بيوته. . .

٥

العشاء

ما يقدمه المؤمنون عادة إلى الأبرشية ـ إنجيرا، بيضاء وسوداء، نوعان من مرق «الووت»، خبز، لحم نيء، وحوالي عشر جرار كبيرة من البيرة ـ كان مجموعاً في بيت الواعظ، وجاهزاً للعشاء. اجتمع القساوسة والكتبة ثانية. وجلسوا إلى المائدة حسب رتبتهم، وبدأوا يأكلون ويشربون على فترات. وحين يشبعون ينظفون أصابعهم بالإنجيرا السوداء. نهضوا، وأخذ الواعظ نيابة عنهم، يمتدح القرويين والسيدة الصغيرة لما قدّموه. تكلم عن السيدة بخاصة ـ عن كرمها، وفضيلتها، وعن الجنة التي ستكون مآبها. بل إنه قرن بينها وبين مريم المجدلية مرة، وشكرها، في الختام، على العنز المخصية التي قدمتها لهم، على الخصوص.

بقية الطعام على مائدة الخيزران، تركت للشمامسة ورجال الكنيسة الأقل شأناً من «الديبتيراس» الذين دخلوا الكوخ مباشرة بعدهم، وجلسوا مثلما لم يجلس أحد من قبل. وعندما انتهوا، مقلدين طرق رؤسائهم، نظفوا أصابعهم بما تبقّى، وشربوا قدحي بيرة أو ثلاثة، ثم غادروا. آنذاك جمعت الفضلات في ثلاث سلال كبيرة، وقدمت إلى الشحاذين.

والحق ان بعض القساوسة لم يكن بمقدورهم الاحتفاظ بما أكلوه وشربوه، وكان عليهم أن ينحنوا مرة أو مرتين على حافة بركة آسنة ـ بركة يبدو أنها تعود إلى الحياة بعد كل تقيؤ. في المواسم الجافة كان ماؤها يستعمل

أحياناً للشرب.

لم يحظ الشحاذون إلا بالقليل من الأكل والشرب. ومع هذا فإن ما ظفروا به، مهما كان شأنه، قد تلي عليه اسم الله، لذا كانوا مرتاحين، وأمضوا وقتاً بالغ المرح. ومرات عديدة، خرج أحدهم عن طريقه ليسند صدر آخر بدا عاجزاً عن الانحناء على حافة البركة.

مع هذا فإن القساوسة أبلوا بلاء حسناً، بالرغم من كمية الطعام والشراب الهائلة التي استهلكوها.

ثم دار حديث عن الغداء السنوي الذي كان سيقيمه غداً الفيتاوراري الفقير الآن. هذا الغداء الذي ألغي فجأة، مما دفع بالأصوات أن تتعالى بالذم، والدعاء إلى أن يعاقبهم «التابوت» جميعاً. بعد هذا مضوا إلى الكنيسة، وشرعوا يصلون ويغنون ويرقصون الرقصات المقدسة.

القسم السابع

١

غويتوم

توقف الانهمار القصير للمطر. وحلّت من جديد، برودة الليل. وامتزج ضوع اشجار الكوسو والوانزا التي جففتها حرارة النهار، بالطراوة الحادة للأرض الرطبة حول الضفاف المستنقعية للبحيرة. صار ظل الليل أعمق فأعمق فوق الجبال، والهواء أبرد فأبرد، وجعل المغيبُ، المنحدرات، ناعمة الملامح، وصغرت الأشجار والصخور واندمجت في العتمة. والضوء الباهت للهلال صار نصف دائرة شاحبة وسط الزرقة المعتمة للسماء ذات النجوم. والأشجار المهيبة المنتصبة على الأفق إزاء التلال بدت أشد ارتفاعاً وكثافة. وشرع الضوء يشع من النيران الموقدة في كل مكان. ولغز المساء - نقيق الضفادع، وأزيز اليراعات، وطنين وصفير الحشرات الأخرى - بدأ يضج وينبض بالحياة. وبين حين وآخر تهب ريح عبر التلال وتبلغ حافة البحيرة، مثيرة النيران في رشاش من الشرر، ومرسلةً دفقاً من النور إلى الناس المتحلقين حولها. ثم يتبعها نسيم خفيف يوهن ويؤجج الجمر، ملقياً نوراً قليلاً متماوجاً على الوجوه - المتلاشية حيناً، والواضحة المشعة حيناً آخر، مثل أملٍ لم يتحقق. الماء كله ساكن. لا نأمة تعكر صمت الشاطىء. وحديث المؤمنين المتخافت تحت ظل الغسق صار صوتاً واحداً مثل طنين النحل - كل كلمة فيه بدت منقطعة، لكن في كل صوت كهذا كان شيء لطيف، حزين، ناعم مثل صلاة.

على مبعدة مائة ياردة من مكاني، نُصبت خيمتان. إحداهما لتاجر غني، والأخرى لمالكة أرض الفلاح التي قيل لي انها كانت زوجة وزير. أما الباقون منا فقد خيموا تحت الأشجار.

بدأت، وأنا جالس مع ووينيتو والخدم، أوقد ناراً بقطعة من عصا متفحمة. شرارات ذهب أخذت تتطاير، لتنضم إلى الذباب الصغير الذي كان يطير جيئة وذهاباً فوق اللهب. إنها تتلوى وتفرقع وتتحول إلى كتل سواد. بين الفينة والأخرى كان اللهب يكشف خدمنا، متثائبين، منطرحين، وعيونهم النعسى ترمش. وبين الفينة والأخرى يرمقون ووينيتو المتمددة إلى جانبي، وجهها إلى أعلى، ويداها منعقدتان خلف رأسها. إنها تحدق صامتة في السمت، حيث كانت تشع نجوم قليلة، وكان القمر شرع ينسج مشهداً ناعماً مائعاً. وأبعد قليلاً، قرب الألق الذهبي للنار، كانت البنت المريضة التي رأيتها عند البحيرة، تلعب بالطين. رأتني وأنا أنظر إليها، فضحكت قليلاً، ووقفت، وضحكت ثانية، وجاءت نحوي وهي تلعب بكتل من الطين وتغني:

إنها تمطر
غزيراً
والطين
يا لبهجة
أن نطلي الحائط
بهذا التراب
الناعم الرطب.
إنها تمطر
غزيراً
والحمار
لا يقدر أن يتحرك.
المكاري يضربه
يضرب الحيوان المسكين

وبطيئاً
بطيئاً
شلواً
شلواً
يسقط أرضاً ـ
لو رأيته.

حين انتهت، بدت تنتظر الثناء، فانطلقت عاصفة تصفيق من النيران المجاورة. صاح أحد الرجال بأعلى صوته، فتجاوب معه الآخرون طويلاً بعد انتهاء الأغنية. أما الفتاة فظلت تضحك، كأنها تختنق بالضحك. وفجأة، وبدون توقعٍ، شرعت تبكي، بهدوء في بادىء الأمر، ثم تعالى نحيبها في نشيج هستيري مرتعب. حين تنظر إلى دموعها تسيل من عينيها الجامدتين، تظنها مسكونة، وفي الوقت نفسه تحس برغبة شديدة في مساعدتها. أنت ترى في عنفوانهاالفتيّ وجهاً نعسان قليلاً، نوعاً من اللامبالاة المسحورة. لقد رأيت فيها نفسي، كأني كنت أعرفها طيلة حياتي.

بابل الأصوات التي استثارتها أغنية الفتاة، ظلت ذات غماغم في كل مكان. مزاح أحدهم أثار ضحكاً. وكل بضع لحظات يُسمع صوت يقول: «نعم، أنا أستمتع بالنساء... أستمتع بالشراب»، وحين تسمعهم يتحدثون هكذا تحسبهم سعداء. إنهم وقد هشمهم السعي وراء الخبز وأنهكهم، كانوا يتحدثون مومئين مرحين، بوقاحة تعبير غير مبالية، وشيطنةٍ، وتباهٍ بمختلف مواهبهم. كان أحدهم يروي حكاية ابن عمه: «وأي عارٍ لم يتحمله كي يأكل خبز الحاكم؟ حتى جاءت زوجته لتنقذه ذات مساء...».

سأله آخر: «كيف حدث ذلك؟».

«قالت له إنها تفضل أن تأخذ عصاها بيدها وتتسول على أن تستسلم لرغبة الحاكم».

«تقصد أن الحاكم أرغم زوجة خادمه على النوم معه؟».

«نعم. أقصد هذا بالضبط».

«يجب أن يكون أحمق لأنه لم ينصح زوجته بتلبية رغبة الحاكم».

«ماذا؟».

«أجل! حتى رجال ذوو منزلة عالية يرسلون زوجاتهم وأولادهم إلى رؤسائهم».

«أنت مجنون حين تتكلم هكذا».

«لمَ تقول ذلك؟ أليس عندنا هنا في أثيوبيا قبائل يؤثرونك بواحدة من زوجاتهم حين تحلّ عليهم ضيفاً؟».

«أنا أقصد رجلاً له زوجة واحدة، لا عدة زوجات».

«في الحق، أنا لا أرى فرقاً ـ واحدة أو عدّة».

قاطعهما آخر: «أتعرفون ماذا تفعل بعض الجاليات الأجنبية في مدننا لإرضاء الموظفين الكبار؟».

«لست أعرف. أنت أخبرنا».

«يرسلون أولادهم وزوجاتهم إلى الموظفين».

«أولادهم وزوجاتهم؟».

«نعم ويشيرون عليهم بأن يغتسلن جيداً حين يرجعن».

«وماذا يكسبون من هذا كله؟».

«حسناً. سمعت أن بعضهم لم يدفع ضريبة الدولة لعشرين عاماً أو ثلاثين».

«أنت تتحدث بأمور مرعبة».

«مرعبة أو غير مرعبة. أنا أحدثك بما يجري».

تدخل شخص ناعم الصوت، يبدو أنه لا يريد أن يسمع عن الجاليات الأجنبية: «هلاّ سمعنا عن ابن عم السيد؟».

«أجل. قل لنا ماذا حصل بعد أن جاءت السيدة بالخبر؟».

«حسناً. غادر المكان في الليلة ذاتها، وصار قاطع طريق».

«كم شخصاً قلتَ إنه قتل حتى الآن؟».

«تسعة رجال! كما إنه سرق معظم الخراف والماعز المخصية من القرى المحيطة».

«ولم يقبضوا عليه، مرةً؟».

«أوه. قبضوا عليه مرتين. لكن لحسن حظه تمكن من الإفلات من مركز الشرطة في المرتين. يقال إن جبريل هو ملاكه الحارس».

«أنا معجب بجسارته».

إنه يقول: «سأظل أصفي حسابي مع الحاكم».

قال ذو الصوت الناعم: «لكني أشفق على مثل هذا الرجل».

«سيقتلك إن سمعك تقول هذا. تشفق! إن من اتيحت لهم فرصة معرفته فخورون به. إنهم يغبطونه. تشفق!».

استمر ذو الصوت الناعم: «ألم يفقد كنوز الذل المقدس، والإيمان المتواضع، والرقة والحب؟».

«هذه الكنوز للجبناء، لا للشجعان الحقيقيين. إنها صفات الموتى لا صفات الأحياء».

«يقول الكتاب، لا تلق بلآلئك أمام خنزير. لهذا السبب أنت لا تتفق معي».

«انتبه أيها العجوز. لست من النمط الذي يناكَد هكذا».

«لقد امسكت بك الحياة بطعم جذاب من السم المغلف بالعسل».

«أرجوك!».

«وأنت يتآكلك عذاب اليأس».

«لم يعد شخصي يستطيع أن يتحمل إهانات كهذه، بعد».

«شخصك؟ لا تجعلني أضحك».

«لا تدقّ أسافين في قلبي».

«لتظل روحك مختبئة تحت كومة أسمالك. سترى عاقبة أمرك».

«لا تفتح جهنم أمامي».

«يجب ألا تخجل من أطمارك الخارجية ويديك الوسختين. بل عليك أن تخجل مما في داخلك».

«لا تُعمني بالبرق».

«بلغ بك الحقد مبلغه حتى استمررت تتكلم عن قتل المساكين أو التشهير بجاليات أجنبية لا تعرف عنها سوى الشائعات الوضيعة».

«لا تُعمني بالبرق!».

«أنت وابن عمك وبعض هؤلاء الناس الذين يبدون مستمتعين بحكايتك، هم جميعاً قومٌ يرثى لهم».

«يرثى لهم!».

نهض وضرب العجوز على الرأس. أما الرجل العجوز، فقد رفع كتفيه، وأمسك رأسه بيديه لحظة، ثم سقط على وجهه. «هكذا عاقبة أمرك!».

قال أحد المعجبين: «كان عليه أن يعلم أن في عروقك دماً».

«كان عليه، أليس كذلك؟».

وقف منفرج الساقين، لحظة، على الرجل الذي سقط، ورأى أنه ما يزال مغشياً عليه، فعاد إلى مجلسه.

كان الليل يشتد ظلاماً، والريح تهب شديدة حيناً، ويهبط من السماء ضباب ناعم بارد ـ وأرهف الرجل الذي سقط أذنيه «لم أكن أتوقع، قط، أن تكون كابن عمك».

«إذن، توقَّعْها، منذ الآن».

عاشق النساء والشراب تحدث ثانية: «بأيديهن وأقدامهن صبيغة بالحنّاء، وأجفانهن بالكحل... إن نساءنا جميلات حقاً، هذه الأيام. مرة كان لي جارٌ اشتهيت زوجته. وفي أحد الأيام، حين كان في العمل، دخلت بيته مرتدياً جلد نمر وحاملاً رمحاً بيدي اليمنى، وأنا أزأر وأهدر مثل دب بري...». قال ابن عم القاتل: «رجاء، نحن لا نريد أن نسمع عن شجاعتك الوهمية. لقد رأينا الكثير من المدّعين ـ الضاربين انفسهم بالنار، المتظاهرين بقطع أكتافهم بالسيوف، وكل ذلك الهراء. اليوم نحن بحاجة إلى رجال حقيقيين ـ رجال مثل ابن عمي».

الرجل الذي بدأ يتكلم ثانية: «أيتعين على المرء أن يقتل رجلاً ويأخذ قضيبه غنيمة، كي يقبله الناس باعتباره رجلاً شجاعاً؟».

«مدّ ذراعيه ووتّر عضلاتهما ليراهما الجميع «إن لم يكن ذلك، فإن عليه في الأقل، أن ينتقم من أعدائه، لا أن يلقي المواعظ التافهة مثلك، حتى لو كنت وراء النساء، مثل الرجل الذي هناك، فإن عليك أن تذهب فتأخذ جرار الماء من على ظهورهن، وتنتزع ملابسهن، وتضاجعهن حين تلقاهن عند الغدير ـ في الأقل، أنا أعرف أن هذا هو ما يفهمنه».

«كل فكرة كالعجين. تستحق أن تعجن جيداً».

«العجين! هذا العمل لك ولأمثالك ـ لاعقي البصاق ـ لا للرجال الحقيقيين».

«ستسرّ حين تراني أغضب وأفقد السيطرة على أعصابي، أليس كذلك؟ إنه مصدر تسلية لك».

«نعم. أريد أن أعرف إن كان يرتدي سراويلك رجلٌ».

«عليّ، حسب رأيك، أن أقاتل لأثبت رجولتي. وحين ترى العدالة اقتصّت مني، فإنك ترغب في أن أخرج وأسلب الغرباء، مثل ابن عمك، حتى أحطّ من سمعة الحاكم».

«عرفتَ ما أريد. لكني لا أظنك قادراً على تطبيقه. إنك لهش ضعيف مثل امرأة».

«ألست ترى أن الأيام التي يتعين فيها على الرجال أن يفعلوا ما تقول؛ قد مضت؟».

«لا. إنها لم تمض. بل إنها في متناول اليد».

«هل لي أن أسألك ماذا تفعل هنا عند آبو، إن كنت من ذلك النمط الذي تدعو إليه؟».

«لي مرادي عند آبو. الحياة مبادلة. لو ساعدني سريعاً فيما أريد أتيت له بثور».

«فإن لم يفعل؟».

«حسناً. ليس لدي ما أعطيه. بل ربما اضطررت إلى تبديله بقديسٍ حامٍ آخر ـ القديس جبريل مثلاً. سمعت أنه يساعد الناس الذين يؤمنون إيماني ويعتقدون معتقدي».

«أرجو من الله ألا تكون خططك أحلام يوم مطير».

«ليكن رجاؤك لنفسك. ثم ليس من شأنك أن تعرف ما يخبئه لي المستقبل».

«أنت تعرف جيداً أن العشب يتوقف نماؤه إن سقطت عليه صخرة،

وبدأت الديدان تتكاثر تحت الصخرة».

«أجل، أنا أعرف حين تسقط صخرة، مثلك، على العشب».

أناس عجيبون. ظلوا يتحدثون هكذا طوال الليل. لم يفكروا حتى بالنوم. حين كنت أسمعهم أدركتني كآبة ـ إحساس بعدم الاستقرار ـ وفي الوقت نفسه شعرت بطاقة وحب شديد للبقاء. تمددت بجانب ووينيتو، وظللت أنشق الضوع الراتنجي للحطب.

كان القمر المنتصف غاب وراء الأفق الداني للجبال السود، مرئياً من ناحية اليمين، مرسلاً نوراً مرتعشاً شاحباً على القمم، في تضاد حاد مع الظلمة الثخينة التي تلفّ أسفل الجبال. بين حين وآخر، كان ضوء نارنا يبرز ملامح وجه ووينيتو. في إحدى المرات أيقظها حلمٌ مزعج، وحين اطمأنت نظرت إليّ عابسةً، ثم انقلبت على جنبها، وغطت في نومها، ثانية. وهبت ريح مديدة، رطبة، باردة.

وأنا أخذت أنعس وسط الأصوات الكثيفة النابضة حولي.

٢

السيدات

عند الخيام، كانت مجموعة من أهل المدن ـ رجال أعمال مهذبون ذوو زوجات لطيفات، وأجلاف مكتنزو الرقاب منتفخو البطون ذوو لحم مترهل وخدود منتفخة، ونساء شوارع خلفية ماهرات. كانوا ينفضون كعوبهم، جالسين، أو متمددين على ظهورهم حول نيرانهم، يثملون ويثرثرون.

السيدة الصغيرة، بخاصة، كانت تستمتع بوقتها. إذ بدأت مع مالكة الأرض الأغتياب المعتاد لصديقاتهما ـ وهو نشاط يساعد في تنمية ذكائهما، وقوة ملاحظتهما، ويجعلهما تشعران بأنهما أرفع ممن حولهن: أولئك اللواتي يصغين بانبهار إلى حديثهن، ناخسةً إحداهن الأخرى حين يثيرهنّ أمر.

السيدة الجميلة كانت تقول: «هذه هي مشكلة الرجال المتعلمين».

«لقد خرج من المستنقع ليختلط بالأمراء والجنرالات».

«قلت حقاً».

«وسرعان ما نسي أنه تسلق سلم النجاح بسبب زوجته ـ ابنة عمتي».

«وماذا فعلت أخيراً حين رفض طلبك؟».

«هاتفتُ رئيسه، وأخبرته الخبر، طبعاً».

«وأنا متأكدة أنك نجحت في إطلاق رجلك من السجن».

«أتتصورين؟ قالوا إنه قتل منافساً له في التجارة».

«منافساً؟».

«وكيف كذب الشهودّ. . . ».

«ماذا قالوا؟».

«شهدوا ضده قائلين إنهم رأوا صديقي يطلق خمس رصاصات في معدة المتوفى».

«وكانت كذبة؟».

«أنت لا تظنينها صحيحة؟».

«سمعت عدة روايات عن الحادثة بحيث لم أعرف أي واحدة منها أصدّق».

«ثلاثة منهم يقضون محكوميتهم في السجن لعامين».

«لتزوير الحقيقة؟».

«صحيح. واثنان هربا إلى الريف، وما يزال البحث عنهما جارياً».

«لكن، قولي الحق، أليس صحيحاً أن صديقك قتل الرجل؟».

«ربما قتله، لكن ليس بخمس رصاصات».

«منذ متى عرفت صاحبك؟ يبدو إنه رجل قاسٍ».

«قاسٍ؟ لا. إنه ليس قاسياً. إنه مثل أي رجل حين تُهدد مصالحه».

«أنت تحبينه، إذن، حتى تقومي له بكل هذا».

«لو منحته فقط ولداً أو بنتاً. . . ».

«لم لا تتزوجينه؟».

«أترينني أهرم، يا عزيزتي؟ أنا أحياناً أتساءل حقاً، لمَ لا يعرض عليّ؟».

«قد يخافك».

«لماذا؟ ألأن زوجي الراحل كان وزيراً؟».

«ربما كان من أسرة متواضعة».

«لكن، ألم أساعد زوجي في أن يكون من كان؟ أنت تعلمين أنه هو أيضاً من أصل متواضع».

«نعم، أنا أعرف».

«لو فقط تقبّل آبو نذري ومنحنا ولداً».

«الجو يبرد...».

كانت النجوم تضاءلت. والسماء الداكنة شحبت خلف دثار من الغيوم الناعمة الوثيرة. وتصاعد ضباب داكن من الأرض. وانطفأت النار تدريجاً حتى لم تعد سوى بصيص لا يكاد يسمح برؤية ظلال الصخور القريبة، بينما المكان المحيط يتألق بوميض اليراعات.

الليل المطهر بالهواء البارد، يهدد الأذن النعسى.

«بودي أن أعرف ماذا يحس هؤلاء الفلاحون جاحظو العيون وهم يراقبوننا وينصتون إلينا هكذا» قالت السيدة الكبيرة ووجهها المكتنز يشع بالرضا، وشفتاها تتمطقان للمخلوقات التعيسة.

«أشك في أنهم يحسون بشيء، سوى الجوع والعطش، طبعاً».

«أتعتقدين أنهم يعرفون ما يفتقدونه في الحياة؟».

«لا. لا أظن ذلك... ربما لهذا السبب يراقبوننا هكذا ـ مستغربين من كل الأشياء التي يستطيعون العيش بدونها».

«مخلوقات عاجزة...» أعلنتها السيدة الكبيرة، وهي تنهض لتدخل خيمتها، وسارت باتجاههم في خط مستقيم كأنهم ليسوا في طريقها. السيدة الصغيرة جعلت بينها وبينهم مسافةً، وامتطت بغلاً جيء به إليها، ومضت إلى سكنها. أما الخدم الذين اطبقوا شفاههم متذللين فقد تبعوا سيدتهم.

ومتّع الفقراء أنظارهم بهما.

٣

المرأة مستحضرة الأرواح

أسل يكاد يخلو من أي أريج، وعشب طري، وصعتر بريّ ونعناع، منثورة كانت على الأرضية خلال النهار. والبراغيث المختبئة في السيقان الخاوية كانت تخرج الآن في وحدات تكتيكية. دلة قهوة، وموقد فحم نقال، كانا إلى يسار المرأة مستحضرة الأرواح. وإلى يمينها اثنا عشر كوباً في صينية خشب. عند الباب، وفي موضعين آخرين يحترق البخور موضوعاً على فحم متّقد فوق كسر فخّار. وخليط من الذرة المشوية والقمح والفاصولياء منثورة داخل الباب وخارجها، للجني ساكن البيت والمستنقع. وثمت جلد أفعى بيثون معلق في الخارج من أعلى الباب. بعد منتصف الليل بوقت طويل، كانت مستحضرة الأرواح الجالسة على كرسي عال بلا ظهر ولا ذراعين، قرب الفيتاوراري، كانت في قمة تأملها. كانت تنصت مرتعبة إلى الأصوات التي تأتي بها مخيلتها المفعمة بالقات، وتحضرها وراء الجدران، وكانت تتحدث بصوت أجوف بعيد.

كان القسيس يترجم للفيتاوراري «من لا نسميهم يطاردونها ويرعبونها»

تساءل الفيتاوراري «أتظن الشياطين ستفي بوعدها وتحضر اليوم؟».

«لا تسمِّهم شياطين، رجاء، فإنهم سيستاؤون... إن اسمهم من لا يُسَمَّون».

«يستاؤون؟».

«أتمنى ألاّ يحقدوا. وتمسَّكْ جيداً بالغصن الذي تعطيك إياه، ولا تنظر إلى أعلى، قط، حين يحضرون... ولا تضحك إطلاقاً إن حدث أن سمعت ما يبدو صوتاً غير طبيعي ـ أقصد حتى لو سمعتهم يضرطون أثناء الرقص».

«المفروض بالغصن أن يحفظني من غضبهم؟».

«أجل. أمسكْ به جيداً».

تسلل نسيم الليل البارد من خلال الباب المفتوح، ومعه أرج العشب الندي، وأزهار الكوسو، ورائحة الروث من الساحة. والمرأة مستحضرة الأرواح وقد تبدل تصرفها أكثر من اللازم، ظلت تدعو الشياطين بأسمائها المختلفة. علّق الفيتاوراري وهو يتلع عنقه ويعرك اذنيه محاولاً تمييز كل شيء كان يجري حوله: «أحس بذلك الشعور الذي يحس به المرء في حالة الخطر، وقد قصف الرعد شجرة قريبة».

أخذ سيل من الأحجار والأوحال يطقطق على الكوخ من خارجه، وبدا كأنه لن ينقطع. والمرأة مستحضرة الأرواح تزأر وتئن مثل حيوان متوحش، وتجلد نفسها بهراوة مزينة بحلقات نحاس، كأنها لن تفيق أبداً من حالة النوام. جو غريب، ثقيل الوطأة، خيَم على الكوخ مثل غيمة غير مرئية. مرة، بعد مرة، كانت اندفاعات من شعور هائج تمسك بها. حاولت أن تطلق ضحكة مثل ثغاء عنز، إلى أن تمتمت أخيراً، غائمة العينين، شعثاء الشعر: «إنك تعاني من نبض مؤلم في القلب»، ثم سقطت عن الكرسي.

استأنف القسيس الكلام «هذه الليلة، لم يستجب لها الذين لا يُسَمَّون».

«ما السبب؟ أتراهم استاؤوا مثلما قلتَ؟».

«قد يكون هذا السبب. ولربما لم يقدم لهم كل ما يستلزم حضورهم... لست أدري، ربما احتاجوا خروفاً أسود صغيراً، أو شيئاً».

«وماذا ترانا فاعلين بصددها؟».

«أوه، ستفيق في الوقت اللازم».

«أمرٌ غريب جداً».

«عشية ذكرى آبو، يطير الذين لا يسمّون بعيداً في الجبال، ويصعب المجيء بهم إلى هنا».

«تعني أنهم يخافون آبو؟».

«أجل، ما دام اسم الله وملائكته يتردد في قلوب الحجيج، وفي الهواء، فإن عليهم أن يبتعدوا قدر إمكانهم».

«آمل أن نأتي بهم غداً».

«كأني أسمع قنابل وطلقات تئز وتنفجر في الهواء».

«ما الذي هو مثل القنابل والطلقات؟».

«اسم الله وملائكته».

خارج الكوخ، كان الفلاح الصبيغ كله بالأسود، والمغطي عورته فقط بأوراق البيسانا، مختبئاً متسللاً في الدغل.

في الريف البعيد، وهج حريق ـ في موضعٍ انتشر اللهب هادئاً في السماء، وفي موضع آخر بعد أن واجه شجرة مشتعلة، انفجر في دوّامة، وانطلق هسيسه عالياً نحو النجوم ذاتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم الثامن

١

اليقظة

غويتوم

كانت السماء شرعت تغدو باردة رمادية. إنه مطلع الفجر حين ينغَّمُ الصمتُ الشاملُ الروح في حساسية خاصة، حين تبدو النجوم معلقة قريبة بصورة غريبة من الأرض، وحين الهواء يتنفس بارداً، والرجال يتكورون وينامون نوماً أعمق.

من قمة الجبل تأتي أصوات ناقوس الكنيسة، صافية واضحة متميزة كأنها مغسولة بطراوة اللحظة: في البداية أصوات منفردة، ثم تتسارع وتطفو وتظل في الهواء فترة، وبعد لحظة صمت تأتي السلسلة الأخيرة من النغمات المرتجفة، ضربة بعد أخرى، مترددة الأصداء في الفجر القرمزي مثل آهة حزينة مديدة.

استيقظ الحجيج، متنادين، متصايحين، مخوضين في الوحل، وربما سقط أحدهم، وهم يتجهون إلى البحيرة.

أخذ الضباب الرمادي البارد ينقشع بطيئاً. وصار بالإمكان رؤية المشهد الطبيعي تحت السماء الرمادية البيضاء حيث النجوم الشاحبة الكابية لا تكاد تبين. الألق الأحمر للفجر أخذ يلتمع في الشرق. وصار الأفق أوضح وأشد زرقة. ومن وادي «آواش» جنوباً هب نسيم بارد، وارتفع ضباب ذو وميض،

كالبخار، على اليابسة والماء. وشرعت الأوراق تتحرك بنعومة. نسيم صباح واهن مرّ عابراً على الأرض ـ من أجمة إلى أجمة، ومن غيضة إلى غيضة. وعلى الشجيرات المنحنية وهي مثقلة بالندى، وعلى وعاء الماء الضخم الذي يشع تحت ضبابه المنحسر، كان النهار الطالع يلقي أشعته القرمزية، ويكسب ببطء، فيضاً من نور طري متألق. نأمة، يقظة، تنفّسٌ مفعم بالفرح والأمل ـ الطبيعة الحية كلها تنفجر صوتاً وأغنيةً ـ الجنادب، الصرّار، وآلاف الحشرات الأخرى تملأ الجو بأصواتهاالحادّة التي لا تنقطع.

أشرطة نور واهن بدأت تبلغ السماء. نتفٌ حمراء من الغيم تنزلق على حافة البحيرة. خفق غرابٌ عبر وجه الشمس المتوردة المتقدة. خفَّ برد الليل، وتغلغل دفء لطيف في الغابة والتلال والأكواخ. لقد بدأ النهار. كل رجل وامرأة، قبل أن ينحني ليبلغ ماء البحيرة، يقتلع قبضة عشب ويلقيها في الماء، ثم يغسل يديه ووجهه، ويتجه إلى الكنيسة.

أفئدتنا مفعمة بالروائح الطرية الحرّيفة، وبرد الصباح اللذيذ، والضباب يغمر كل الأراضي الخفيضة وأغلب الجبال البعيدة، وأغاني القساوسة العالية ـ مزيج من النحيب، والضحك، وصرخة الرهبة، التي ترنّ كالأنين، وهي تحاول مستميتة أن تنطلق في نغم. هكذا دخلنا ساحة الكنيسة.

جاء زعيم المقاطعة بعدنا على بغله الذي يخبّ. رِكابٌ من جلد الثور. مِذْيلةٌ وحزام سرج من جلد الثور. لجامٌ وعِذارٌ من مصرانٍ ملويّة، قماش السرج الأحمر يخفق في الريح. وزينة البغل ترنّ بمعلّقاتِ معدنٍ وجلاجل. فتًى كان يخبّ هو الآخر إلى يمين بغل السيد، وعلى كتفه بندقية في غلاف حرير لامعٍ. رجلٌ ثانٍ يخبّ أمام بغل السيد وهو يصيح: «افسحوا الطريق! افسحوا الطريق!». ترجل السيد في ساحة الكنيسة، وسرعان ما ألقى غطاء أحمر على البغل، من أذنيه حتى الحافر، ليحميه من العين الشريرة. تتبعت السيد ببصري. وبغله أيضاً. نظر إلينا جميعاً، لحظةً، كأننا ذرات غبار في الساحة. سرواله العريض ممتد إلى تحت الركبة، تماماً حيث يضيق، وقد لُفَّ حول خصره بسيرٍ أو حزام. وفوق سرواله قميصٌ فضفاض أيضاً، وثمت

دمقس مطرز فوق ذلك كله. وفوق الدمقس لفاع من الفرو. وكان يعتمر قبعة من القش والحشيش، ويحمل في يده ذيل حصان أبيض ذا مقبضٍ خشب.

ولم لا أفعل أنا؟ اقتربت من جدار الكنيسة كما فعل. ومثله بدأت أصلّي. كان زعيم مقاطعة يملك أرضه الخصب. بجداول جارية، ومَراعٍ طويلة العشب تنتثر فيها شجيرات مزهرة، وقطعان من الماشية ذات القرون، ومن الخيل والبغال. جحيمه الخاص: ذرة المرتفعات، والسفوح، والوديان، والجروف ومَلْويات الصخر. صليت كما صلّى. كان معه كاتبه. ومع كاتبه حقيبة من جلد غير مدبوغ فيها القلم والمداد. كوخه. حتى دارته الخاصة في البلدات. رحلة نصف يوم على البغل تأخذه إلى هضبة باردة تعصف بها الريح. رحلة نصف يوم إلى ريف حار، ذي حرارة شبه استوائية. رحلة نصف يوم إلى مناخ لطيف. في راحتيه مناخ استوائي، وشبه استوائي، وبارد. صليت. صليت متهجداً. ربما كان لديه أربع محظيات أو خمسٍ، وبضع نساء مشبوهات. لم يعد حلس بيوت «الطج» والحشيشة. البار. الفنادق الكبرى. قصور الجنّ، الصالونات حيث يلتقي أصدقاءه. رجل محظوظ، ولد إبّان معركة «عدوة»، أو خلال إحدى المجاعات، أو انحباسات المطر. وأنا ولدت في أيار ١٩٥٠. إنه رجل محظوظ. رجل خدم وطنه في إحدى محاكم الشارع في تلك الأيام الطيبة. القاضي يصدر حكمه فوراً. الدائن والمدين يقيدان معاً بالسلاسل. حتى لا يهرب المدين. حتى يمنع الدائن من ممارسات شيلوك. الأيام الماضية الطيبة. لا تُفكّ السلسلة حتى يدفع الدين. يظل الاثنان مغلولين شهوراً ـ يأكلان وينامان، ويقومان بكل الروتين سويةً.

الأيام الماضية الطيبة. حارب في إحدى تلك المعارك الكبرى. الطلقات تطير في الهواء من ماسورة بندقيته إلى أجساد الأعداء. طلقات الأعداء تظل معلّقة في الهواء. القديس جرجيس والقديس آبو يحومان على رأسه ويحميانه من الهلاك. الأيام الماضية الطيبة. ليس عليه أن يحمل مؤونته إلى المعركة. ذهب هو ومرافقوه إلى كوخ فلاح قريب وأخذوا ما

يشاؤون. حتى لو حدث أن أعجبتهم زوجته. الأيام الماضية الطيبة. دروعه الفضة ما تزال لديه في حجرة نومه. وكذلك سيوفه ذات زخارف الذهب والفضة. مسدساته وبنادقه المتنوعة أصنافاً. بنادق تلقيم، بنادق مؤخرية. موزر. منيشر. آلبن. وطبنجات.

صليت. صليت بحرارة. صليت متهجداً. سناجيب الحجر والشجر تصعد وتهبط على سطح الكنيسة. واليمام يجثم في الغيضة. والخراف والماعز المنذورة تثغو في ركن.

جرى القداس كالمعتاد. بدأ الشماس يقرأ الإنجيل بصوت عال. وحين انتهى شرع الناقوس يقرع لـ «كيري ياليسون»، و«كريدو» و«ترسانكتوس» و «آجنوس داي» ولبركة القربان المقدس. أخذ الحجاج يجثمون في مداخل الكنيسة. ينظرون إلى داخلها نظرة غامضة هادئة. تلهفت على دخول الكنيسة. لكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب التزاحم والتدافع. وقفت عند الكنيسة وبدأت اصلي. بين حين وآخر كان ضوء الشموع اللعينة يكشف وجهاً قبيحاً أو حادّ الملامح. بين حين وآخر كان أحدهم يشعل شمعة بعود ثقاب. كل جزء من الكنيسة مهما ضؤل ودقّ كان مغموراً بضوء يعشي البصر. كنيسة فقيرة. ليس فيها تلك الشمعدانات المتدلية من السقف، ولا السجاد الثخين الذي تغوص فيه حتى الكاحل، مثلما هو الأمر في كاتدرائية الثالوث بأديس. شموع جديدة أوقدت ثانية، واحدة عند القارىء، والأخرى عند المذبح. بعضهم ألقى شيئاً من البخور في المبخرة. والأغاني الدينية. إحداها موقّعة ذات إرنانٍ وصوتٍ صافٍ، وبعضها يقرع مع الجوقة. والصوت نفسه يجهد مستميتاً للانطلاق في نغمٍ يبعُدُ وينتشر.

حُمل الفيتاوراري إلى ساحة الكنيسة في محفته، تتبعه المرأة مستحضرة الأرواح. رسم علامة الصليب بمجرد ما وضع عند جدار الكنيسة. جاءته ووينيتو برماد بخور جديد من المبخرة. وضع شيئاً منه على وجهه ورقبته وصدره. انفتح جفناه واسعين، أما حاجباه المقوسان فكانا يعبران عن الانزواء والدهشة. رفَّ وجهه قليلاً. وخرج من حلقه نوع غريب من

الحشرجة. ثم طلب أن يؤخذ إلى داخل الكنيسة للقربان المقدس.

بعد ذلك، أعيد إلى مكانه عند الجدار. كان وجهه متوتراً. كان يبدو كمن يريد أن يقول شيئاً هاماً. ويجب أن يكون عجزه عن القول قد سبّب له عذاباً لا يمكن التعبير عنه. أما زعيم المقاطعة فكأنه لم يرد أن يشهد المزيد. فغادر إلى موضع آخر من الساحة. ثم رأيت شخصاً ينحني على الفيتاوراري. وسرت إليها. كانت كتفاها ذات استدارة لطيفة. وكان نهداها متلعين إلى أعلى. وحين رفعت رأسها لتراني سقطت أول أشعة الشمس المتسللة من شقوق أوراق الشجر على وجهها. يجب أنها كانت تناضل لتحبس دموعها. رأيت الفيتاوراري أيضاً ينظر في هاتين العينين. اتخذ وجهه سمةً أبوية. تبدو الفتاة كأنها خائفة من النظرة. فتاة غريبة. كيف غنت لنا عند البحيرة أغنيتها عن الطين والحمار! لا شك في أن لها قلباً كبيراً، كبيراً.

أغمض الفيتاوراري عينيه. وذهبت الفتاة إلى مكان آخر.

ثم جاءت ووينيتو إلى جانبه، وحلت محل الفتاة محدّقةً في وجهه كما فعلت الفتاة. والفيتاوراري وضع أنامله على عينيه محاولاً فتحهما. كان ينظر إلى ووينيتو نظرة غائمة. ينظر إليها. والشيء التالي الذي رأيته هو أن الفيتاوراري أومأ إلى ووينيتو كي تأتي إليه، ثم عانقها. ولقد ظننت أني رأيت حتى دموعاً في عينيه. ينبغي أنه أدرك أخيراً أنها كانت ابنته. بكل الضوع الذي يفعم الهواء، الضوع الآتي من الساحة، ضوع النيران الخامدة، ضوع الغابة الرطبة، ضوع خشب الكنيسة المتعفن. ربما حرّك هذا، المياه الساكنة في روحه. ربما جعل صوراً تتصاعد من أعماق لم يكن ليدركها من قبل. ربما دفعه إلى تغيير وصيته. أنا أيضاً أحسست بشيء وأنا أنظر إليه. اقتربت. أطلق ووينيتو، واستعاد وجهه ملامحه الصارمة الجدية المألوفة. ثم أدار وجهه ناحية جدار الكنيسة، وتأوه عميقاً، وارتجف قليلاً، وتمدد، وصدره يرتفع وينخفض بصورة مؤلمة، وحاول أن يرقد هادئاً. ظل ينظر إلى الباب بعينين واسعتين. أمرت المرأة مستحضرة الأرواح بإعادته إلى الكوخ. وافق. ورافقته ووينيتو.

٢

الفلاح والإفرنجي

غويتوم

طاف الفلاح حول الكنيسة، يفرك يديه مبتهجاً، ويبتسم. أخبر الحجيج أن باستطاعة زوجته أداء الأعمال السحرية على النار وعلى الماء، وجمع الأعشاب الشافية. بل إنه أخرج بعض السوسن لمن يريد أن يشتري، وهو سوسنٌ قال إنه من بين الأعشاب التي تعطّف تنين البحيرة عليه، بشأنها، فسمح له بأن يقتطفها من حول عرينه. اقتربت منه امرأة مسنّة، وسألته، دامعة العينين، إن كان لديه شيء ينفع للروماتزم المصابة به. كان يوشك أن يقدم لها سوسنة، لولا أنها غيرت رأيها فجأة، واتجهت نحو باب الكنيسة. وما أن بلغت الباب حتى تمددت وأخذت تصلي للقديسين جميعاً، وللأرواح، ومجترحي المعجزات، مسميةً إياهم بأسمائهم ـ آبا جوبا، أربيتو أنسيسا (الحيوانات الأربعة)، هيسانوكيركوس (كيركوس الطفل)، الأقل شهرة بين الشهداء المقدسين. ثم صرخت «يا ام الله، العذراء المقدسة، مريم الطاهرة!»، غرزت أصابعها في زاوية من الشمّا» التي ترتديها، وغمغمت صلاة خافتة، ووضعت على وجهها ونهديها شيئاً من رماد البخور، وأخذت تحني ركبتها مرات عديدة احتراماً وخشوعاً. رجلٌ قذر الأسمال، مثقل بما جمعه من طعام، كان مائلاً برأسه على صدره، وهو واقف بباب الكنيسة، متشبثاً بنفسه، مرتجفاً من الخوف، كأنه مصاب بشلل الرعدة. فيما بعد،

رأيت المرأة تدخل الكنيسة، وتخرج منها ملتفّة بـ «الشمّا»، غضيضة البصر، والقربان المقدس بداخلها.

تحت الأشجار داخل الساحة، جلس شيوخ وعجائز يصلّون. عند إحدى الأشجار كان رجل يتأوه ويدمدم، ويداه معقودتان على ركبتيه، ورأسه هابط على صدره، ووجهه متوتر كأن شيئاً يخنقه.

خارج السياج، وعلى منبسط من العشب، كان الراقصون يدبكون في حلقة، هاتفين بالأناشيد الدينية. وفي لازمةٍ، كانت الحلقة تتفرق، والراقصون يستديرون، ويواجهون بعضهم، مثنى مثنى، ويدورون دوراناً عنيفاً، ثم تنطلق كلمات الجوقة عاليةً، وتعاد الرقصة. المنجذبون يرقصون وحدهم، يلفّون، ويتمايلون، أو يقومون بحركات دقيقة بأقدامهم وخصورهم. يبدو أن الفلاح كان ناجحاً. إذ ظل يطوف وهو يتمتم لنفسه أدعية طويلة ضد العين الشريرة. وأعلن أن لديه جرعة حب أكيدة في مفعولها مثل عشبة الخربق (تستخدم لقتل البراغيث)، وفي مثل سرعة مفعولها. وقال إن له عدة صنائع. إن باستطاعته الكتابة على جلد الماعز و/ أو الخروف وعلى الورق. وإن بمقدوره تعليم الناس العزف على الواشنت والكيرار والبيجينا. وأنه قادر حتى على تعليم الراغبين، رقص الطقوس الذي يؤدى أمام «التابوت». أجنبي كان يراقب الفلاح عن كثب، ويبحث عن مكان صالح لمناكدته، شرع يتكلم بوساطة مترجم عن قيمة ونوعية مهنة السحر. في البداية، استدعى تلميذين من تلاميذه، وقادهما إلى شجرة، وسمّرهما عليها بسحره قبل أن يدركا ما كان يحدث لهما. ثم اختار الفلاح، وأخذه إلى حافة جرف، ثم دفعه إلى أسفل وسط صراخ الحاضرين. خارت ركبتا الفلاح، ورفع ذراعيه إلى أعلى، وتشقلب، وتزحلق أسفل المنحدر، ثم توقّف، متعلقاً بنتوء صخرة. وتصاعدت من الحاضرين الهتافات والإيمان. وعلى الفور أعيد الفلاح سليماً معافى بيننا. تلاشت نظرة الشجاعة التي كانت لديه في البداية، وحلت محلها نظرة غضب مستطير. لطم الإفرنجي على وجهه بكفه، ثم ترنح إلى الخلف حوالي عشر خطوات، وسقط بين الشجيرات. لم أستطع أن أعرف أياً من الاثنين كان حقيقة: اللطمة أم السقطة؟ نهض من

سقطته، ضارباً الأرض بقدميه، مكوّراً قبضتيه، صارخاً بغضب، ومضى باتجاه كوخه.

إلا أن الإفرنجي استمر في عرضه، طاوياً نقود نحاس بين أصابعه كأنها عصي. وتفكر أنت كيف أن الفعل المعجز يوهن عزائم الرجال شأنه شأن الخوف.

مرقت طائرة على ارتفاع بسيط، وهديرها القريب يبلغ الأبعاد. ثم تلاشى الهدير، واختفت الطائرة.

في بلاد الشهور الثلاثة عشر من الشمس المشرقة.

٣

ووينيتو

هابطةً من الكنيسة، أنا أجلس هنا أرعى أبي. أمسح العرق عن وجهه حتى لا يؤذي عينيه أضع إحدى ساقيّ على الأخرى، وأنقل بصري من ركن في الجدار إلى آخر. لقد ذهبت المرأة المريضة. والمفروض أن المكان غير مكتظ بسبب المساحة التي خلت. لكن المكان مكتظ. والحرارة تخنقنا. أحس أني متوترة مثل الهدوء المميت قبل الانفجار.

أبي الآن محموم، رأسه يرتجف بين يديه. وعضلاته كلها متصلبة بالجهد الذي يبذله للتحكم بها. أنا أقف عند الحائط. وهو يلتفت لينظر باتجاهي. لكنه لا يبدو أنه يراني. يفرك عينيه مراراً براحته. يبدو أن غشاوة خيمت على عينيه، فصار كل شيء حوله مشوشاً. وأعتقد أنه يراني والجدران شيئاً واحداً. أذهب إليه وألمس يده. يمسك بها بإحدى يديه، ويغمض عينيه. ثم يطلق يدي ويتمخط مستخدماً أصابعه.

حين أنظر إليه أحس بأنني أعرفه، مثلما أستطيع أن أعرف أي شخص. أشعر بالأمان معه.

اسأله: «أأنت بخير؟».

يقول: «نعم، نعم، أنا بخير».

اسأله إن كان يريد شيئاً؟

يقول: «لا. وشكراً لكِ، ثم يمسك يدي ثانيةً بإرادته.

أقول: «أأنت متأكد من أنك لا تريد شيئاً؟».

يقول: «لا، وشكراً لكِ».

ويطلق يدي. أشعر بأنني أتفتّح له، وأقول «ذلك الفلاح...».

يقول: «هم م م...».
أقول ثانية «ذلك الفلاح...».
يقول: «يظنني أحمق».

أقول لنفسي: من الصعب أن أشرح له الأمر وهو في هذه الحال. بإمكانه أن يكون خطراً إذا أراد. وضبطت نفسي.

يقول ثانية «يظنني أحمق». وأنا لا أقول شيئاً. أنظرُ إليه... أنظر إليه... أسير في العراء، في الشمس العالية لسماء العصر، وأتنفس الهواء النقي بأنفي، وأفتح فمي، منصتة إلى طائر أبو منجل، وأتوقع أن أرى طائر أبو سعن يحلق عبر الجبل.

٤

غويتوم

حوالي الظهر، تقدم القسيس الذي حمل «التابوت» (الظلة المربعة للفلك المقدس ذي الوصايا العشر)، مع القساوسة الآخرين، والكتبة، والشمامسة الذين حملوا أغراض الكنيسة الأخرى، تقدم الموكب وبعدهم مباشرة جاء جمع من الرجال الذين يحمل كل منهم رمحاً بيد، وبندقية قديمة مدلاة من كتفيه بحزام، وبعد هؤلاء جاء الذين لا يحملون سوى أحزمة الرصاص حول خصورهم، وعلى أكتافهم ـ أحزمة رصاص تلتمع بظروف بارود من كل عيار، وأكثرها نحاس فارغ، لكنها ما تزال تقدم مظهراً شجاعاً للرعاع. بعض الأحزمة أضيف إليه حمالة سيف إلى اليمين. ثم جاءت الخيل والبغال المزينة بأغطية سروج ملونة ورماح لامعة وجلاجل رنانة. وبالطبع، جاء في الأخير، الرعاع، الشريحة الرئيسة في القرية. هؤلاء جميعاً انحدروا نحو البحيرة.

حين وصلوا البحيرة، بارك الواعظ الماء، بأن رفع يده فوقه، وبدأ الناس يغتسلون من جديد.

أما الزعماء والسيدات والقساوسة الذين رأوا أن الاغتسال في البحيرة مع الناس العاديين يحطّ من شأنهم، فقد تولى الواعظ رشّهم.

وكالعادة، أديت الرقصات والأغاني المحلية في هذا الاحتفال الكبير. وعند اختتام الاحتفال، حوالي الظهر، استعد أبناء الأبرشية والحجاج للعودة إلى الكنيسة، بالرغم من تردد القساوسة.

القسم التاسع

١

الرؤيا

في منتصف الطريق الصاعدة إلى التلال، حدث أمرٌ للموكب. شيء لم يكونوا ليتوقعوه. لقد توقف «التابوت».

وانتقلت الكلمة من فم إلى فم تقول إن حامل التابوت رفض أن يتقدم، أو أن التابوت قد سمره في مكانه رافضاً أن يحمل مسافةً أبعد. بدا اهتمام كبير وقلق على كل وجه. وتشكّلت على الفور مجموعة لتنشد وتصلي من أجل إطلاق الحامل. في الوقت نفسه، وعلى مسافة محترمة من التابوت والرعاع المصعوقين كان الواعظ يخبّ خبباً ناعماً، وربما كان الوحيد الذي لم يرتبك حين التفت إلى الوراء وشاهد الموكب متوقفاً بالفعل.

لم يعرف أحد عن أمره شيئاً قبل مجيئه إلى هذا المكان منذ خمس سنين. بعضهم يقول انه باء بغضب من الله، قبل أن ينمو جناحاه، وترك صومعته، بسبب حبه راعيةً. آخرون يقولون إنه ترك صومعته بأمر من الله، وأن الله سيستدعيه ثانيةً في أي وقت. وما يزال آخرون يجادلون، ومن بينهم الكاتب، خاصة، قائلين إنه ليس شخصاً روحانياً، على الإطلاق، بل هو ابن شيطان ولدته امرأة ـ (لم يكن غريباً على الشياطين أن يكمنوا عند بركةٍ وينتظروا اغتصاب الفتيات عندما يجئن لملء الماء ـ هذا في الأقل هو الاستنتاج الذي يستخلصه المرء من عدد الضحايا اللواتي أُخبر عنهنّ في حينه). ومهما يكن أصل الواعظ، فإن الأمر المعترف به عند الناس، هو أنه

ليس شخصاً من الفانين العاديين.

كما قيل إن باستطاعته السفر ماشياً إلى أي مكان يوجهه الروح إليه (تماماً كما اعتاد آبو أن يفعل حين كان على وجه الأرض) أسرع من أي واسطة. وقد شوهد في مكان معين، وشوهد في اليوم التالي في مكان آخر يبعد عن الأول مائة كيلومتر. هذا في الأقل ما قاله الناس، وثمت عديدون، وبخاصة، سائقو الشاحنات، يُقسمون مؤكدين هذه الحقيقة. كيف قام بذلك، وهل تراه قطع كل المسافة مشياً، أم أن له أجنحة غير مرئية، لا أحد يعرف.

إنه لم يركب، قط، حصاناً أو بغلاً أو واسطة نقل من أي نوع. وإن فعل، فإن أحداً لم يره البتة. إلا أنه كان هو نفسه حصاناً من ناحية ثانية. ذلك ما يتظاهر به في الأقل. في أيام آبو، بخاصة، كان يعدو ويخبّ، ينخر ويصهل. بل إنه يطلق صرخة طويلة حادة أحياناً. وفي بعض الأحيان كان يتصرف كحصان مصابٍ بالجؤار. الناس قالوا إنه تحت تأثير الحصان الذي في داخله. وكان من المستحيل التحدث إليه أو إيقافه حين يسيطر عليه الحصان. والمرات القليلة التي تحرر فيها ربما كانت الأوقات التي سيطر عليه فيها روح الله أو روح الجسد. حين يسيطر عليه روح الله يعظ، وحين يسيطر عليه روح الجسد، يجلس إلى مائدة، ويأكل، مستسلماً، ممتثلاً لأعظم ملك على وجه الأرض كما يقول: الطعام.

ولهذا لم يرتبك حين رأى التابوت وقد توقف. خبَّ وعدا، جيئة وذهاباً، أمام الموكب، وتوقَّف فجأة، واعتلى شجرة «ووبيا» كبيرة جميلة، ممتدة الأغصان، وارفة الظلال، بأزهارها القرمز ذات البذور التي يستعملها القساوسة لصبغ ثيابهم بالأصفر ـ وأخذ، ببطء وتواضع، يعظ عمّا أتى بالقدر الوشيك.

في الجانب الآخر، قبالته، وعند شجيرة شائكة، كانت المرأة مستحضرة الأرواح واقفة، وتبدو مترددة... أتبقى هنا أم لا ـ كانت الأرض مكسوة بالعشب، وأشجار الوانزا وشجيرات الآس مزهرة، والبازلاء البرية المتسلقة

ذات أشرطة الزهر كانت متدلية من معظم الأشجار. إلا أن النبت الشوكي كان كثيراً أيضاً ـ والأشواك تنتثر في المكان كله.

كانت المرأة مستحضرة الأرواح تجد دائماً صعوبة في السير خلال الشجيرات الشائكة وهي في ثوب العيد. شعرت بالحرج. وكانت الأشواك تمزق ثوبها وتخترق قدميها الحافيتين. وإلى جانب ذلك فإن فكرة اختراق شوكةٍ باطنَ قدمها، قد سببت لها لحظة ارتعادٍ في سائر جسدها، وإحساساً غائراً بالألم. ولم تكن لتعرف إن كانت أحبت تلك اللحظات أم لا. كانت الكلمات تأتي من شجرة الووبا «يا أبنائي، يا أبنائي، افتحوا عيونكم! انظروا إلى ما يحدث أمامكم ـ وانظروا جيداً قبل فوات الأوان!». بدا أن المرأة مستحضرة الأرواح قررت، أخيراً، مغادرة المكان، فسارت في طريقها باتجاه الواعظ.

كان الواعظ يقول وهو يرى المرأة مستحضرة الأرواح تقترب:

«لا تدعو زخرف الدنيا يحرمكم نعيمكم المقيم في الجنة. لا تدعو زينة الثياب تغطي وتخنق زينة الروح. لا ـ لا تدعوا أشياء كهذه تحدث لكم».

كانت ترتدي ثوب قطن أبيض، ضيقاً ومزخرفاً عند الرسغ والرقبة والمقدمة، وملتفاً بذوقٍ حول خصرها لينحدر حتى قدميها. «نتيلا» ـ شمّا فضفاضة ـ تتدلى من كتفيها المدورتين. وشعرها مجدولُ ضفائر صغيرة، والنهايات تتدلى حلقاتٍ على العنق. كانت تتلاعب بمنديل وردي، تارةً تغطي به شعرها، وتارة تزلقه إلى عنقها. حول عنقها قلادة فضة على طولها خيط أزرق حرير متصل بصليب فضة وتعاويذ قليلة بينها واحدة ضد العقم، وحجابٌ فيه مواد غامضة. كما ترتدي خلاخيل فضة.

وتُسمع من الحجيج أغنية:

«احمنا من الخطر الداهم
آونا في رحمتك
بحق مريم، أمك...».

وتكلم الواعظ أعلى فأعلى:

«توبوا، توبوا، أيها الخطاة! الألف الثامن، ساعة الحساب، والتوبة، والعويل والعضّ على الأسنان، والحرب، والرعب، والدمار، وقيامة المسيح بكل مجده ـ يوم الحساب آت علينا...».

كانت المرأة مستحضرة الأرواح تقف قريبة من شجرته. كانت تنظر إليه بدون عائق، وبدون أن تجلب انتباه أحد.

ويتردد في الجبال: «كيري ياليسون، كيري ياليسون.
أيها المسيح، أيها المسيح...».

وشرعت المرأة مستحضرة الأرواح تتملى الواعظ بصورة دقيقة.

شملت بنظرة واحدة، مظهره العام، وهيئته، وقامته، وهي الآن تنظر إلى وجهه، وعينيه القويتين الأمرتين، وأنفه البارز، وجبينه الحازم. وفي الوقت نفسه بدأت تستغرب كيف أن رجلاً مثله ما يزال له هذا الوجه الفتيّ الأنيس... كيف سيبدو لو غسل التراب الأحمر الذي يغطي شعره المعقوص ولحيته.

«يا ربنا، يا ربنا.

أيها المسيح، أيها المسيح...».

وفكرت بحقيقة أن رجلاً كهذا لم يكن يمقدوره، البتة، أن يعرف امرأة في حياته.

«توبوا! توبوا! أنتم أيها الخطاة».

كانت الكلمات تأتي من الشجرة أعلى فأعلى. والمرأة مستحضرة الأرواح تنظر إلى صورة مؤطرة للمسيح تحت قماش شفاف كان يحملها شماس شابّ قربها. لاحظت، بشكل خاص، جبينه، وأنفه، وشفتيه، وشعره السبط الطويل المسترسل على كتفيه. وبغتةً، كأنّ شيئاً داهمها، التفتت لتنظر إلى الواعظ.

رأت شبهاً غريباً بين وجه يسوع ووجه الواعظ.

«يا أملك (يا رب) يا أملك
أيها المسيح، أيها المسيح...».

حتى الشعر! لو لم يكن مضفوراً لاسترسل على كتفيه. ارتعشت قليلاً، ورسمت علامة الصليب ثلاثاً، وحاولت أن تقول لنفسها إن عينيها خدعتاها. نظرت ثانية، أولاً إلى الصورة، ثم إلى الواعظ.

«كيري ياليسون، كيري ياليسون.
أيها المسيح، أيها المسيح...».

كان الناس يضعون في الجوقة كل ما تبقّى من طاقة في أجسامهم التي تنضح عرقاً. فجأة شعرت المرأة مستحضرة الأرواح بغضب لم تعرف له سبباً، وابتعدت متجهة إلى شجرة وانزا قريبة ذات عناقيد أزهار بيض كبيرة، شهيرة باحتوائها عسلاً كثيراً. بالإمكان رؤية آكل النحل الزمردي الذهبي الصغير وهو يبلي بلاءه الحسن مع الحشرات العابرة. والمرأة مستحضرة الأرواح ظنت أنها غاضبة لأنها نسيت وضعها لحظةً، واختلطت بالرعاع من حولها. اعتزمت أن تظل حيث كانت وتقرأ سِفر المزامير. وحاولت أن تقول لنفسها إنها عرفت الواعظ لأكثر من أربع سنوات، وأنه لا يستحق أن تستمع إليه. أخذت الكتاب من ابنها، ووقفت تقرأ. لكنها لم تكن تقرأ كما اعتادت. فهي لم تتعلم الألف باء، قط، ولم تقرأ بالفعل. كل ما كانت تفعله هو مجرد تقليب أوراق الأثر المقدس، ببطء، ولطف، واحدة بعد أخرى، وفي الوقت نفسه تتلو أجزاء من المزامير كانت حفظتها عن ظهر قلب. ظلت تقلب الصفحات حتى أتمت التلاوة.

هنا شعرت أكثر بأنها مستحضرة أرواح.

كان الواعظ يقول، مشيراً إلى التابوت الذي ما يزال بلا حراك «الألف الثامن، يوم الحساب قريب. إنه آت إلينا، أخيراً».

«يا أمْلك، يا أملك

أيها المسيح، أيها المسيح . . . ».

ابن مستحضرة الأرواح المرتدي قميص قطن أبيض كان يقف وراءها، وهو يحمل بيسراه فوقها ظلة شمس من عشب مجدول دقيقاً، ويحمل بيمناه عود وويبا طرياً. خضرة الأرض وبياض الثياب كانا في تضادٍ حيّ، والمشهد كله ـ أشعة الضوء الطويلة تختلط مع الظلال الأفقية التي ترميها الأشجار ـ يتنفس نوعاً من جمال ناعم. على مبعدة يسيرة، كانت بغال الحجاج، متناوبةً، تمسِّد بأسنانٍ رفيقةٍ فرساً جميلة سوداء.

«أليس ذلك علامة كافية تبين لنا كم عصينا قوانين الرب ـ تبين لنا كم أذنبنا بحق إرادته السماوية؟». نظر ناحية المرأة مستحضرة الأرواح، والتقت عيناه بعينيها لحظة قطّبت حاجبيها، ورسمت على نفسها علامة الصليب، وهي تستدير مبتعدة عن مشهد البغل. لقد انزعجت، خاصةً، للقروح التي شاهدتها على حوارك الحيوانات وظهورها وبطونها وجوانبها، ولأن أصحاب الحيوانات لم يأتوا بها، إليها، في الوقت اللازم.

«يا أجزيو (يا رب) يا أجزيو
يا أملك، يا أملك . . . ».

ويا لما تفعله البغال في مناسبة كريمة كهذه!

ثم إنها لم تشرب، البتة، ماءً جيء به أيام الآحاد، أو قهوةً هُرست في أي يوم من أيام القديسين. كما أنها صامت، بجانب أيام الصيام العابرة التي يأمر بها قسيس الاعتراف تكفيراً، مائتي يومٍ في الأقل، من الأيام المائتين والستين. وفوق ذلك كله، تقوم بإخراج الشياطين من المرضى، باسم الأب والابن والروح القدس.

توقفت عن تلاوة المزامير، وسارت سريعة الخطوات نحو الواعظ. «أم أنه ما زال علينا أن يكون نذيرنا المجاعة والوباء أو الحرب؟ أعلينا أن ننتظر نوعاً من الإبادة ـ نوعاً من عقاب لم يُسمَع به؟».

«يا أملك، يا أملك

يا أملك، يا أملك».

كانت المرأة مستحضرة الأرواح تقف الآن على مبعدة بضع خطوات من الواعظ. كانت تعرق. لاحظت كيف أن الواعظ كان يعرق بغزارة أيضاً. واتسعت في صدرها رغبة عارمة ـ رغبة في شيء يبردها. نظرت ثانية إلى العرق المنحدر على وجه الواعظ، وودّت لو أنه كان شيئاً آخر ـ زبدة ذائبةً، مثلاً. تخيلت قرص زبدة كبيراً بارداً على هامة شعر الواعظ الكثيف الأحمر المضفور. فكرت في أنها تخدمه، وبيدها قماشة قطن ناعمة تمسح بها الزبدة الذائبة في الشمس.

«يا أجزيو، يا أجزيو
يا أجزيو، يا أجزيو..».

كانت الزبدة تذوب وتسيل على رأسه، والشعر الذي يلي رقبته، وجبينه، وكانت هي تمسح، بنعومةٍ ولطفٍ، الزبدة الذائبة، بقماشتها، حتى لا تدخل في أذنيه وعينيه.

البغال كانت شرعت تصهل وتتدافع وتتقافز للافلات من حبالها ذات الأوتاد.

«آه، لا، يا أولادي ـ لا، لا! قومنا لا يعوزهم الفهم. هم يعرفون متى آنت الساعة. يعرفون بأدنى علامة. ويعرفون أنهم أخطأوا ـ وأننا جميعاً أخطأنا...» رفع يده عالياً في الهواء، ثم أنزلها ببطء، ووضعها على رأسه، لمجرد أن يلقط شعره قليلاً بأصابعه، ثم يخفضها رأساً... المرأة مستحضرة الأرواح وهي ما تزال في حلمها تناولت ملقط شعرها المفضل ذا الإطار الفضة، وأخذت القماشة بيسراها، وأمسكت الملقط بيمناها وشرعت تلقط شعره.

«كيري ياليسون، كيري ياليسون...».

«بعضكم يؤوي اللصوص والمجرمين بدلاً من تسليمهم إلى القانون. حتى أولئك الذين خانوا امبراطورهم ووطنهم، أحياناً! بعضكم يستمع بآذان

مرهفة إلى المتشردين والصعاليك الذين يشوّهون سمعة رؤسائكم بدلاً من الإبلاغ عنهم فوراً. أنتم تأكلون حيوانات ذات أسنانٍ في الفك الأعلى...».

كانت تلقط شعره بلطف، وتنشر الشعر الضفير بعناية.

«وحيوانات ليست ذات ظلف مشقوق. بل إن بعضكم يأكل الخنزير البري، وخنزير الغابة، والآن...».

«يا اجزيو، يا اجزيو

يا أملك، يا أملك...».

كانت ما تزال تنشر شعره. كتفاها ترتعشان قليلاً، ويداها تسرعان.

«والآن، أنتم تهتفون، يا أملك، يا مسيح!، كيف نسيتم أن الألف الثامن مدرككم. اليوم الذي يقف فيه الخدم ضد سادتهم، والأولاد ضد آبائهم. يوم يعضّ الأطفال اليد التي تطعمهم. يقفون ضد امبراطورهم. ضد الامبراطور الذي يطعمهم حليباً وعسلاً. الذي يعلمهم. الذي يستنقذهم من المستنقع ويجعلهم وزراء وجنرالات...».

المرأة مستحضرة الأرواح كانت تستعمل الآن مشطها الخشب ذا الأصابع العشر، لتمسد شعره.

«أيها المسيح، أيها المسيح...».

الآن، يقف قرب المرأة، شماسٌ يحمل صورة عن أحد مشاهد الجحيم. كانت الشياطين أوثقت رجلاً عارياً، وشرعت تقطّعه. الدم يسيل من كل جسده، أصفر كابياً. في الجزء الأيمن من الصورة، كانت بقايا الرجل المنكود تهرس في هاون.

«آه. نعم! يجب أن تتحملوا وزر ما فعلتم! انظروا فقط إلى الصورة لتتخيلوا كيف سيكون عذاب الجحيم، ولو اني أعترف بأن ما ترونه في الصورة ليس بذي شأن، مقارنة بما ينتظركم...».

شماسٌ آخر، هزيل كاللقلق كان يحمل صورة القديس جرجيس. كان يمتطي جواداً وينظر تيّاهاً ناحية الواعظ، بينما يقتل في الوقت نفسه، إلى شماله، التنين، مخترقاً فمه بالرمح. كان التنين في حشرجة الموت، وثمت شيطان يتمرغ في التراب، شيطان صغير قبيح، ذو قرنين قصيرين، وأسنان كبيرة حادّة، وذيل، وظلف غير مشقوق. هذا الشيطان كان يستخدم التنين مطيّةً.

«أيها المسيح، أيها المسيح

يا أملك، يا أملك...».

«وهذه هي البداية (مشيراً إلى التابوت) بداية نتيجة جرائمنا، خطايانا. وكلنا يعرف معنى أن يرفض قديسنا المحبوب دخول مثواه. نعم. كلنا يعرف! كلنا نعرف المعنى، إنه يعني موسماً رديئاً، جراداً، وباء، مجاعةً، موت وفناء الناس والأنعام سواء بسواء... اقترب يوم القيامة...».

«يا اجزيو، يا اجزيو

يا اجزيو، يا اجزيو...».

كانت تستعمل الآن ديجانها (نوع من القوس) وكيلانجتها (عنق اليقطينة)، وهي تغني أغنيتها الجميلة على رأسه، وتندف، بالوتر المشدود، شعره، بطرف الكيلانجة، لتجعله مسترسلاً خفيفاً كالغيم النديف.

«أقلتَ إن التابوت رفض دخول مثواه؟ آه. لا! إن هذا لسخف منّا. الحرّي أن نقول إنه رفض أن يمضي حتى قريباً من كنيسته. لقد ألغينا الغداء الذي اعتدنا إقامته على شرفه. أجل، رفض أن يتحرك لأننا نسينا واجبنا إزاء كنيستنا، وامبراطورنا، وبلادنا...».

انتظر ليرى التأثير الذي يحدثه، وعدّل جلود النمر على كتفيه، وضرب الأرض بعصاه، وهي عصا مزينة بصليب وحلقات نحاس، وانطلق يزأر ثانيةً أعلى مما كان.

«كيراراييسو، كيراراييسو
يا اجزيو، يا اجزيو. . . ».

كان المنشدون يبذلون أقصى طاقتهم، كما يبدو، ليغطوا على زئير الواعظ.

«لقد أذنبنا بحق ربنا، أذنبنا بحق امبراطورنا، أذنبنا بحق بلادنا، بحق اخوتنا، مجتمعنا، أنفسنا ـ وفادحٌ فادحٌ هو الثمن الذي سندفعه. . . » أدركت المرأة مستحضرة الأرواح، بغتةً، ما كانت تفعله. ارتعش جسدها كله، واختضّت كتفاها كأنهما في نوبة، وفي نوع من الذهول، والصمم، والعمى عن كل ما حولها. ركضت مبتعدة عن الحشد نحو ظل شجرة وانزا. مالك الحزين، وقد مدّ رقبته الطويلة، طار من الشجرة، وخفق بجناحيه، متكاسلاً، عبر وجه الشمس، ثم مضى نحو غيضة الكوسو حول الكنيسة، وطاف بها مرتين أو ثلاثاً، ثم أطلق صيحة وحشية حادّة، ليعود فيحطّ حيث بدأ.

القسيس الذي يحمل التابوت على رأسه كان يسنده لئلا يسقط، قسيسان آخران، كانا أثناء الموكب يقيان التابوت من حرارة الشمس بمظلات متعددة الألوان.

«أجل، يا أولادي، إنه أوان التوبة. إنه أوان إنقاذ أنفسنا من نار الجحيم الأبدية. أجل، يا أولادي. وليعترف أولئك الذين أذنبوا بحق امبراطورهم، بجريمتهم، فينالوا عقابهم ـ وإنه لمكتوبٌ: خيرٌ للمرء أن يخسر ملكوت هذه الدنيا، من أن يخسر ملكوت السماء. خيرٌ له أن يناله عقاب ملك أرضيّ من أن يناله عقاب الله. وخيرٌ له أن يكابد عذاب سجن أرضيّ، من أن يكابد عذاب سجن النار حيث أسنان الشيطان أحدّ من أي قاطعةٍ على وجه الأرض. . . ».

«أيها المسيح، أيها المسيح
أيها المسيح، أيها المسيح. . . ».

«. . . حيث الديدان والوحوش لا تهدأ ولا تنام، بل هي تمضغنا ولا تبتلعنا، فنكون معها في عذاب أبد الآبدين. آه، يا أولادي، كيف لشخصٍ فانٍ مثلي أن يصف لكم العذاب الذي ينتظركم؟ إنه مرعبٌ، عصيّ على الوصف. خيرٌ لنا أن ندفع ثمن خطايانا في سجن أرضيّ. . . ».

القسيس ما زال مسمَّراً في البقعة التي توقّف عندها. والقسيسان ما زالا يسندانه. ويبدو أن الإنشاد والوعظ والكفارة عجزت عن تحريكه.

«كيراراييسو، كيراراييسو
يا أملك، يا أملك. . . ».

«حتى حياتنا اليومية ـ حياتنا اليوم تتحطم تحطماً بطيئاً بذنوبنا وجرائمنا. حياتنا البيتية الهادئة البسيطة أخذت تفسح المجال للعنف واللامبالاة. شخصيتنا الوطنية، وإيماننا، وقوة إرادتنا، وعادات الاحترام والاتقان والإخلاص للواجب، تتلاشى في ضباب المظاهر والبدع التي لا تُعدّ ولا تحصى، والتي استولت على شخصيتنا ـ السكر والرقص والعهر وما إلى ذلك. . . ».

«كيراراييسو، كيراراييسو
كيراراييسو، كيراراييسو. . . ».

«ورخُص رباط الزواج. يدخلونه خفافاً ويخرجون منه خفافاً. ومحاكمنا مثقلة بدعاوى الطلاق والتخاصم على تغيير علامات الأرض، وعدم دفع الفائدة على القمح المستلف للبذار. وضعُفَ الامتثال للسلطة أيضاً. ونُسيت طاعة الوالدين. . . ».

«أيها المسيح، أيها المسيح
يا أملك، يا أملك. . . ».

«. . . نعم، يا أولادي. لقد جاء يوم الدينونة. سيكشف أسرار كل القلوب، طاهرة، أو شريرة. وسرعان ما نعبر من الموت إلى الحياة في المسيح، أو إلى العذاب الأبدي في الشيطان. وهذه هي بداية (ناظراً إلى

التابوت) العقاب. . . ». نظر إلى المرأة مستحضرة الأرواح التي كانت في طريق إصبعه، ثم إلى التابوت، فالمرأة مستحضرة الأرواح ثانية (نظرةً أطول هذه المرة) ثم إلى التابوت، وبحدَّةٍ إلى المرأة. لاحظت ذلك المرأة، وأرسلت ابنها ليقف عند شجرته اعترافاً. الواعظ بدوره لاحظ الإيماءة. «لير الرائي، وليسمع السامع. حقاً، لقد أخطأنا! لكن ما يزال لدينا فهمنا. نحن نعرف أن بإمكاننا أن نولد من جديد، أطهاراً طائعين، من خلال المسيح ربنا. . . ».

«يا أملك، يا أملك
أيها المسيح، أيها المسيح. . . ».

«بإمكاننا أن نستعيد جمالنا، ونقاء قلوبنا، وحريتنا. وسيسامحنا الله ربنا عن أخطائنا بعينيه العطوفتين الرحيمتين. إنه مستعدّ دوماً للغفران. لو تبنا فقط وكفّرْنا عن ذنوبنا. نعم! إنه مستعد دوماً لتقبلنا. ولمسامحتنا. لكن يجب أن نكفّر عما فعلنا. . . » نطق الكلمات الأخيرة بقوة، وهو ينظر، كما يبدو، إلى المرأة مستحضرة الأرواح.

موجات الحرارة المعْشية ووهج الشمس على الصخور البركانية، صارت لا تطاق. والمرأة وهي واقفة تحت شجرة الوانزا، بدا لها أن كل شيء يتحرك. انطلق الواعظ أعلى فأعلى، والبغال ما تزال تصهل، والشمس ترتجف وتلتهب. أحست المرأة مستحضرة الأرواح أن سرعة الحياة تكتنفها من كل جانب. نظرت ثانيةً إلى الواعظ. كان ما يزال يشير، ويلوِّح، ويتحدث. كأنه يخاطبها هي أكثر فأكثر. بدأت يداها تلاعبان المنديل الوردي ـ يغطي شعرها تارةً، وينزلق إلى عنقها تارة ـ أسرع فأسرع.

«نعم، المسيح يفهم ضعفنا ويغفره لنا»، نظر إلى المرأة مستحضرة الأرواح ثم إلى التابوت «أولسنا جميعاً أبناءه؟ نحن أبناؤه، وهو يعرف أن فينا أعشاباً ضارة. ألم يرسل المسيح لهذا إلى هذا العالم: ليعزلنا عما يخنقنا، ويجعلنا له، إنه ينتزع، بلطفٍ، الأعشاب الضارة التي تؤذينا، وتخنقنا وتقتل جمالنا. إنه ينتزعها بيديه الحبيبتين. آه، نعم، نحن حديقة الله لو فقط سمحنا للمسيح أن يكون في نسيج شخصنا. . . ».

تعمّد أن تكون كلماته غامضة، عديدة المعاني، كي يتوقف الرعاع خاشعين أمام كل كلمة قالها، وهم يرون تفسيراتها المختلفة.

«أيها المسيح، أيها المسيح
يا أملك، يا أملك...».

كانت تنافس الواعظ، في الجانب الآخر.

«أنتم حديقة الله لو فقط سمحتم للمسيح بأن يكون في لحمة حياتكم اليومية وسداها ـ في مشاعركم، في أحلامكم وآمالكم...» نظر إليها ثانيةً، مثبّتاً عينيه «أنتم الشجرة الرقيقة المختارة، المليئة نسغاً وخضرةً، التي زرعها الله. وكما أن كوني على هذه الشجرة حقيقةٌ، فإنها لحقيقةٌ أيضاً رغبتي التي تصاعدت فجأةً فيّ، في أن أظل تحت ظلكم. ربما لهذا السبب أتى بي الله أمام عيونكم...» راقبت المرأة مستحضرة الأرواح حركة عينيه، وهي ما تزال تلاعب منديلها. صارت نظرتها أكثر ضنى، وعيناها أكثر لعباً. وفجأة، الرؤيا ـ خطر لها أنها الآن مهيئة لتلقّي الكفّارة واستعادة تَوحُّدها بالمسيح. وفي دفقةٍ من شعور هائج، ركضت عائدةً إلى الواعظ. وفي طريقها وخزتها شوكةٌ فارتعدت قدمها.

«أيها المسيح، أيها المسيح
يا أملك، يا أملك...».

«ربما لهذا السبب أسلمني إلى إرادة الريح ـ أن يقذف بي إلى ناحيتكم ـ أن أنجم عن الأرض ـ أن أنمو ـ أن أقوى ـ أن أكون أضخم جسماً، وأن أحميكم في كل الأجواء والمناخات».

«يا أملك، يا أملك...».

موجات الحرارة الوثّابة كانت تنحسر ببطء، في دفء عميم. شعرت بشيء يسمو بروحها ـ عيناها مفتوحتان ـ مفتوحتان كأنهما تتوقعان شيئاً عظيماً ـ ونظرت إلى صورة يسوع المسيح كمن تراها للمرة الأولى. لم تستطع أن تصدق عينيها ثانيةً ـ ذلك الشبه الذي لا يخطئه أحدٌ بين الواعظ والمسيح.

«يا أملك، يا أملك
يا أملك، يا أملك...».

جوقة أصواتٍ عالية مديدة، ارتفعت ثم هوت.

«آه، كم هم الذين ينظرون منا إلى الأشجار في اليوم القائظ فقط عند جوانب الدروب الصخرية المغبرة، ويعمون عن جمالها السماوي. كم منا الذين يميتون الشعر الروحي الذي تثيره هذه الأشجار في القلب. الفيض اللطيف الدقيق للروح البشرية...».

«أيها المسيح، أيها المسيح
يا أملك، يا أملك...».

تصاعد نشيد الجوقة إلى كبد السماء، ثم تلاشى مع الأصداء المترددة بين الجبال ـ ثم تصاعد ثانيةً بسرعة مماثلة.

«أقولها لكم وأكررها ـ أسلموا أنفسكم للمسيح. أعطوا المسيح قلبكم قبل فوات الأوان...». اتسعت عيناه وائتلقتا. انصتت مذهولة إلى الأصوات التي كانت مخيلتها الحالمة تستحضرها. انصتت إلى الجوقة المتصاعدة دوماً. كل ما حولها، من بشر وحيوان ونبات، اتخذ هيئة ظلال شفيفة. وفجأة، حدث لها شيء غريب بهيجٌ كادت تنبجس له دموعها.

«... إلى المسيح الذي سيتفحصكم ـ الذي سيرى أأنتم متجهزون بما يكفي أم لا...». كانت مذهولة من الحرارة وألم الشوكة في قدمها. وفي ذهنها، تدريجاً، تحولت الشوكة إلى قدم الواعظ. نظرت إلى قدميه الحافيتين ـ صغيرتين مقارنة بجسمه. بدا لها أن قدميه لم تألفا الحفاء. أحست بالألم الذي كان يحس به ـ اقتربت من قدميه لتنتزع الشوكة بملقطها.

نسيمٌ دافىء، ممتزج بأرج الوانزا والياسمين والأزهار البرية، كان يحيط بالواعظ. الأغصان المتدلية تمشط شعره، وبين حين وآخر تُسقط ورقة أو اثنتين على كتفيه، وعنقه وشفتيه. عبرت دوّامة ريح بين الأشجار آتية مما بدا هدوءاً مطبقاً. لجّةٌ من أحاسيس غير محددة تسارعت في قلبها. والظل على

الأرض صار أشد هيجاناً كأنه يريد أن يرتفع ويطير بعيداً ـ ولمست المرأة مستحضرة الأرواح قدمه.

«. . . إلى المسيح الذي سيدللكم، إلى المسيح الذي سيطهر قلوبكم ويغسلها ـ الذي سيجعل جسدكم خفيفاً ـ إلى المسيح الذي سيحفظ قلوبكم إلى الأبد في نوره وبهائه ـ إلى المسيح. . .».

لمست قدمه ثانيةً. «. . . إلى المسيح الذي يمنحكم (التقت نار عيني المرأة بنار عينيه) القربان المقدس. . .».

«أيها المسيح، أيها المسيح
يا أملك، يا أملك. . .».

«أنظروا إلى المسيح. . . انظروا إلى المسيح! واتبعوه. إياه اتبعوا. . .».

والمرأة مستحضرة الأرواح، لم تكن تنظر إلى صورة المسيح التي كان يشير إليها، إنما كانت تنظر إليه هو ـ متسعة العينين. «انظروا إلى المسيح! خذوا تعريفه الحياة. دعوه يدخل قلوبكم، ويجعلكم كائنات ذات اكتمال وسعادة، فنحن بدونه أرواح بلا أجساد، لا نفعل شيئاً. . .». كان الواعظ ما يزال يتحدث، لكن بلا اتقاد، ولا شعور ـ إنه ميت. وفجأة، وبدون أن يجدّ جديد، صرخ مثل رجل يئس من نجدة فورية، ففقد كل أمل. كان يرتجف ويلطم جبينه، ويُظهر أنه يصارع صراعاً عنيفاً، شيء كان يرغمه على اقتلاع رأسه من كتفيه. قفز من الشجرة، وركض إلى الكنيسة. وأخيراً، بدأ التابوت يتحرك.

وكان يتبعه ببطء:
المحاربون
الخيل والبغال
والرعاع.

١٨

المكسب

غويتوم

ارتقى حامل التابوت، بصعوبة، الدرجات المؤدية إلى البوابة الكبيرة في سياج الكنيسة. وقبل أن يطوف بالكنيسة ثلاثاً، توقف عند الباب الرئيسي ليلتقط أنفاسه، ويستمع إلى قراءةٍ لحياة آبو.

«... ثيابه لحاء الشجر، وطعامه الجذور والورق، وعيشه في العراء، ونومه على الأرض القاسية ليلاً...». كان أحد القساوسة يقرأ، والحجاج واقفين ملء الساحة يستمعون. حكى عن عفة آبو وبساطته وبراءته وقداسته. قرأ عن ترويض شياطين زيكوالا. وكيف كان آبو يرسل البرق لإخضاعهم. كيف امتطى الأسود والنمور. كيف اعطى عينه مرةً لطيرٍ ظمآن حطّ على رأسه.

السيدة الصغيرة الفاتنة، كانت واقفة قرب حامل التابوت، وهي تتحدث إلى زوجة الوزير. وهي امرأة ضخمة الجسم، كأنها ألواح الوانزا وشجر التين التي صُنعت منها أبواب الكنيسة. هذه الأبواب تصنع بلا مفاصل، وأطُرها الجانبية من قطعة واحدة تدخل في فتحات صفائح الأسكفّة والأرضيّة. كانت زوجة الوزير سرجاء بصورة مدهشة. ربما كانت تحمل في فتوتها وعاء فخّار ثقيلاً على ظهرها، أو أنها اعتادت القعود ساعات طوالاً، كي تتكون لديها عجيزة كهذه، بارزة إلى خلف وإلى أعلى ليستقر عليها الوعاء. أو

السيّد. مثل... مثل... هذا الرفّ، هذه الدكّة. وذراعاها مثل رتاجي الباب الثقيلين هذين، كتلتا لوحٍ ضخمتان. أيّ تضادٍ مع السيدة الصغيرة! مثل الأحجار المستوية الملساء التي تصدر صوتاً معدنياً. الحجر الرقيق الأملس. والحجر الثخين الثقيل. الاثنان كلاهما، معلقان من الشجرة القديمة ذاتها. وحين تضربهما بخشبةٍ صُلب يصدر الحجر الرقيق نغمة صافية خفيضة، أما الحجر الثخين فيصدر صوتاً عميقاً مكتوماً. نواقيس آبو الحجرية. يتقدم الموكب الموسيقيون الذين يبعثون من آلاتهم ذات الوتر الواحد صوتاً عاطفياً حزيناً. ووراءهم حاملو البخور، مؤرجحين مباخرهم النحاس ذات الدخان الأبيض الكثيف. ثم التابوت وأتباعه كلهم ـ القساوسة، علية القوم، التجار، المزارعون. وكلهم يطوف بالكنيسة ثلاثاً.

وما أن يدخل التابوت الكنيسة حتى يتعالى الهرج. الرجال والنساء يحملون السيوف والسكاكين يركضون وراء اللحم. وفي كل مكان من ساحة الكنيسة أخذوا يقطّعون الأضاحي وهي ما تزال حيّةً. أحدهم يقطع ـ الآخر يخطف ـ واحدٌ يصارع ـ آخر يركض. في كل مكان من ساحة الكنيسة كانت الحيوانات تمزّق أشلاء حتى قبل أن ترفس. واحدٌ يقطع لحماً من القائمة الخلفية، آخر يقطع من القائمة الأمامية، ثالث من البطن. وآبو مسرور لما يجري. حسب ما يعتقد الناس في الأقل. آبو مسرور ـ لم يتركوا له إلا شيئاً من المصران والفضلات وبقايا الحيوانات الميتة. آبو مسرور ـ بالفضلات والبقايا التي تُركت بلا دفن. الصقور تحوّم على الكنيسة. والذباب يتجمع ويطنّ على قطعة لحم. هرج ومرج ـ رائحة الدم المراق والتفسخ، منظر العشب الرطب، صيحات الشحاذين، نباح الكلاب وعراكها. كل شيء هنا ـ فوضى وبداءة... وفجأة، العاصفة الرعدية المألوفة الآتية من لامكان. مبتدئة بتساقط بَرَدٍ غزير، كل حبّة منه بحجم جوزة الوانزا. ثم يتحول البرد إلى مطر نصف متجمد. ثم يتوقف كل شيء، كما بدأ، فجأة ـ وتأتي الشمس الملتهبة.

هبطت إلى كوخ المرأة مستحضرة الأرواح، لأرى كيف حال الفيتاوراري.

القسم العاشر

١

السيدة الصغيرة

قلت لصديقتي، إن كنت سأتزوج، فلن يكون زوجي من القصر. قلت لها إنه سيكون من صومعةٍ، مختبئاً في الغابات عن الأعين المتلصصة. قلت لها إنني سأخرج قريباً لأبحث عنه. وسوف أجده عند بركة ماء غائرة في الصخور، هكذا قلت لها. وسيكون رجل مرح، ولسان مهذب، ومساعدة... وهي قالت: «عليكِ أن تؤدي النذور والطقوس المناسبة قبل أن يهديك ملاكك الحارس إليه».

وأنا أخبرتها أنني سأبذل كل شيء. بل لقد نذرت منذ الآن ثوراً لآبو وآخر للقديس جبريل في ذكراهما.

قالت: «أجل. لقد رأيتك تطلقين آهة طويلة حين انتهت الموعظة عند التل». وكيف كذبت عليها... إن الموعظة لم تكن غير هراء، وإن الواعظ لم يفعل أكثر من التخبط.

وقالت: «كان التأثر بادياً على وجهك. وشعرتُ بوخزة صغيرة من أجلك. كأن ضميري يؤنبني».

وثانية، أخبرتها أنني غاضبة ربما بسبب أن الواعظ كان يحاول جاهداً تضليل الناس، وينادي بخرافاته الساذجة.

قالت آنذاك: «إنّ ألسنة القساوسة المزيفين مغلفة بالحقيقة، مثل الطُعم

الذي يوضع للذباب».

سألتها: «ألم تلاحظي محاولته الباهتة في الحديث عن الله؟». كنت أحاول إسناد رأيها، من دون أن أدرك، حينها، أين سيقودني ذلك.

قالت: «في أماكن كهذه ربما جاز أبله فاعتبره الناس عبقرياً. وكما لاحظت فإن بعض ما قاله ثبت في الذاكرة مثل ضحكة نصف منسية».

كم كانت على حق! ضحكة نصف منسية! ذلك الكلام عن المسيح في لحمة حياتنا اليومية وسداها. في أحلامنا وآمالنا. والكلام عن الشجرة المختارة المفعمة بالنسغ التي زرعها الله. والأمل في أننا سنستعيد جمالنا، ونقاء قلبنا، وحريتنا... مثل ضحكة نصف منسية! كم هي على حق... وتلك اللجة من الأحاسيس غير المحدّدة التي تصاعدت فيّ، غريبة، بهيجة، بحيث جعلت عينيّ تدمعان. ثم لم أصدّق ما ظننت أني سمعتها تقول.

«كان ملتمس عمل، ينتظر، في قائمة زوجي الراحل، لأكثر من سنة» قلت: «ملتمس عمل ينتظر؟ تريدين أن تقولي لي إنه شخص عاديّ من الفانين، مثلك ومثلي؟».

«وقبل ذلك، كان نقيباً في مخابرات جلالته. لقد طُرد من الخدمة بسبب ما قاله وفعله خلال الانقلاب الأخير».

صُعقت، فلم أستطع أن أنبس بكلمة. لم أستطع أن أسألها حتى عن الكيفية التي صار بها واعظاً.

لكنها مضت تقول: «زوجي الراحل وجد له عملاً. ليساعده، كما تقولين، في التكفير عن جرائمه السابقة على هذه التلال الموحشة. وأنا أفترض أن السلطات عفت عنه بالفعل. لقد كان مفيداً جداً هنا كما رأيت. وقد يعود في نهاية هذا العام، إلى عمله».

سألتها: «وماذا عن الشعر المصفف المضفور؟» كنت مصعوقة. الشعر المصفف. الشعر المضفور.

قالت: «كله مستعار. يجب أن تكوني جاهلة بما يدور في العالم، إن لم تلاحظي رقة قدميه العاريتين. حتى فلاّحي وامرأته مستحضرة الأرواح بإمكانهما التقاط ذلك».

قلت مخفيةً كل الأشياء الأخرى التي رأيتها فيه: «لهذا بدا وجهه لي أكثر شباباً». كانت حماقة مني أني لم أتجنب الكلام عن الموعظة والواعظ. في الأقل كان عليّ ألاّ أترك الأمر يصل إلى هذا الحد. وماذا كانت ستقول لو أخبرتها عن عنزتي واغتسالي بالماء المقدس، والنقيب الواعظ يصب الماء عليّ من خلال صليب الفضة، ويلمس جسدي؟ ماذا كانت ستقول؟ وتلميذه التابع... ربما كان عريفاً.

قالت: «إن العالم كله ليس ظلماً فادحاً كما يحلو لشبان وشابات اليوم أن يقولوا عنه. إنه ليس مسخرة، ومهزلة. إنه ليس...».

انتظرت لأستمع إلى ما ليس كذلك... انتظرت وانتظرت. لكنها لم تقلها. لم تقل لي ما الأمر. لقد امتطت بغلها، ببساطة، وودّعتني، وأسرعت إلى بيتها، وكل اتباعها من الشبان الأنيقين وراءها.

إني أتساءل: ما هو هذا العالم، حقاً؟ إن لم يكن ذاك... ذلك الذي يتلهف عليه المرء... ذلك... شجرة ضخمة تضافرت عليها النباتات المتسلقة ـ انظر إلى ذلك السرخس المطبق على جذوع الأشجار. آه، يا إلهي! هذا البغل يثير فيّ إحساساً بالخوف، من حيلته في المضيّ إلى حافة الممر والإطلال على الجوانب المنحدرة... والانهيار الصغير للحصا تحت قدمي... أيكون هذا هو العالم؟

٢

ووينيتو

مكتبة
t.me/soramnqraa

دخل غويتوم من الباب، بسيجارة مشتعلة، وسحابة دخان تهفّ وراءه. الكوخ بارد والهواء عطن حامض ـ روائح مختلطة من الخشب وأقراص روث البقر والجلد. المضيفة تحاول إشعال النار جاهدةً. كسرت عيدان الوقيد على ركبتها، وهي الآن تنضدها على قاعدة من أقراص روث البقر. في البداية أبت النار أن تتقد. اللهب يرتجف واهناً مغطى بطبقة دخان أسود. تيار الهواء يمنح النار حياة جديدة. وأقراص الروث تتوهج والعيدان تلتهب، وتحترق ببطء ـ ظل الضوء المتمايل يتقافز على الحيطان...

غويتوم يجلس على دكة الطين في زاوية، مثل رجل أعمى أصمّ. كل عضلة في جسمه تبدو متصلبة متوترة. لكأنه ينصت إلى شيء بعيد بعيد. إنه غير مهتم بما حوله. منعزل، غاضب، وحيد. كل ما فيه متوتر كئيب...

وأنا أحس أني أغور، بطيئاً، في مشاعر كالموجة، أغور في كوخ مليء بالظلال. وفي عجزي، أفتح عينيّ بشدة، لكني لا أرى سوى العتمة، وأمواج الضوء التي تهدر جائعة على الحطب. وأبي يمد يده إلى غويتوم. وغويتوم لا يستطيع حتى أن يراه. اذهب إليه لأرى ما في يده. وهو يمدها، ببساطة، إلى غويتوم. اذهب وأوقظ غويتوم من سرحته. يأتي إلى أبيه.

يقول له: «احتفظ بهذه لي». غويتوم يأخذها. إنها ساعة جيب. ساعة كبيرة. يستمر الأب «ظلت معي خمس عشرة سنة. لم آخذها إلى ساعاتيّ».

بدأ غويتوم يفحصها في الظلمة شبه التامة.

في ركن، كان الفلاح يعبّ حساء الكرنب، وهو الآن يمسح فمه بظاهر كفه. يقول أبي: «إنها ليست ساعة عادية».

يقول غويتوم: «نعم. إنها أوميغا».

يقاطعه أبي: «لا. لم أقصد ذلك... إنها هدية لي من امبراطورنا».

يقول غويتوم: «يجب أن تكون فعلت شيئاً استثنائياً لتستحقها منه».

يقول أبي وصوته يهبط في حلقه: «رُفعت رتبتي أيضاً، وأقطعتُ أرضاً».

ويسأله غويتوم: «وماذا تراني فاعلاً بها؟».

«احتفظ بها لي! واستعملها...».

يجادله غويتوم: «لكن لديّ ساعة رسغ».

يقول أبي: «لا، تلك للعرض، وهذه للشغل! كما أريدك أن تتذكرني بأفعالي الصالحة». لم أسمعه يتحدث بهذه الطريقة من قبل. أحس أني سأفقده...

يقول غويتوم منزعجاً: «لماذا تقفين هناك كئيبة هكذا؟».

أظن أنه يحس كما أحس، وأنه غاضب من جديد. ربما من نفسه. ربما مني. يذهب إلى مكانه في الزاوية ويجلس وهو ينظر إلى الساعة. ينظر إلى الأرضية المسوّاة. وفجأة لم يعد، كما يبدو، قادراً على الجلوس، فيخرج... كم أود أن ألتمس دفئه وأبكي... لكنه يخرج ليكون وحده - يخرج...

أنا أخرج أيضاً، وأجلس مع نفسي على جذل ميت مغطى بالطحلب البري تحت شجرة - منصتة إلى قلبي - منصتة إلى الريح في ظلة الأوراق فوقي.

٣

المرأة مستحضرة الأرواح

غويتوم

ريح قوية تعصف بالليل. ابن آوى يعوي عن قرب. ظل السقف المثقل بالسخام معلّق في الكوخ. كأنه سيسقط علينا في أي لحظة. خفق لهب الشمعة الصغيرة. الريح تحركه هنا وهناك. هو يريد أن يهدأ، ويوشك أن ينطفىء. وعينا المرأة مستحضرة الأرواح الناعستان اتخذتا مظهر نشاط صارم. وانتظرنا، جاحظي العيون، مجيء الشياطين. بين حين وآخر كان القسيس يتجشأ اللحم غير المهضوم لخروفنا الأسود. نخسني في الضلع. صفعني على الظهر. طمأنني على شفاء الفيتاوراري، بمعونة الله، وشرف رفات أسلافه. ورأينا الفيتاوراري يمد ذراعيه، بين وقت وآخر، ليرتاح من الخدر في كوعيه. سمعنا تنفسه الصعب. وهو يحاول أن يخفف من إحساسه بثقل قلبه. ومرة رأينا الفلاح يحاول إيقاد النار في الكوخ. امتلأ الكوخ دخاناً. مما دفعنا أنا وويتو إلى الساحة طلباً للهواء النقي. حتى القسيس خرج وهو يفرك عينيه. وحين عدنا وجدنا الفلاح قد أبعد العيدان الرطبة وجاء بعيدان جافّة بدلاً منها. كان ينفخ عليها. ونحن انتظرنا جاحظي العيون. انتظرنا ظهور الشياطين. ربما في هيئة البشر. بذيول ليست أطول من المغازل العادية. أو في هيئة قطط سود. نحن لم نعرف بعدُ. والله وحده عرف ما دار بخلدهم حين ارتضوا أن يزورونا. قد يجلدوننا بالمذاري والسلاسل. الفيتاوراري كان

يدمدم ويغمغم قليلاً، مستلقياً على ظهره، وينتظر صابراً.

وإذا بنا نسمع صرخة. صرخة مباغتة، حادّة، أليمة، كأنها آتية من حول البحيرة. وبعد دقائق، تكررت الصرخة إياها. لكنها الآن أبعد. خرج الفلاح. كأنه يريد أن يتوثق. ثم سمعنا أصواتاً أخرى. عواء وصياح مجموعة من بنات آوى. ربما وجد حيواناً مترنياً في مكان ما. ثم شرعت البراغيث تخرج من السيقان المجوفة للعشب اليابس. وتسلقت وهي تتحسس طريقها في سراويلنا. أضاف القسيس بعض البخور إلى كسر الفخّار الثلاث. المرأة مستحضرة الأرواح تدفقت بالحيوية، مطلقة سلسلة من الغماغم والشخير والنخير. أشارت وتكلمت بلغة غير معروفة ـ في الأقل بالنسبة لي. كانت تدعو الشياطين بالاسم. وتنهمك حيناً في زعيق وتعزيم محمومين. ثم تساقط على الكوخ رشاش من الأحجار. وامتلأ الجو بأصوات غريبة شريرة. حاولت أن أتوثق مما يجري. نهضت. لكن القسيس أجلسني فوراً. قال إن ذلك هو علامة مجيئهم. كان يدعوهم من لا يسمَّون. المرأة مستحضرة الأرواح، وبلا سبب ظاهر، أخذت تصرخ وتجلد نفسها بعصا. عوت مثل ابن آوى، ونهقت مثل حمار، وبعرتْ مثل معزى. الفيتاوراري أتلع رأسه، وأرهف أذنيه وأخذ ينظر خارج الكوخ. قال لنا القسيس أن نتشبث بغصن القات الذي كانت قدمته لنا المرأة مستحضرة الأرواح، وألاّ ننظر إلى أعلى حين نسمعهم قادمين. حتى لو سمعناهم يستفزوننا بأصواتهم وأقوالهم وصخبهم غير اللائق. قال علينا ألا ننظر إلى أعلى حتى لو سمعناهم يضربون أثناء رقصهم. قال إنهم سيعمون عيوننا ويشلّون أجسامنا لو فعلنا ذلك. ونحن وعدناه بأن نفعل ما أمرنا به.

ثم بدأ الفيتاوراري يقول شيئاً. كأن صبره كان ينفد مع هؤلاء غير المسمَّين. ومع أن صوته كان يجب أن يكون أجشَّ. إلا أنه ليس كذلك. ثم انسلَّ شيء ما عند الباب. قال لنا القسيس أن نتشبث أشد بغصن القات. وثانيةً، انسلّ شيء آخر. بطيئاً هذه المرة. لم أجد بداً من النظر إليه. لم أصدق أن غير المسمين سيطمسون بصري، أو يشلونني. رأيت أن

الفيتاوراري كان يفتش بيده اليمنى تحت الوسادة. كان أيضاً يحدِّق في الباب بشدّة. لم يكن يبدو أنه يصدق أيضاً ذلك الجانب من الحكاية. حدّق وحدّق وحدّق. اتسعت عيناه فجأة، حتى كادتا تخرجان من محجريهما. انسلالٌ جديد. جَرُّ أقدام. طلقةٌ تصمّ الآذان من مسدس أبي! وصرخة ألم من الخارج.

صاح الفيتاوراري: «أصبتُ عدوي!». نهض لحظةً كأنه استعاد قوته كلها. وهمس «أخيراً!». ثم سقط في محفّته ثانيةً.

ثم حاول، ببطء، أن يعدِّل وضعه. أشار إليّ كي أكون بجانبه. أراد أن يهمس شيئاً في أذني. تشنج وجهه. انفتحت عيناه واسعتين، خرجت حشرجة من حلقه. كان صوته مثل عزيق الريح بين الأغصان. وبدا على وجهه ذلك التعبير الذي لاحظته حين كان في الكنيسة. ثم ضمني إلى صدره.

للمرة الأولى في حياتي، أدركت أنه أبي، بالرغم من كل شيء. لقد جعلني أنسى حتى انه كان رجلاً مريضاً، لذا كنت أضغط عليه بكل ثقلي. بدأت أقف. وحين كنت أفعل ذلك انزلقت ذراعاه من ظهري، وسقطتا هامدتين إلى جنبه. كان ميتاً.

القسم الحادي عشر

١

الإعداد

غويتوم

كانت المرأة مستحضرة الأرواح في اضطراب عميق، وسقطت من كرسيها حين وقع الحادث. وظلت في حالة ذهول حتى أوائل الصباح. لكنها بعد أن استردت وعيها بدا أنها تعرف ما جرى، فشرعت تعمل فوراً. وبمساعدة القسيس غسلت جسم زوجها الميت، ومددته على سريره.

الخدم وأنا فعلنا الأمر نفسه: غسلنا أبي، وألبسناه، ومددناه على محفته.

ثم استدعي قساوسة ليقوموا بطقوس الجنازة المألوفة وإحراق البخور. زعيم المقاطعة، جاء ضحى، وأخبرنا أن ننتظر حتى يأتي الشرطة من بيشوفتو، لضبط الحادث.

وبقينا ننتظر ساهرين عند الميتين.

٢

المرأة مستحضرة الأرواح

آمل في أن يأتي الشرطة، ظهراً، كي أكون قادراً على أداء رقصات وأغاني الجنازة لزوجي. آنذاك يكون صديقي القسيس عاد بالتابوت الخشب من بيشوفتو. أخيراً، سوف أدفن رجُلي كما لم يدفن شخصٌ من قبلُ. أما الآن، فأنا جالسة هنا، ساهرة على الجثتين. وحين استعيد مراراً وتكراراً ما فعلته حتى اليوم، فإني أتساءل عما أخطأت فيه. وعما فعلت كي أستحق هذا كله. أكانت كلها عبثاً ـ الصيام، إحراق البخور، النذور، إخراج الشياطين باسم الله ـ لمَ يكون هذا جزائي؟ ربما لم أسامحه على أكله لحوم الأضاحي. وكان ينبغي عليَ ألاّ أسمح له بتقليد من لا يسمَون. أن يصبغ نفسه بالأسود عنهم. أن يرقص عنهم. أن يعلن قدومهم. وأن يثرثر عن علاقاته. لكن، ألم أخبره مراراً أن يحتفظ بالأمر سراً؟ أن لا يتحدث عنهم علانية؟ ألم أخبره عن مراعاة عفته؟ ربما فعل أموراً كان ينبغي ألا يفعلها مع زوجة ذلك الموظف. وإلا لما وضعت قرص الزبدة على رأسه. وفيه عطر الآديس ذاك! والورقة البيضاء التي لفّت بها رأسه! ربما سحرته ولوّثته. ربما نسي واجبه الليلي. لكن... مَن لا يسمَون، أما كان ينبغي أن يتغاضوا مرة عن غلطةٍ كهذه؟ألم يقم طائعاً بخدمتهم؟ ألم يوافقوا على مشاركته إياهم اللحم؟ وإلا، فلماذا لم يقتلوه منذ المرة الأولى؟

يا إلهي، ساعدني لأعرف أين أخطأت. لأكفّر عن الماضي، وأتعلم شيئاً

للمستقبل. ساعدني كي يجيب من لا يسمون، دعواتي، الليلة. سأؤدي كل النذور وإحراق البخور، وأتوسل إليهم ليقولوا لي أين أخطأت بحقهم، وما هو دوري في المستقبل. وإن لم يجيبوني فمعنى ذلك أنهم غير راضين عني، ولم أعد في خدمتهم ـ وربما كانت نهاية حياتي قريبة. في هذه الحال، سأعدّ مكاناً لي بجانب زوجي... أؤدي الكفّارة... القربان... أؤدي...

٣

ووينيتو

. . . أسهر عند الجثتين، يا الهي، أحس أني مفقودة، مثلهما. إذ صار كل شيء أسود. ومع هذا، فإني ضائعة معك أكثر. معك لا أعرف حتى من كنت. . . أنى لي أن أعرف كيف أقترب منك وأعرفك وربما. . .

القسم الثاني عشر

١

التأخير

انتظرنا مجيء الشرطة، حتى مهبط الليل. لم يجيئوا. والغداة انتظرناهم. لم يجيئوا. وبالفعل صار الكوخ مليئاً برائحة الجثة ـ نتانة مخيفة. قررنا أن نبدأ رحلتنا غداً. جاء الشرطة أم لم يجيئوا.

٢

الهبوط

غويتوم

جبل زيكوالا المتلوي. ها هوذا. تلال وتلال وتلال. وتحت هذه التلال مزيد من التلال. وتحتها مزيد من التلال. وتحتها جميعاً الأرض المنبسطة المعشبة المليئة بالضباب الرمادي. ضباب ينتشر وينتشر وأنت تهبط نحوه. ضباب يصعد نحوك. كتل صخر هائلة في طريقك. وغالباً ما ينفتح عمق قدمين أو ثلاثة بين الخطوة والأخرى. وفي بعض الأماكن يندر أن تصل إلى القاع بدون أن تسقط. والتراب يتحول سريعاً إلى وحل بسبب أمطار الليل. القطعان الهابطة من التلال تعجنه، المهارى المتخبطة في الضباب الرمادي، في الأسفل، تعجنه. تعجنه طيناً. تجعل السير عليه صعباً. والريح الباردة تفحّ في وجوهنا. والمحفة تتمايل بانتظام. والنتانة المخيفة تنتشر. تشتد وتشتد مع كل خطوة. والنسور تطير فوقنا. تحاول أن تحطّ على جسم أبي. ابن آوى جائع يتقدم ليهاجمنا حين نغفل. ويختفي ثانية. والمارة يمسكون أنوفهم بأصابعهم ويهربون راكضين. رجل من أهل أحد هذه التلال ينخر مثل حصان متعب. يدندن بصوت عال إحدى تلك الأغاني الطويلة. ينضمّ إليه آخر في تل آخر. والآن يتعالى الصوتان، أحدهما يتبع الآخر. مَن تل إلى تل. من جبل إلى جبل. يشتدان ويشتدان. كأنهما يضاعفان بؤسنا. يضاعفان العجز الذي يخنقنا. تعول! تعول! الأغنية. الرائحة. تتحرك داخل

فلوبنا الكامدة. تكشف ألم القلب النعار. تفتح من جديد الجروح القديمة. ثم التوقف. أحد الرجلين يتوقف عن الغناء ليستمع إلى غناء الآخر. العويل ذاته. النحيب. والتهييج. ثم البدء. يبدأ ثانية ليلون غناءه أكثر بتلاطم الصوت الشائع. منتفخاً مثل موجة. موجة أصوات كثيفة. يقدم نفسه في الذهن باعتباره طريقاً. طريقاً يمتد بعيداً، بعيداً... طريقاً عريضاً تحت شمسٍ متقلبة. شمس محرقة. شمس غائمة. ونحن نسير مع كتل صخر هائلة. وغالباً ما ينفتح عمق قدمين أو ثلاثة بين الخطوة والأخرى. ويندر أن تبلغ الخطوة الثانية ولا تسقط. والريح التي تدفع الغيم تهبّ وعيوننا تحسر بسبب تعرضنا لها. وجوهنا تسودّ من الغبار والعرق. والأغاني الطويلة تستمر. ربما كانت نغماً لطيف الحزن. تخفف من أثقال نفس المغني. ناخرة مثل حصان متعب. صاهلة مثل جواد يجيب فرساً من أحد التلال. ووينيتو تتقيأ. وأنا أحاول مساعدتها. بلا فائدة.

بدأت اتقيأ أنا أيضاً. أتقيأ أحشائي أو كبدي أو أي شيء آخر. اختضّ كأني محموم. ثم أنزل خدمنا محفة والدي تحت شجرة. ابتعدوا وجلسوا يتخاصمون تحت شجرة أخرى. ووينيتو وأنا نتقيأ. ثم صرخة المرأة العجوز ـ وكانت عابرة. نسر! كان نسر يجثم على رأس أبي، ينقر وجهه. حاولت أن تطرده. لكن يبدو أن النسر أيضاً عرف أنها امرأة عجوز. أحد الخدم طرده بعيداً. انبجست الدموع في عيني المرأة الكابيتين الصغيرتين مختلطة بغضون وجهها الحزينة. وتأتي الأخبار. أحد الخدم رفض أن يحمل الجثة. أنا لم أستطع إرغامه. بدأت أحملها أنا مع الثلاثة الآخرين. النتانة تشتد وتشتد. والشمس تظهر وتختفي. توقفتُ. لقد أدركت أنني لست من القوة بحيث أقطع مسافة مائة وستين كيلومتراً على قدمي.

قلت للخادم الذي رفض أن يحمل المحفة، إني سأعطيه خمسين دولاراً.

جاء لإنقاذي. فرفض خادم آخر. أخبرته إني سأدفع له المبلغ نفسه. رفض. مائة دولار. رفض. مائة وخمسون دولاراً. رفض. مائتا دولار.

وافق. آنذاك أنزل الاثنان الآخران، المحفة، في ذات الوقت. ثم تلت هذا مساومة طويلة. وافقوا على ثلاثمائة دولار وأربعمائة وخمسين دولاراً لكل واحد منهم...

ثم سمعنا عاصفة رعدية غير متوقعة آتية من مكان قريب. وجاء المطر. وبردٌ كثير. يصفع وجوهنا. يدق على جسم أبينا. يدق على ووينيتو. يدقّ عليّ. جاعلاً منا جميعاً منصّات انطلاق. نحن أيضاً كنا ندقّ على زيكوالا. لكننا، مثل الإثيوبيين، كنا نهبط، ببطء واحترام. نحترم الموتى. نحترم الشجيرات الشائكة والممرات. نحترم الطريق الموحل الممتد أمامنا.

وفجأة، يتوقف المطر. وتتلاشى النتانة لحظة. وتأتي لحظة الصمت. في البعيد، يلوح قطار الصباح إلى ديرداوا، هادراً، ينفث بخاره، متابعاً طريقه مع أعمدة البرق. متابعاً أعمدة الكهرباء. متابعاً لوحات الإعلان: «دخن نيالا»، «دخن إيليني»، «دخن أكسوم: توليفة أميركية بالفلتر»، «الخطوط الجوية الإثيوبية ـ ثلاثة عشر شهراً من الشمس المشرقة...».

مكتبة
t.me/soramnqraa